تاريخ الجزيرة العربية

من القرن الثالث عشر حتى العهد العثماني

أ.د صباح مهدي رميض





تاريخ الجزيرة العربية

من القرن الثالث عشر
حتى العهد العثماني

رقم التصنيف. 956.06
تاريخ الجزيرة العربية - من القرن الثالث عشر حتى العهد العثماني
عمان - دار الفكر ناشرون وموزعون 2014
ر.أ: **2013-7-2647**
الواصفات :شبه الجزيرة العربية / /التاريخ الاسلامي
أعدت دائرة المكتبة الوطنية بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

الطبعة الأولى: 2014 - 1435



www.daralfiker.com

المملكة الأردنية الهاشمية - عمّان
ساحة الجامع الحسيني - سوق البتراء - عمارة الحجيري
هاتف: 4621938 6 962+ فاكس: 4654761 6 962+
ص.ب: 183520 عمان 11118 الأردن
بريد الكتروني: info@daralfiker.com
بريد المبيعات: sales@daralfiker.com

ISBN: 9789957920579

تاريخ
الجزيرة العربية

من القرن الثالث عشر حتى العهد العثماني

أ.د صباح مهدي رميض

الطبعة الأولى
1435- 2014



الإهـــــداء

إلى من اختارهما الله إلى جواره في دار الخلود السرمدية، فغابت أجسادهما، وحضرت أرواحهما وخلدت في ضميري وعقلي ذكرياتهما وسجاياهما

((والدي... ولدي محمد))

أسأل الله تعالى لهما وللمؤمنين والمؤمنات الرحمة والعفو والغفران.

«صباح»

شكر وامتنان

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما ألهم والثناء بما قدَّم من عموم النعم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها وتمام سنن أولاها، والصلاة والسلام على النبي الهادي الأمين وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد:

فشكري وامتناني لإدارة مؤسسة دار الفكر ناشرون وموزعون/ عمان - الأردن، لتجديد دعوتهم وتكليفهم إيّاي بتأليف هذا الكتاب بعد تعاوننا السابق الذي أثمر عن نشر كتاب تاريخ جنوب الجزيرة العربية الحديث عام 2010م، وبفضل من الله تعالى ترك أصداء طيبة لدى الباحثين والأكاديميين والمتخصصين بدراسات تاريخ الخليج والجزيرة العربية الحديث والمعاصر.

والشكر موصول إلى الأخ الأستاذ المساعد الدكتور كريم مزعل اللامي أستاذ فقه اللغة في كلية الآداب جامعة واسط، الذي راجع الكتاب ودققه لغوياً، وبكلمات الثناء ذاتها أخص بها الأساتذة الزملاء والأصدقاء الأفاضل والأحبة الطيبين، ومنهم الأستاذ الدكتور تحسين حميد مجيد والأستاذ الدكتور طارق الحمداني، والدكتور نايف الأحبابي، والأخ قحطان المشهداني ونبيل خليل إبراهيم وعمار ناصر عليوي وعبد الوهاب صالح محمود وحامد عطية والأخ الصديق حسام سامي وزوجته الفاضلة، وكل من لم أتذكر اسمه حين كتابة هذه السطور، والى كل العاملين والعاملات في المكتبة المركزية جامعة بغداد الوزيرية، لا سيما الأخت الفاضلة الموظفة آلاء أحمد لتعاونها المخلص وأداء واجبها بكل تفان وإخلاص، ودار الكتب والوثائق وفي مقدمتهم الأستاذ إسماعيل رستم أحمد مدير الإعارة، ومكتبة قسم التاريخ في كلية التربية ابن رشد جامعة بغداد، والشكر لإدارة مكتب دريم للطباعة على تعاونهم المسؤول في الأخراج الفني للكتاب.

وأخيراً أسجل شكري لعائلتي التي قدّمت الدعم والإسناد بلا حدود، فلهم مني كل التقدير والمحبة.

والله ولي التوفيق

المحتويات

المقدمة

يّعد تاريخ الجزيرة العربية إبان حقبة العصور الوسطى الإسلامية والمرحلة الانتقالية المؤدية إلى عتبة التاريخ الحديث، حلقة هامة من حلقات التاريخ التي تستلزم اجراء المزيد من الدراسات والأبحاث التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، لكونها حقبة اكتنفها الغموض ولم تستهو الباحثين في الخوض في غمار أحداثها ووقائعها، لندرة المصادر والمخطوطات ذات الصلة بالأحداث من جهة وتداخلها واختلاف مسبباتها من حيث تحديد جهة مرجعياتها على وجه الدقة من جهة ثانية، وهذا الأمر لا شك يتطلب من الباحث جهداً مضنياً في الوصول إلى الرواية الأكثر قبولا وموضوعية، على الرغم من إن هذه الخاصية ملزمة لكل مؤرخ ويمكن أن تكون حاضرة في أية حقبة تاريخية معنية بالدراسة، إلاّ أنها تظهر بصورة جلية خلال المدة المحددة لموضوع هذا الكتاب.

اتسمت مدة الاطار الزمني لموضوع الدراسة الحالية مابين (الجزيرة العربية من القرن الثالث عشر حتى الفتح العثماني/ السادس عشر، بكثرة الاضطرابات السياسية، وتنوع الصراعات الداخلية والأسرية، وانتشار الفوضى وفقدان الأمن والاستقرار، وتفتت الوحدة السياسية لبعض الكيانات الأسرية المحلية.

هذه الأوضاع التي شهدتها الجزيرة العربية (القرن السابع - العاشر الهجري/ الثالث عشر - السادس عشر الميلادي) أتاحت الفرصة لتدخل بعض القوى الاقليمية والدولية التي استهدفت المنطقة وخلّفت ثغرات عديدة كي تنفذ منها، وقد نجحت في ذلك المسعى، وعند ذلك تفاقمت حالة الفوضى والارتباك التي تمت الاشارة إليها.

على الرغم من ذلك شهدت منطقة الجزيرة العربية في بعض حقبها حالات من الهدوء والاستقرار النسبي المرتبط بقدرة الحاكم وخبرته الإدارية وكيفية تعامله مع مسار الأحداث واستيعاب المتغيرات التي تواجهه سواء كان ذلك على مستوى الصراع الأسري أو التحديات الداخلية المحلية والإقليمية والخارجية، وقد أشار الكتاب إلى شواهد عديدة لنماذج من هذا النوع من الحكام على مدى ثلاثة قرون من الزمن.

لا شك إن دراسة حقبة تاريخية تزيد على ثلاثة قرون هو أمر في غاية الصعوبة في ميدان البحث التاريخي، لذا تطلب من المؤلف جهداً وصبراً كبيرين في متابعة الأحداث والمحافظة على تسلسلها الزمني المنطقي، لا سيما أن هناك متغيرات عديدة حصلت على المسار السياسي لنظام الحكم، واختلاف المؤرخين والرواة وتباين وجهات نظرهم في عرض الأحداث ومتابعتها، ولكن مع ذلك تم تجاوز تلك الاشكالات وقدّم الكتاب عرضاً يأمل مؤلفه مخلصاً أن ينال رضا القارئ الكريم وقبوله.

أولاً: مضمون الكتاب

كرّس الفصل الأول لمتابعة النفوذ الأيوبي في بلاد اليمن، الذي يعد حلقة مهمة من حلقات تاريخ اليمن الإسلامي في العصر الوسيط، الذي كشف جوانب عديدة من واجهات سياسية الدولة الأيوبية في اليمن بعد الفتح الأيوبي، إذ عمل صلاح الدين الأيوبي على توحيد تلك البلاد داخليا ومحاولته تخليص اليمنيين من الانقسامات الداخلية والحروب الأهلية التي سادت بلادهم في أحيان كثيرة، وظلت تلك البلاد تابعة لهم حتى استقل نوابهم بنو الرسول بحكمها، وزعت مادة الفصل الأول على ثلاثة مباحث تناول الأول التطور السياسي للحكم الأيوبي في بلاد اليمن 569-627هـ/ 1174-1230م، حيث تم التعريف بالظروف السياسية التي ساعدت سلاطين دولة بني الأيوب من الوصول إلى الحكم بدءاً من توران شاه حتى وفاة الملك المسعود، والمبحث الثاني تابع النشاطات الاقتصادية في اليمن خلال العهد الأيوبي ممثلة بالنشاط الزراعي والصناعي والحرفي والنشاط التجاري، وجاء المبحث الثالث ليستعرض الحياة الاجتماعية والفكرية بما فيها التوزيع السكاني ونشاط المرأة، والأزياء والملابس والنشاط التعليمي والثقافي.

وتناول الفصل الثاني تاريخ الدولة الرسولية في اليمن 626-858هـ/ 1228-1458م، حيث ورد وباتفاق معظم المؤرخين على أن عصر حكم الدولة الرسولية يّعد من ازهى عصور اليمن خلال حقبة العصور الإسلامية الوسطى، استطاعت هذه الدولة بسط نفوذها على بلاد اليمن، لذا تمتعت البلاد بنوع من الاستقرار السياسي والأمني، وبذلك نالت احترام القوى وتقديرها سواء داخل الجزيرة العربية أو خارجها، سلّط المبحث الأول من هذا الفصل على عرض الظروف السياسية التي أوصلت سلاطين الدولة الرسولية إلى الحكم، وتابع المبحث الثاني سيرة حكم سلاطين الدولة الرسولية في مرحلة القوة والسيادة والنفوذ خلال المدة 625-803هـ/ 1228-1400م، وعرّف المبحث الثالث بادوار سلاطين الدولة الرسولية خلال مرحلة الضعف والانهيار 803-856هـ/ 1400-1458م، مبيناً أسباب الضعف والتراجع الذي شهدته الدولة، واستعرض المبحث الرابع النشاط الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والحضاري للدولة الرسولية.

خصّص الفصل الثالث لمتابعة نشاط الدولة الطاهرية في اليمن التي ورثت الدولة الرسولية في معظم مناطق اليمن، باستثناء مناطق الجبال الشمالية التي تنافس عليها الأئمة الزيديون، لقد ثبّت الطاهريون حكمهم في تعز وعدن وجهات تهامة، كما مدوا نفوذهم إلى الشحر وحضرموت، استمر حكم هذه الدولة قرابة ثمان وسبعين عاماً 858-945هـ/ 1454-1538م ثم آلت إلى السقوط، تضمن الفصل أربعة مباحث، حدّد الأول مرحلة النشوء والتطور الذي شهدته الدولة وحددت ما بين عام

856-894هـ/ 1454-1489م، وتابع المبحث الثاني مرحلة النهوض والارتقاء 894-911هـ/ 1489-1505م، وشخّص المبحث الثالث عوامل تدهور الدولة الطاهرية وانحطاطها 911-945هـ/ 1505-1538م، بعد أن دخلت في مواجهات مباشرة مع دولة المماليك الشراكسة، وتابع المبحث الرابع النشاط الاقتصادي والتراث الحضاري، الذي ظلت بعض معالمه قائمة في عدد من المدن اليمنية التي كانت مركزاً لنشاطاتهم المختلفة.

استعرض الفصل الرابع أوضاع الحجاز السياسية بما فيها مكة والمدينة خلال الحقبة من القرن السابع حتى العاشر الهجري/ الثالث عشر إلى السادس عشر الميلادي، وزعت مادة الفصل على ثلاثة مباحث، الأول عرّف بتسمية الحجاز وبيان مقومات الخصائص الطبيعية والجغرافية، وتناول الثاني الأحوال السياسية في مكة ما بين القرن السابع - إلى العاشر الهجري، وركّز على أوضاعها العامة في نهايات العصر الفاطمي والأيوبي، ومن ثم بيان موقف مكة من الصراغ الأيوبي الرسولي مع الاشارة إلى عودة الأشراف الحسنيين إلى مكة وإثارة النزاع الداخلي، فضلاً عن بيان أسباب تدهور نظام حكم الشرافة وتداعيات نظام الشراكة حتى مجيء قوة العثمانيين 701-923هـ/ 1301-1517م، وتضمن أيضاً التعريف بالظروف السياسية التي شهدتها مكة خلال حكم الأمير حسن بن عجلان 798-829هـ/ 1395-1426م وما بعده حتى سقوط الدولة المملوكية، وخصّص المبحث الثالث لاستعراض الأحوال السياسية في المدينة المنورة خلال المدة من القرن السابع إلى العاشر الهجري وتابع في ثناياه إمارة بني مهنا وموقف الحكم الأيوبي منها، فضلاً عن ذلك متابعة نشاط أمراء المدينة في ظل حكم الدولة المملوكية حتى السيطرة العثمانية 648-923هـ/ 1250-1517م.

تابع الفصل الخامس الأوضاع السياسية في نجد وشرق الجزيرة العربية خلال العصر الوسيط، إذ شهدت المنطقة سلسلة من الصراعات والنزاعات القبلية، لذلك حصلت العديد من التحالفات بين زعماء القبائل ولعل أفضل وصف قدّمه المؤرخ ابن بشر على تلك المدة بقوله ((إنها كقطيع الليل المظلم وقتال بين أهل كل بلد، عدوان وحمية وجاهلية وتحالف وتنازع وعصبية)) وزعت مادة الفصل على أربعة مباحث، عرض الأول أوضاع نجد وشرق الجزيرة العربية التي نوهنا عنها سابقاً، وخصّص المبحث الثاني للدولة العصفورية، التي امتدت حدودها من سواحل عمان جنوباً حتى الكويت شمالاً وضمت جزر البحرين، كما امتد نفوذها كذلك إلى شرق نجد، وأشار المبحث الثالث إلى الدور الذي قامت به الدولة الجبرية في تاريخ البحرين والقطيف والمناطق المجاورة لها، استمرت في نفوذها من أواسط القرن الخامس عشر الميلادي حتى أواسط القرن السادس عشر، كما تابع هذا المبحث نشاط أمراء هذه الأسرة وجهودهم في مواجهة البرتغاليين، واستعرض الأسباب التي أدت إلى تدهور حكم

الأسرة الجبرية ومن ثم اضمحلال دورها السياسي في المنطقة، أما المبحث الرابع من هذا الفصل فتابع التطورات السياسية التي شهدتها مملكة هرمز التي تمتلك مقومات الموقع الاستراتيجي البالغ الأهمية ونشاطها التجاري الكبير، لذا واجهت سلسلة من التحديات مع قوى مختلفة في مقدمتها الإطماع البرتغالية وعندئذ سجّلت مواقفاً تاريخية مشهودة لها في تلك المواجهات.

ثانياً: تحليل مصادر الكتاب

تنوعت مصادر الكتاب ومراجعه وتعددت بسبب تنوع المادة التاريخية وتشعبها في مفاصل مختلفة طوال ثلاثة قرون، إذ كان لكل فصل مصادره ومراجعه ذات الصلة المباشرة بمادته التاريخية، وعلى هذا النحو سيتم تقديم عرض تحليلي موجز لجريدة المصادر والمراجع للكتاب وعلى النحو الآتي:

1- المصادر المطبوعة:

يعد كتاب (المقدسي)، الروضتين في أخبار الدولتين، من المصادر المهمة التي تابعت نشاط الأيوبيين في اليمن، ومن ثم كتاب يحيى ابن الحسين، أنباء الزمن في أخبار اليمن الذي تابع تطورات الأحداث السياسية خلال مدة حكم الدولة الأيوبية، فضلا عن المصادر الأخرى، أبو مخرمه، تاريخ ثغر عدن، ج2، الذي عززت معلوماته مادة الفصل الأول، وشكّل كتاب الخزرجي، العقود اللؤلوية، ج1، ج2، مصدراً لا يمكن إغفاله عند دراسة تاريخ الدولة الرسولية، وقدّم ابن التغري بردي في كتابه ((النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة)) معلومات قيمة عن نشاط المماليك في اليمن، فضلا عن كتاب المؤرخ اليمني ابن الديبع ((الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، الذي كرّس لتوظيف معلوماته في الفصل الثالث عن الدولة الطاهرية، كما عزّزت مؤلفات ابن عّنبه، عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، وأبو شامه في كتابيه، الروضتين، وذيل الروضتين، والقلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ونهاية الأرب في معرفة أنساب العرب بأجزائه الأربعة الأولى، والمقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، وابن إياس، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، عزّزت مادتي الفصلين الرابع والخامس، وساهمت في تقديم التحليلات التاريخية المناسبة.

2- المراجع الحديثة:

عزّزت المراجع الحديثة مادة الكتاب بمعلومات تاريخية دقيقة، لا سيما أن البعض منها كان في أصلها اطاريح دكتوراه أو رسائل ماجستير حصل مؤلفوها على درجات علمية، تأتي في مقدمتها مؤلفات محمد عبد العال أحمد، الأيوبيون في اليمن، وبنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما 628-923هـ/ 1231-1517م وقد وظّفت في الفصل الأول والثاني وكتاب جميل حرب محمود، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، وقدّم كتاب محمد بن يحيى الفيفي الدولة الرسولية مادة تاريخية مهمة للفصل الثاني من الكتاب على الرغم نت انه كرّس لمعالجة المدة الزمنية للسلطان الناصر 803-827هـ/ 1400-1424م، وكتاب المخطوط العربي المرقم (4609) المحفوظ في المكتبة الوطنية في باريس، الذي قدّم متابعة لنشاطات سلاطين الدولة الرسولية وهو أشبه باليوميات، فضلاً عن كتاب زبارة أئمة اليمن، ج1، الذي تابع نشاط الأئمة في اليمن، وقد وظّفت مادته في الفصل الثاني.

وقدّم كتاب المؤلف (تاريخ جنوب الجزيرة العربية الحديث) معلومات ومتابعة لنشاط سلاطين الدولة الطاهرية في عدن وجنوب الجزيرة العربية، فضلا عن كتاب حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، وكتاب أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن.

وعدّ كتاب ريتشارد مرورتيل الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي مرجعاً في غاية الأهمية، وهو بالأصل أطروحة دكتوراه وظّفت معلوماته في الفصل الرابع، فضلا عن ذلك كتابي عارف عبد الغني، أمراء مكة والمدينة الذين قدّم فيهما معلومات تعريفية عن أدوار الأمراء ومسار سيرتهم في الإدارة والتعامل مع الوقائع والأحداث، كما عزّزت موسوعة زامباور معجم الأنساب والاسرات الحاكمة التسلسل الزمني لأدوار هؤلاء الحكام وتتابعهم.

وقدّم كتاب عبد الرحمن المديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي 648-923هـ/ 1250-1517م، معلومات قيمة عن تاريخ المدينة المنورة، أما كتاب محمد محمود خليل، تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية المسمى إقليم بلاد البحرين في ظل حكم الدويلات العربية، فمادته غزيرة غطت مفاصل ومحطات هامة في تاريخ الأسر الحاكمة في المنطقة، منها الأسرة العصفورية وإمارة الجبور ومملكة هرمز في الفصل الخامس، فضلاً عن كتاب بدر الدين عباس الخصوصي، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج1، الذي افاد في تقديم بعض التحليلات التاريخية المناسبة لأوضاع البرتغاليين في السيطرة على مملكة هرمز والقطيف والبحرين. وقدمت بعض المراجع باللغة الإنجليزية مادة تاريخية قيمة وظّفت في فصول الكتاب لا سيما الفصل الخامس، تفاصيلها في قائمة المصادر والمراجع.

3- الأبحاث والدراسات:

ساهمت الابحاث والدراسات التي نشرها عدد من الأساتذة المتخصصين في تعزيز مادة الكتاب وأرشدت المؤلف إلى مواطن المصادر والمعلومات، وأذكر منها بحث الدكتور محمود ياسين التكريتي، الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي 1174-1226م، وبحثي الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، وبحثه الآخر، التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية، فضلا عن دراسات أخرى تفاصيلها في قائمة المصادر والمراجع.

4- المراجع الحديثة المتفرقة:

اعتمد الكتاب على مصادر أخرى متفرقة منها رسائل الماجستير وأطاريح الدكتوراه، وكتب الموسوعات، فضلا عن المقالات والدراسات المتاحة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وقد تعامل معها المؤلف بموضوعية ومنهجية تاريخية قائمة على التدقيق والمقارنة بهدف الوصول إلى الحقائق التاريخية المرجوة قدر المستطاع.

والله المستعان على كل شيء، وفوق كل ذي علم عليم

المؤلف

أ.د. صباح مهدي رميض

بغداد 26 ذو الحجة 1433هـ/ 11 تشرين الثاني 2012

الفصل الأول

النفوذ الأيوبي في بلاد اليمن

569-627هـ/1174-1230م

أولا : التطور السياسي للحكم الأيوبي في بلاد اليمن 569-627هـ/1174-1230م

ثانيا:النشاطات الاقتصادية في اليمن إبان العهد الأيوبي .

ثالثا : الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية في اليمن خلال العهد الأيوبي .

أولا: التطور السياسي للحكم الأيوبي في اليمن 1174 – 1230م

استغل صلاح الدين الأيوبي [1] موقعه وزيراً للخليفة الفاطمي ونائباً عن السلطان نور الدين محمود من جهة وبفضل حنكته العسكرية والسياسية من جهة أخرى أن يؤسس كيان الدولة الأيوبية (567-647هـ/1172-1250) على خلفية انهيار الدولة الفاطمية[2]، إذ وسّع نفوذ دولته إلى مناطق عديدة ومنها اليمن [3]، وفي الوقت ذاته قاد حركة الجهاد الإسلامي ضد الصليبين لاستعادة الأماكن المقدسة وحماية حدود دولته الخارجية [4].

اختلف المؤرخون وتعددت رواياتهم بشأن الحملة العسكرية التي أرسلها صلاح الدين الأيوبي إلى بلاد اليمن عام 569هـ/1174م، فمنهم من ذكر بأن صلاح الدين الأيوبي كان يخشى من طرد السلطان نور الدين له من مصر في حالة وقوع حرب معه، لذا يمكن أن يتخذ من اليمن ملجأ له ولأسرته فيما بعد [5]، وهناك من يرجع السبب إلى طبيعة ما تمتلكه اليمن من خيرات وموارد وثروات طبيعية هائلة فضلاً عن ضعف حكامها وعدم قدرتهم في الدفاع عنها الأمر الذي سهّل عملية الفتح، وقد يكون هذا الأمر هو الذي سوغ لحملة توران شاه[6] أخ صلاح الدين لا سيما أنه كان معروفا ببذخه وإسرافه وكثره نفقاته ولم تكن إقطاعيات مصر كافية لسدها وتمويلها، لذا طلب الإذن من صلاح الدين بقيادة الحملة على اليمن [7]، ولكن بعض المؤرخين يرد على هذا الرأي بالقول إن صلاح الدين كان بإمكانه أن يخصص إقطاعيات إضافية لأخيه في مصر ولا حاجة إلى التدخل العسكري في اليمن، ولكن ما يبرر موقف توران شاه هو أنه كان الأخ الأكبر لصلاح الدين ويرى أنه هو أحق بالسلطة من أخيه وعندما لم يتحقق أمله بالسلطة في مصر سعى إلى تأسيس مملكة له في منطقة أخرى، ومما يدل على ذلك انه بعد استيلائه على اليمن ذكر في الخطبة بعد الخليفة العباسي وتلقب بلقب الملك المعظم، وهذا السلوك لم يغضب صلاح الدين الأيوبي وتركه على حد وصفه بأنه يشبع أطماعه ورغباته الشخصية [8]، وهناك من يرى أن فتح اليمن يعود إلى تزايد قوة عسكر صلاح الدين وتعاظم نفوذ أخوته، لذلك أراد أن يبعدهم عن مركز السلطة خشية من تزايد حدة الصراع الأسري وتأثيره في استقرار الوضع السياسي للدولة، ولا شك أن طبيعة الوضع الداخلي في اليمن الذي كان مشحونا بالنزاعات القبلية والأسرية وعدم قدرة حكام دولة بني المهدي [9] من إيقاف تلك النزاعات والخلافات ومناصرتها لطرف على حساب طرف آخر قد فتح الأبواب على مصارعها للأيوبيين للتوسع في بلادهم، في الوقت الذي كان فيه عبد النبي مهدي الرعيني يشن الحملات على أعيان المخلاف السليماني ومنهم الشريف قاسم بن يحيى الذي استنجد بدوره بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، فكتب الأخير إلى صلاح الدين الأيوبي وأمر بنصرته فبعث أخيه توران شاه بحملة عسكرية إلى اليمن[10].

هيأ صلاح الدين مقومات الحملة وإعداد الاستحضارات اللازمة لها من حيث العدة والعدد وبلغ قوامها ثلاثة آلاف مقاتل [11]، ثم أخذ الإذن بتحركها من السلطان نور الدين محمود وكلّف أخاه توران شاه لقيادتها، ثم تحركت الحملة من الديار المصرية 569هـ في شباط 1174م عن طريق نهر النيل ثم إلى منطقة قوص ومنها عن طريق البر إلى ميناء عيذاب على ساحل البحر الأحمر ثم عبر إلى جده ومنها براً إلى مكة حيث دخلها معتمراً ولم يبق فيها طويلاً إذ تركها وتوجه نحو اليمن عن طريق البر[12].

نالت حملة توران شاه ترحيب أمراء المخلاف السليماني في مقدمتهم قاسم بن غانم[13] الذي طالب بمساندتهم ضد سلطة الأمير عبد النبي بن المهدي، فلبى توران شاه الطلب، وكانت تلك بداية المهمة في حصول التعاون مع القوى الداخلية اليمنية التي يسرّت عملية الفتح.

توجه الجيش الأيوبي باتجاه منطقة زبيد حيث تتركز قوات عبد النبي بن المهدي ولما رآه أهلها استخفوا بمن معه وقال لهم ابن المهدي: ((كأنكم بهؤلاء وقد صحى عليهم الحر فهلكوا وما هم إلا أكلة رأس)) [14].

استعد عبد النبي بن المهدي للقتال وخرج بقواته للقاء توران شاه خارج مدينة زبيد، ودارت رحى معركة بينهما، فانسحب ابن المهدي إلى داخل المدينة ليتحصن فيها بعد أن تفرقت قواته، في الوقت الذي استطاعت قوات توران شاه في اجتياز مانع الأسوار بنصب السلالم ثم فتح الأبواب، وبعد ذلك دخلت القوات الأيوبية إلى المدينة، ثم القي القبض [15] على الأمير عبد النبي بن المهدي في شوال 569هـ عام 1174م[16].

استبيحت المدينة واستولى توران شاه على خزينتها ومواردها كاملة، فضلا عن عبث جنوده بممتلكاتها، واستقر توران شاه في مدينة زبيد واتخذها عاصمة لملكه[17]، وبدأ بإعادة استقرارها وإعمارها، وبدأت تلقى الخطب باسم الخليفة المستضيء العباسي، وفي أعقاب ذلك توجه توران شاه الى فتح المدن اليمنية الواحدة تلو الأخرى ومنها جند وتعز وعدن التي كانت تحت سلطة بني زريع [18]. التي قاوم أميرها ياسر بلال المحمدي القوات الأيوبية خارج أسوار المدينة وفشل في مهمته وتمكنت القوات الأيوبية من الدخول إلى المدينة وعندها أعلن توران شاه القول ((ما جئنا لنخرب البلاد وإنما جئنا لنملك البلاد ونعمرها وننتفع بدخلها))[19].

حاول توران شاه جاهداً استكمال الفتوحات الأيوبية للمدن اليمنية متوجها شمالا باتجاه مدينة صنعاء حيث دخل في معارك متتالية في مدينة ذمار، حاثاً جنوده على إدامة الزخم في مخاطبتهم بالقول: ((قاتلوا على أنفسكم وإلا قتلتكم العرب)) [20].

دخلت قوات توران شاه مدينة صنعاء في عام 569هـ /آب 1174م، ولم تستطع قوات السلطان علي بن حاتم [21] المواجهة وانسحبت إلى حصن برابش وبقيت القوات الأيوبية في المدينة ثمانية أيام ثم قرّر توران شاه العودة إلى تهامة[22]، وقد أشارت بعض الروايات وهي متضاربة في ذكرها بأن القوات الأيوبية لم تدخل المدينة أصلا، ويرى القسم الآخر أن محدودية بقاء القوات الأيوبية وسرعة عودتها بسبب قلة المؤن وشحتها، على أية حال انسحبت القوات الأيوبية وعادت إلى تهامة مما أتاح الفرصة المناسبة للسلطان علي بن حاتم من استعادة سيطرته على مدينة صنعاء [23].

نجح توران شاه في فتح العديد من القلاع والحصون، وبذلك يكون قد استولى على معظم البلاد اليمنية، ويذكر المؤرخ ابن شامه أن توران شاه قد فتح حضرموت كذلك [24]. وأناب عنه فيها رجلاً كردياً من أتباعه، وشهدت البلاد حالة من الأستقرار والهدوء النسبيين بعد توطدت سلطة توران شاه، باستثناء المناطق الجبلية في أقصى الشمال وشمال غرب اليمن الواقعة تحت سيطرة الأئمة الزيدية[25].

على أثر تلك الفتوحات والجهود التي بذلها توران شاه لقب بالملك المعظم وخطب لنفسه في البلاد التي فتحها بعد الخليفة المستضيء بأمر الله ووقع اختياره بعد ذلك على مدينة تعز لأن تكون عاصمة للدولة لما تتمتع به من مكان صحي وهواء طيب [26]، واستمرت كذلك حتى في عهد حكم الدولة الرسولية فيما بعد [27].

نالت جهود توران شاه تقدير أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي أخبر بدوره السلطان نور الدين محمود بالانجازات التي حقّقها في اليمن إذ أعاد الخطبة للخلفاء العباسيين وأمن مفتاح البحر الأحمر الجنوبي من محاولات سيطرة القوات المسيحية والصليبية، وبعد ذلك قرّر العودة إلى الشام [28].

وقبل أن يستقر رأيه بمغادرة اليمن، وبهدف استقرار الوضع الداخلي فيها أناب عنه فيها مجموعة من النواب، منهم أبا الميمون المبارك بن منقذ على مدينة زبيد وما جاورها من مناطق المخلاف السليماني، وجعل عثمان الزنجيلي في عدن وأعمالها في جنوب اليمن، وياقوت التعزي على مدينة تعز، فضلاً عن مظفر الدين قايماز في جبله، وهكذا في بقية المدن اليمنية الأخرى [29].

غادر توران شاه في عام 571هـ/ كانون ثاني 1176م اليمن متوجهاً إلى الشام عن طريق مكة، وشارك في موقعة المواصلة [30] جنوب حلب، وبفضله تم تحقيق النصر وإلحاق الهزيمة بقوات السلطان سيف الدين الغازي صاحب الموصل، ثم تولى توران شاه في أثناء عودته إدارة دمشق ثم بعلبك ومن ثم الإسكندرية حتى وافته المنية في عام 575هـ/ تموز عام 1180م[31].

سيف الإسلام طغتكين واعادة الاستقرار في اليمن

اضطربت الأوضاع الداخلية في اليمن على أثر مغادرة توران شاه، واستغل النواب الذين تركهم، ظروف الدولة الأيوبية وانشغالها بالحروب الصليبية، لذلك ضربوا السكة بأسمائهم وأعلنوا الخطب على المنابر لأنفسهم وامتنعوا عن إرسال الخراج السنوي إلى مصر وأصبح كل واحد منهم مستقلاً بولايته[32]، بل الأكثر من هذا كان طموح كل واحد منهم الاستيلاء على ولاية الآخر، لذلك حصل نزاع كبير بين خطاب بن منقذ والي زبيد وعثمان الزنجيلي والي عدن [33].

وعلى أثر هذه الاضطرابات والفوضى التي شهدتها اليمن أرسل السلطان صلاح الدين الأيوبي أخاه سيف الإسلام طغتكين إلى اليمن 578هـ - 1182م، واستطاع الإطاحة بخطاب بن منقذ والي مدينة زبيد، وهدّد عثمان الزنجيلي والي عدن الذي خشي من قوة طغتكين الذي ترك المدينة وغادرها إلى الشام، وعند ذلك أرسل طغتكين أحد قادته لإدارة مدينة عدن، وبذلك استقرت بلاد اليمن وأصبحت تحت نفوذه من زبيد حتى حضرموت [34].

لا شك أن الانتصارات التي حقّقها سيف الإسلام طغتكين باليمن على مدى خمس سنوات من حكمه فيها مكنته من إزالة الفتن وكبح طموح المستغلين على الحكم من أمرائه واتخذ حكمه بعداً سياسياً آخر شمل تحديد موقفه السياسي من بعض الأمراء المحليين من حكام اليمن ومنهم بني همدان (بنو حاتم) في صنعاء وما جاورها، لذلك ليس من السهل أن يذعن أولئك الحكام إلى الإدارة الجديدة، كما لا يمكن للحاكم الجديد أن يستمر ما لم يوفر الحماية الكافية له، لا سيما وأنه أنشأ دولته وسط أنظمة قبلية متطرفة وذات نزعات مختلفة [35].

استطاع طغتكين من توحيد بلاد اليمن تحت حكمه بعد أن قضى على نفوذ نواب أخيه توران شاه وتخلص من بقايا نفوذ بني زريع وذلك باستيلائه على حصن جنب والدملوه، ثم قضى على مقاومة قبائل جنب بالاستيلاء على منطقة ذمار وما جاورها كما أنهى أمر بني الصليحي وذلك باستيلائه على حصن قيضان وظفار الوادين، فضلاً عن تخلصه من نفوذ بني حاتم وذلك باستيلائه على حصون اشيح والفص والظفر وكوكبان ونده وذمرمر وغيرها وضم تبعيتهم وولاءهم له بتقريره منطقة جامكية لهم تعويضاً عن البلاد التي كانت تحت سيطرتهم وباستيلائه على حصن عزات أخضع بني شهاب لسيطرته وكذلك أنهى طوح الأشراف من بني حمزة بالحصول على الإمامة بعد أن استولى على حصون مدن صعده وبلاد الجوف وشهارة [36].

عرُف عن طغتكين بأنه عسكري وإداري حازم بنى الحصون والثغور والمساجد والمعسكرات والحمامات وسنّ القوانين فضلاً عن كونه شاعراً وفقيهاً واديباً، وهو أول من أرسل السفن الحربية الى شواطئ الهند لحراسة السفن التجارية (الشواتي)[37] وبذلك أمّن حركة التجارة من الموانئ اليمنية واليها. توفي طغتكين في منطقة المنصورة في عام 593هـ/أيلول عام 1197م بعد حكم دام أربعة عشر عاماً ويقال إنه مات مسموماً[38]. وتولى الإدارة في اليمن من بعده ولده إسماعيل.

المعز إسماعيل بن طغتكين بن أيوب:

كان السلطان إسماعيل بن طغتكين بن أيوب هو أكبر إخوته سناً وأكثرهم قرباً إلى والده حيث اعتمده في كثير من أمور في إدارة الدولة إلا انه لم يستمر على ذلك النحو ودبّ الخلاف مع والده الذي طرده إلى الحجاز[39]، ويرى بعض المؤرخين أن سبب ذلك الخلاف هو خروج المعز إسماعيل على مذهب أهل السنة وأصبح على مذهب الشيعية الإمامية [40]، وعندما علم بوفاة والده عاد إلى مدينة زبيد عام 593هـ /1196م، وزار مدن تعز وحصل على ولائها وتأييدها لحكمه [41].

سار بعد ذلك بقوة كبيرة إلى صنعاء عام 593هـ/ 1197م والتقى مع نائب والده وقتله وعهد إدارة المدينة إلى أحد أتباعه شهاب الجزري(42)، بعد أن استتب الوضع الداخلي فيها وعاد ثانية إلى مدينة تعز مركز حكمه.

يبدو أن حالة الاستقرار النهائي لم تحصل في اليمن، وذلك بسبب حركات المعارضة المتزايدة لحكمه وهروب العديد من أتباعه إلى صفوف أعدائه وقد اتفقوا عليه وكان معظمهم قد لجؤوا إلى الإمام عبد الله بن حمزة أمير قبائل الحواتم من همدان، الذي رحب بهم ومنهم الأمير سيف الدين حكو الذي عينه الإمام قائداً لقواته، والأمير هشام الكردي وغيرهم [43]، وعلى هذا الأساس بدأ نفوذ الإمام عبد الله بن حمزة يتصاعد ويقوى بسبب التفكك الذي ساد صفوف القوات الأيوبية، فضلاً عن طبيعة المعاملة السيئة التي انتهجها المعز وأخذ يدعو لنفسه بالإمامة (44) في صعده عام 594هـ/1198م واخذ يعدّ العدة إلى مواجهة الإمام الذي حلت به الهزائم، إلا أن الذي حصل أن عدداً من قادة المعز تركوا قواتهم ملتحقين بقوات الإمام ومنهم الأمير ورد سار، والأمير سيف الدين سنقر الاتابك [45].

حاول المعز إسماعيل تجاوز هذه الإشكالات ومعالجة حالة الخرق في قواته بعد أن تراجع عدد من قادته عن تأييده، إلا أن تحرك القوى السياسية المتواجدة في المنطقة المحيطة بالأراضي التي يحكمها ضده بسبب نظرتها إلى بني أيوب بأنهم يمثلون القوة السياسية الغربية على بلادهم ويجب

مقاومتها وإزالتها، فضلاً عن انعدام التجانس المذهبي بينهم وبين بني أيوب، وكان هذا الأمر في غاية الأهمية بل هو الدافع الرئيس الذي كان يحرك أهالي اليمن باتجاه المعارضة السياسية والعسكرية لحكم بني أيوب لا سيما في مدة حكم المعز إسماعيل بن طغتكين [46]، هذا فضلاً عن بعض السلبيات التي سجلت على سلوكه ومنهجه السياسي ومنها:

1- مغايرته لمذهب أسرته عام 593هـ / 1196م الذي جاء بنتائج عكسية وعمل حالة الإنشقاق الداخلي بين الأهالي.

2- دعوته أنه أموي ورام الخلافة كما ادعى أنه قرشي النسب ولقب نفسه بأمير المؤمنين والهادي [47]، ثم قطع خطبة العباسيين من منابر اليمن، فلما سمع عمه الملك العادل ذلك أنكره وساءه فعله، وكتب إليه يلومه ونهاه عن ذلك ثم وبّخه، ولا شك أن تصرفاته تلك أسقطته في نظر ملوك بني أيوب في الشام ومصر والجزيرة العربية.

3- ادعاؤه بالنبوة وهذا السبب الرئيس في خروج جماعة من مماليك أبيه على طاعته وقتاله، وقد استمر حقدهم عليه لذا تحالفوا مع جماعة من الأكراد للتخطيط لقتله، وهذا ما حصل فعلاً فقتلوه في منطقة القوير من أعمال زبيد عام 599هـ/ 1202م[48]. وبذلك اجتمعت عوامل عدة منها سلوكيته السيئة مع الأهالي وعساكره كما تعكس لنا من الجانب الآخر التناقض الواضح في الولاء المزدوج للمبادئ والقيم التي وجد من أجلها الحكم الأيوبي في اليمن وهو وحدة الأمة عن طريق الحماية العسكرية لظهور المقاتلين العرب والمسلمين في الشام ومصر ضد الغزاة الصليبين، ومع كل ذلك فقد وصفه بعض المؤرخين بأنه كان أي (المعز إسماعيل بن طغتكين) شجاعاً وشاعراً فصيحاً متأدباً[49].

عمت الفوضى في البلاد بعد مقتل المعز إسماعيل وقد استولى قتلته على مدينة زبيد ونهبوها، ثم نصّبوا احد زعمائهم يدعى هندوه سلطاناً عليهم في مدينة زبيد، وفي تلك الظروف تم تنصيب الناصر أيوب بن طغتكين سلطان على اليمن خلفاً لأخيه المعز وهو لا يزال طفلاً في العاشرة من عمره[50].

وتابعت القوى الداخلية المعادية للأيوبيين والمتمثلة في الإمام الزيدي عبد الله بن حمزة وبني حاتم (همدان) استغلال حالة الاضطراب التي شاعت بعد وفاة المعز وتهيأت الظروف لكي يحقّق الإمام فرصة الاستيلاء على صنعاء، واظهر واليها شهاب الجزري رغبته في الانضمام إلى قوة علم الدين وردسار التي أرسلها الإمام والدخول في طاعته، وطلب منه مخاطبة الإمام بذلك، فاستجاب الإمام على الفور، وغادر شهاب الجزري وقابل الإمام في 599هـ/ تموز 1202م، واتفقا على التعاون،

ثم عاد الجزري إلى صنعاء، وأصبحت بعد ذلك الخطبة تعلن باسم الإمام بدلاً عن الخليفة العباسي، وأدخلت في الآذان عبارة ((حي على خير العمل)) وهو شعار الشيعة على كره الكثير من الأيوبيين، وبعد دخول صنعاء تحت سيطرة الإمام بدأ بالتطلع في السيطرة على كل مناطق اليمن الأخرى [51].

لما كان الملك الناصر سيف الدين صغير السن، عيّن الأمير سيف الدين سنقر اتابكاً لهُ وهو من مملوكي والده [52]، لتدبير شؤون الحكم، لذلك دخل في حروب وصراعات عديدة مع قبائل التهايم والأكراد في مدينة زبيد ومنطقة التهايم وأصبح الحكم الأيوبي للأتابك[53].

وهنا يثُار سؤال ما موقف السلطة الأيوبية في مصر والشام من تطورات الأحداث في اليمن، لا سيما أن الأخبار كانت تصل عن طريق مخاطبات بعض أمرائهم في اليمن ومنهم صاحب صنعاء إذ أرسل كتاباً إلى الملك العادل الأيوبي صاحب مصر والشام يذكر فيه تفاصيل أحداث اليمن، لكن مع ذلك أن موقف السلطة الأيوبية في مصر والشام وصُف بأنه مهادن مع الأمراء الموجودين هناك [54]، وذلك بحكم الظروف الحرجة التي تمر بها السلطة الأيوبية في صنعاء.

تحمّل سيف الدين سنقر المسؤولية الجسيمة بعد أن عيّن اتابكاً للناصر أيوب، فوصُف بأنه حسن التدبير وبعُد النظر في شؤون السياسة، فقد بدأ يغير الولاة الذين لا يثق بهم[55]، ومن ثم استعاد السيطرة التامة على البلاد، وفي الوقت ذاته عاد الأمير وردسار إلى صفوف المعسكر الأيوبي وتخلى عن مناصرة الإمام عبد الله بن حمزة، عاداً ذلك تصحيحاً للخطأ الذي ارتكبه بالانضمام إليه [56]، ورحّب سنقر بعودته وأسنده بالمال والجند وكلّفه بمهمة استعادة صنعاء إلى حظيرة الحكم الأيوبي وبذلك بدأت مرحلة جديدة من العداء بين وردسار والإمام عبد الله بن حمزة، ودارت بينهما سلسلة من المعارك، انتصر فيها الإمام تارة وأظهر وردسار تفوقه تارة أخرى[57].

أدى وردسار دوراً كبيراً في استعادة النفوذ الأيوبي في بلاد اليمن فقد استرد صنعاء ثم صالح بني حاتم، وبذلك أمّن أحد أهم الجهات المعادية للأيوبيين، وكذلك الحال مع بقية الزعامات العشائرية الأخرى التي دخلت بالسلم معه [58].

سجّلت عساكر الأيوبيين انتصارات عدة على مدى خمس سنوات من حكم الأمير سنقر، شملت تحرير الكثير من الأراضي الواقعة ما بين زبيد وصنعاء وكان آخر موقعة لبراقش، ثم تم توقيع الصلح بين الأمير سنقر والإمام المنصور عبد الله بن حمزة عام 608هـ/ 1211م ولمدة سنتين، وبهذا الصلح انتهى الخلاف مع أقوى شخصية معارضة في اليمن للحكم الأيوبي [59].

دخل الأمير وردسار في مواجهات جديدة مع جيش الإمام عبد الله بن حمزة، واستطاع أن ينقذ الحكم الأيوبي من التداعي في اليمن، إلا أن وفاته عام 609هـ/ 1212م حالت دون استمراره في مواجهة حركات المعارضة للحكم الأيوبي، ثم أعقبته وفاة الملك الناصر أيوب في أوائل عام 611هـ/ 1214م، وآلت أمور الدولة إلى وزيره بدر الدين الغازي (60).

عرُف عن الغازي بأنه سيء السيرة، استخدم السم في التخلص من معارضيه من حكام الأيوبيين في اليمن، وهذا الأمر أضعف كثيراً من سيطرة الأيوبيين، وفي الوقت ذاته عزّز مركز الإمام المنصور عبد الله بن حمزة (61)، ولم يكتف بذلك فقد عمل على الاستقلال بحكم اليمن، وهذا الأمر ولّد حالة من الاستياء من تصرفاته وجاءت بنتائج معكوسة لأتباعه، استغلها الإمام المنصور، وقدّم لهم الإغراءات والأموال والمناصب وانضموا إلى جانبه في الوقت الذي كان هؤلاء مطلعين على مكامن القوة ومواقع الضعف في صفوف الجيش الأيوبي، واطل عليها الإمام المنصور الأمر الذي سهّل لهُ فرض سيطرته على المناطق الشمالية من اليمن(62).

أعلن الأمير غازي بن جبريل نفسه سلطاناً ولقُب بالملك الظافر وسّك النقود باسمه وخطُب له على المنابر في صنعاء وفي طريق عودته إلى تعز هاجمته القبائل القاطنة فيها وبمساندة قبائل مدينة أب، فثار عليه قادته وقتل عام 621هـ/ 1215م(63)، وبذلك أصبحت اليمن خالية من سلطان أيوبي قوي قادر على إدارة شؤون الدولة في ذلك الوقت العصيب، وهنا تولت أم الناصر الإدارة وأصبح الأمير المجاهد اتابكاً لها، ولا شك أن هذا التصدع في السلطة الأيوبية أتاح الفرصة لأعدائهم للتحرك من أجل الحصول على مكاسب جديدة ومنهم بنو حاتم في همذان واستيلاء الإمام المنصور عبد اله بن حمزة على صنعاء وذمار وغيرها من المدن الأخرى (64).

في ظل هذه الظروف المعقدة التي واجهت أم الناصر كانت تبحث عن رجل من بني أيوب قادر على إدارة الدولة، فأرسلت رسلها إلى مكة بهدف معرفة الأخبار في مصر والشام، والتقى رسُلها بالملك سليمان بن سعد الدين شاهنشاه الذي قدم إلى مكة لأداء فريضة الحج، وعرضوا عليه الذهاب إلى اليمن لمقابلة الملكة فوافق على ذلك فقابلته وخلعت عليه الزواج وملكته أمر إدارة اليمن وذلك في ربيع عام 611هـ / 1214م(65).

خيّب سليمان بن سعد الدين شاهنشاه ظن الملكة أم الناصر، وكان ضعيف الشخصية قليل الخبرة والتجربة بأمور السياسة والحكم، وكان محباً للانغماس في حياة اللهو والملذات(66)، كما أساء في الوقت ذاته معاملة زوجته وهجرها، كما أساء معاملة جنده وعاملهم بالعنف والقسوة، وفي المقدمة

منهم قائداه المؤيد بن قاسم وبدر الدين بن علي رسول اللذان خرجا عليه [67]، وفي الوقت ذاته انضم قسم من أتباعه إلى جند الإمام المنصور عبد الله بن حمزة الذي بلغت طموحاته السيطرة على مناطق اليمن بأكملها، لا شك أن هذه المتغيرات زادت من ضعف الأيوبيين في اليمن، وأصبحت الحاجة ملحة في البحث عن شخصية قوية من بني أيوب قادر على أنتشال الوضع السيء، فما كان من السلطان العادل أبي بكر [68] أن يتخذ الإجراء المناسب وذلك بإرسال حملة بقيادة حفيده المسعود بن الكامل[69]، لإعادة هيبة الحكم الأيوبي من جهة والقضاء على القوى الخارجة على السلطة من جهة ثانية.

اليمن في ظل حكم الملك المسعود بن الكامل الأيوبي:

أمر الملك العادل الأيوبي بإعداد حملة عسكرية كبيرة ضمت ألف فارس وخمسمائة من الخزندارية والرماة[70]، وجهّزهم بكل ما يحتاجونه من المؤن والعدد القتالية، وانطلقت من القاهرة عام 612هـ / 1215م، وتوجّهت إلى مكة ثم إلى اليمن، واستقبل أهل اليمن الحملة وعلى رأسهم المؤيد بن القاسم السليماني نائب مدينة حرض فأكرمه وخلع عليه، ثم وصل إلى منطقة زبيد ونال استقبال الأمير نور الدين عمر وأخوته فأسّر الملك المسعود بذلك وأكرمهم، ثم دخل زبيد من غير قتال [71]، في محرم 612هـ / 1215م.

راسل الملك المسعود سليمان بن تقي الدين طالباً منه الصلح، على أن تكون الجبال له والتهائم للمسعود، إلا أن هذا الأمر عارضه الأمير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول، وعرض على الملك المسعود رفض فكرة الصلح وعدم العمل بها وذلك باستطاعته الحصول على منطقة الجبال من غير مقاومة ولا حاجة أن يقدّم التنازل إلى سليمان، استحسن الملك المسعود فكرة الأمير بدر الدين بن رسول وقاد الحملة بنفسه على تعز وألقي القبض على سليمان وأرسله إلى مصر، ثم دخل المدينة في التاسع من صفر عام 612هـ / حزيران 1215م وبهذا التاريخ بدأ حكم الملك المسعود لليمن [72].

بذل الملك المسعود جهوداً كبيرة بشأن استقرار مناطق اليمن ولا سيما تهامة والمناطق الجنوبية، ثم جهّز حملة بقيادة الأتابك جمال الدين فليت لفرض السيطرة الأيوبية على صنعاء الواقعة تحت سيطرة الإمام عبد الله بن حمزة ، ولم يستطع الأخير من مقاومة القوات الأيوبية الزاحفة، بعد أن أبدى عدد من زعماء القبائل والمشايخ في سنحان وبني شهاب[73] رغبتهم في ترك قوات الإمام والانضمام إلى قوات الاتابك، الذي أحسن استقبالهم، وفي الوقت ذاته أعلنوا ولاءهم وطاعتهم للملك المسعود، وعلى هذا النحو دخل جمال الدين فليت صنعاء في جمادي الأولى 612هـ / آب 1215م [74].

شعر الأتابك جمال الدين فليت أن خطر الإمام عبد الله قائم ولذا من الأولى مهاجمة حصنه في بيت انعم بعد أن حاصره في جمادي الأولى من عام 612هـ / أيلول 1215م واستولى عليه وأسر مجموعة من جنوده وأخذهم رهائن عنده، أما الإمام فقد انسحب الى الحصون المجاورة التابعة لسلطته [75].

يظهر أن الإمام عبد الله قد أستنُزفت قوته، ولم يعد قادراً على مواجهة قوات الأيوبيين، فضلاً عن تخاذل الكثير من أعوانه وانسحابه، فبدأ بمراسلة الأتابك فليت طالباً منه عقد الصلح وإطلاق سراح الرهائن المحتجزين الذين هم في قبضته، وبالمقابل فرض الأتابك شروطه ومنها، بقاء قواته في الحصون التي سيطرت عليها قواته، مع تسليم الإمام عشرين فرساً وعشرين جملاً لقوات الأتابك(76).

وافق الإمام عبد الله على شروط الصلح وعُقد في أواخر عام 612هـ / 1215م لمدة ستة عشر شهراً(77)، وأستمر هذا الصلح سارياً بين الطرفين حتى عام 614هـ / 1219م، وهو العام الذي توفي فيه الإمام المنصور عبد الله بن حمزة، وخلفه بالإمامة ولده عز الدين محمد ولقُب بالناصر لدين الله (78)

واجه الإمام الجديد مشكلة تمثلت بخروج المعتضد بن يحيى بن المحسن المحفوظ الذي ادعى أنه هو الإمام في منطقة صعده ، الأمر الذي أدى إلى انقسام الزيديين على أنفسهم وقد زادهم ضعفاً (79)، وكانت تلك هي الفرصة المناسبة للاتابك من الإطاحة بهم.

أستغل الأتابك جمال الدين فليت حالة الانقسام تلك في صفوف القوات الزيدية، فشن هجوماً على حصونهم وعلى عدد من الواقعة تحت سيطرتهم، لذلك اضطر الإمام عز الدين محمد طلب الصلح وتم عقده في رجب عام 616هـ / 1220م وبذلك هدأت الأوضاع بصورة مؤقتة، إلا أنها عادت من جديد، الأمر الذي دفع الأتابك من الهجوم المنظم على الحصون الزيدية (80)، ومنها حصن بكر الذي استولى عليه الملك المسعود بصفقة شراء بلغت قيمتها عشرة آلاف دينار مصري تسلمها الأمير يحيى بن حمزة أخو الإمام، وبذلك دخل المسعود حصونهم في ربيع الأول عام 618هـ / 1221م بعد حصار دام سبعة أشهر واثني عشر يوماً (81)، ثم عاد إلى مدينة زبيد بعد أن ولى عليها بدر الدين الحسن بن رسول على صنعاء وجعلها اقطاعاً له وإلى أخيه الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول، إذ كان لهم دور كبير ومؤثر في إسناد الملك المسعود في إدارة الحكم واستقرار الأوضاع الداخلية في اليمن (82).

بعد ذلك توجّه الملك المسعود إلى مكة بهدف القضاء على نفوذ حاكمها الأمير حسن بن قتادة الحسني ودخلها في ربيع الأخر عام 620هـ / 1223م، وقاتل صاحبها واستولى عليها وعاد إلى اليمن بعد أن كلّف الأمير نور الدين عمر بن علي بن رسول بإدارة المدينة وأن يكون نائباً له فيها (83).

يظهر أن حركات المعارضة للحكم الأيوبي لم تتوقف، ففي هذه الأثناء أُعلن عن ثورة في منطقة حقل في بلاد زبيد تزعمها مرغم الصوفي (84)، الذي أدعى أنه من أعوان الإمام وانه المنصور حميد الذي يخرج كنوزهم ويناصر الإمام المهدي الذي سيخرج آخر الزمان ((يملأ الأرض عدلاً وقسطاً

بعد أن ملئت ظلماً وجوراً)) لذلك اتبعه أناس كثيرون وقوى أمره بهم، حتى حصلت مواجهته مع قوات الأمير نور الدين بن رسول في عام 622هـ / 1252م، إلا أنه لم يستمر في صموده واكتشف أمره بمرور الزمن بأنه مراوغ وخادع حتى هرب من بلد إلى بلد وانتهت بذلك ثورته (85).

تجددت المواجهة بين الأمير نور الدين والشريف عز الدين بن محمد بن الإمام المنصور في واقعة معروفة باسم " واقعة تحصر " في شهر رجب من عام 623هـ / 1226م، انهزمت فيها قوات الأشراف (86)، وعند ذاك استقرت الأوضاع الداخلية في اليمن.

تصاعدت مكانة أمراء بني الرسول وازدادت سلطاتهم ونفوذهم على أثر ما حققوه من انتصارات عديدة في المعارك التي خاضوها في اليمن، أثار هذا الأمر قلق الملك المسعود وشعر بأن طموحاتهم الواسعة قد تجعلهم يستأثرون بالسلطة هناك، فعاد إلى اليمن في صفر عام 624هـ / 1227م، وعمل على التخلص من أبناء بني الرسول، فقبض على بدر الدين وأخيه فخر الدين وأرسلهما مخفورين إلى القاهرة (87)، أما أخوهم نور الدين فقد نال ثقة الملك المسعود الذي قلّده أمور البلاد ثم أخذ الملك المسعود بالاستعداد للعودة إلى مصر بعد وفاة والي دمشق عمه الملك المعظم عيسى، فأرسل إليه والده السلطان الكامل، يعلمه بذلك طالباً منه الحضور لكي يوليه عليها (88). لذلك جمع الملك المسعود اموالاً طائلة وذهب عائداً إلى مصر وفي أثناء عودته من مكة أصيب بمرض الفالج إذ توفي على أثره ودفن في مقبرة المعلاة (89).

لا شك أن الأمير نور الدين الذي نال تأييد الملك المسعود ودعمه قبل وفاته قد شجّعه بأن يثأر بالحكم وينفرد به، وحاول الاستقلال بالحكم عن الأيوبيين في مصر والشام، لا سيما أن الملك المسعود لم يترك إلا ولداً صغيراً في السن كان في كفالة جده الملك الكامل في مصر، فضلاً عن طبيعة الصفات التي كان يتمتع بها الأمير نور الدين من صلاح السيرة ومحبة الناس له وانقيادهم لأمره طوعاً وكرهاً وكان صاحب حلم ودهاء (90)، كما عُرف عنه بأنه سريع في حسم مواقفه تجاه المعارضين له من الأئمة الأشراف الزيديين أو من بني حاتم، الذين وافقوا على الدخول معه في صلح عام 628هـ /1230م وقد جاء في نص القبول ((يا مولانا نور الدين تسلطن باليمن ونحن نخدمك ونبايعك على أن بني أيوب لا يدخلون إلى اليمن فبايعوا على ذلك وحصل إقرارهم عليه)) (91).

نهاية حكم الدولة الأيوبية في اليمن:

عدت وفاة الملك المسعود هي التاريخ الرسمي لنهاية نفوذ الدولة الأيوبية في اليمن، إذ لم يستطع الأيوبيون في مصر والشام من إرسال حملات جديدة إلى بلاد اليمن وذلك بسبب ما أصابهم من الضعف والانحلال الداخلي، فضلاً عن استمرار تهديدات الأخطار الخارجية المتمثلة بالصليبين والخوارزميين الذين كانوا يذكون نار الفتنة بين الأيوبيين أنفسهم (92)، الأمر الذي أتاح الفرصة للانقضاض على دولتهم وإسقاطها وقد استمرت تلك المحاولات الصليبية حتى سقوط الدولة الأيوبية وقيام الدولة المملوكية (93).

بعد استعراض الدور التاريخي للأيوبيين في اليمن، يمكن الإشارة إلى جملة من المعطيات، منها أن التاريخ السياسي للأيوبيين قد وصِف بعدم الاستقرار على الرغم من أن مدة حكمهم قد تجاوزت الخمسين عاماً وتعاقب على حكمها ستة ملوك (94)، اتسمت معظمها بطابع الحروب كما استمرت في بناء منظومة قوتها العسكرية وعدتها هي الأداة المهمة في استمرار إدارة الدولة، ولعل تبرير ذلك يعود إلى تعدد مراكز القوى السياسية الموجودة في اليمن وفي الأراضي المجاورة لها، وفقدان التجانس الفكري الذي انعكس بصورة مباشرة على طبيعة الحكم ونظامه السياسي، ومن بين تلك القوى الأشراف وبنو حاتم، فضلاً عن النزعة القبلية الضيقة بين غالبية سكان اليمن من العرب الذين نظروا إلى الأيوبيين وسلطتهم نظرة الرجل الغريب، حيث كانوا يطلقون عليهم أسماء الغز والأكراد (95).

اشتدت المعارضة الداخلية لنظام حكمهم واستمرت طوال وجودهم في اليمن، وقد عبرت تلك المعارضة عن نفسها بمواجهات مسلحة، مستغلة العوامل الطبيعية والجغرافية لصالحها كوعورة الأرض في المناطق الجبلية وصعوبة المسالك وطرق المواصلات، فضلاً عن تعدد المذاهب الدينية، لهذا استنزفت هذه المعارضة قوة الأيوبيين الذين جردوا العديد من الحملات بهدف القضاء عليها، ولا شك أن مثل هذا الجهد العسكري يلزمه تمويلاً مستمراً، لذلك فرضت العديد من الرسوم والضرائب الكمركية تحملها سكان البلاد وعلى حساب حياتهم المعيشية، وكنتيجة طبيعية لمثل هذه الإجراءات نشأت طبقة محتكرة جشعة استغلت الناس وفرضت الأسعار الباهظة على البضائع لا سيما المواد الغذائية وبعض المواد الكمالية (96).

إن طبيعة الإدارة المتخبطة للأيوبيين جعلت لهم أعداءً كثيرون، سواء كان ذلك من قبل أنصار الفاطميين في عدن أو من قبل قبائل بني مهدي المتطرفين في مدينة زبيد وأعمالها[97].

لا شك أن الصراع الداخلي بين النواب الذين تم تكليفهم من قبل السلاطين الأيوبيين قد زاد من ضعف الدولة وانهيارها لا سيما أن البعض منهم بدأ بالتوسع لحسابه الخاص محأولاً جمع الأموال الطائلة والتفكير بالاستقلال في مناطق نفوذه مستغلين ضعف بعض السلاطين وقلة خبرتهم السياسية في الحكم ومنهم من تولى الإدارة وهو صغير السن فأصبح مسيراً من قبلهم [98].

إجمالاً يمكن القول إن الحكم الأيوبي في اليمن لم يحقق الأهداف الاستراتيجية طوال مدة وجوده فيها بل جاءت النتائج سلبية أكثر مما كان يتوقع تحقيقها، لطبيعة أن القوى العسكرية الأيوبية التي وصلت إلى اليمن انقلبت على قيمها من اجل التحرير التي كان يخوضها الجيش الأيوبي المركزي في بلاد الشام ومصر ضد الغزاة الصليبيين [99]، ولهذا فإن مدة وجود الأيوبيين في اليمن قد أسست لحالة عدم الاستقرار السياسي فيها حتى بعد الإطاحة بنظام ملكهم ومجيء الدولة الرسولية فيما بعد.

ثانياً: النشاطات الاقتصادية في اليمن إبان العهد الأيوبي:

أظهر أبناء اليمن اهتمامهم بالنشاط الاقتصادي من خلال واجهاته في الزراعة والصناعة والتجارة، عبر كل مراحل تاريخهم، وذلك بسبب الظروف الطبيعية والبشرية التي ساهمت في تنامي النشاط الاقتصادي ومنها المناخ الموسمي المؤدي إلى سقوط الأمطار الغزيرة الذي حفّزهم على كيفية الاستفادة منها، وذلك ببناء السدود والخزانات ومنها سد مأرب المعروف بالتاريخ، فضلاً عن تباين تضاريسها من سفوح الجبال والسهول الغناء وتربتها الخصبة [100].

كما ويشغل الموقع الجغرافي أهمية بالغة في استراتيجية جنوب الجزيرة العربية وجنوب غربها فيما يخص القارة الاسيوية لذا فإن موقعها على البحر الأحمر والمحيط الهندي جعلها تتحكم في مدخل البحر الأحمر الحيوي [101]، فأصبحت موانؤها مرسى للسفن والبواخر القادمة من مختلف مناطق العالم، وبذلك تفاعلت حركة البيع والشراء ونشطت من اليمن واليها، فضلاً عن طبيعة الإنسان اليمني الذي عرف حياة الاستقرار منذ القدم في المدن والقرى، وأسس بذلك حالة التفاعل الاقتصادي بواجهاته المختلفة التي سيتم عرضها على النحو الآتي:

أولاً: الزراعة:

وصفُت الزراعة في اليمن بأنها متذبذبة وغير ثابتة من سنة إلى أخرى، لا من حيث المساحة المزروعة ولا من حيث كمية الحاصل المنتج ونوعيته، وذلك بسبب اعتمادها على الأمطار وهي غير منتظمة في سقوطها وكميتها ومن ثم انعكس على المعدلات السنوية لها[102].

عمل معظم سكان اليمن في الزراعة، وعرف فلاحهم بشدة تعلقه بأرضه، لأنها مصدر رزقه وقوت يومه، لذا حاول استغلالها أحسن استغلال لا سيما أن تربة بلاده الخصبة قد تجاوبت مع نشاطه وأنتجت أحسن المحاصيل الزراعية وأجودها، وبهذا الشأن يقول ابن الفقيه ((في اليمن أنواع الخصب وغرائب الثمر وطرائف الشجر ما لا ينبت في بلاد الأكاسرة والقياصرة))[103].

وعلى حد هذا الوصف فإن زراعة المحاصيل كانت متنوعة ومنها زراعة الحبوب القمح والشعير والذرة والأرز والسمسم، وقد انتشرت المحاصيل الثلاثة الأولى في معظم سهول اليمن، حيثما توافرت المياه لزراعتها، إلا أن مدن ذمار ورعين والسمول التي يطلق عليها (معر اليمن) هي التي أنمازت عن غيرها إذ تزرع فيها لفترات طويلة، فيقول ياقوت الحموي بهذا الخصوص: ((رأيت في جبل مستور براً أتى عليه ثلاثون سنة لم يتغير))[104].

أذن تزرع محاصيل القمح والشعير والذرة في مناطق مختلفة من اليمن ومنها حضرموت في منطقة هجران وفي مأرب وصنعاء وغيرها من المدن، ولا شك أن هذه المحاصيل الرئيسة شكّلت المادة الغذائية الأساس لسكان اليمن كما هي في البلدان الأخرى، أما الأرز فيزرع في مناطق محدودة لحاجته إلى كميات كبيرة من المياه، أما محصول السمسم فتتوزع زراعته في المناطق ذاتها التي عرفُت بزراعة الذرة والشعير[105].

أما زراعة النخيل فقد انتشرت في مناطق عدة لا سيما في تهامة التي شكّل فيها محصول التمور أهمية كبيرة حيث يأتي إليها الناس من مناطق اليمن الأخرى مثل حرض وأعمال إبين ونزول أهل الجبال إلى مدينة زبيد، اذ يبقى الناس هناك قرابة ثلاثة أشهر للتهيؤ لموسم جني المحصول الذي يعرف باسم (سبوت النخيل[106]، فيدر عليهم وارداً وفيراً سنوياً، وقد عرفُت مدن زبيد وحرش ومرخه ورياك بإنتاجه مقارنة ببقية مناطق زراعته الأخرى نظراً لما تتوافر في أراضيها النسبة العالية من المياه الجوفية [107].

أما الفواكه فتشكل مساحة كبيرة من الإنتاج الزراعي في اليمن، وتأتي في مقدمتها زراعة العنب وبأنواع عديدة عُرف منها ثمانية عشر نوعاً هي البياض – القوارير – الرازقي – العرق – الجوفي – القزاقز – الأطراف – بيض الحمام – الحاتمي – القهمي – زيتون – عيوت – ذيبيني – حسيني – عذاري – أصابع زينب – سيسان – عاصمي ويطلق عليه اسم الحلواني في الشام [108] وكذلك يطلق عليه ذات التسمية في العراق، ويقول المؤرخ الواسعي: ((يكون العنب أكثر حلاوة عندما يشرب من ماء المطر مرة واحدة أو مرتين فيطلق عليه " العفر"، أما إذا سقُي من ماء الآبار فإن حلاوته تكون أقل من حلاوة عنب العفر)).[109]

تتوزع زراعته في منطقة السراة وذمار وفي قرية شروم وثاقت ومناطق أخرى عديدة في اليمن، إلى جانب زراعة العنب تُزرع فواكه أخرى إلا أنها أقل انتشاراً كالرمان والخوخ والسفرجل والتوت واللوز وبعض أشجار الحمضيات كالنارنج والاترنج والنارجيل، ونظراً لكثرة فواكهها فقد شبهها القلقشندي بدمشق الشام أو بعلبك لكثرة فواكهها وأشجارها ومياهها واعتدال هوائها.[110].

عُرفت اليمن بزراعة نباتات أخرى مثل القرظ في منطقة صعده وصنعاء وحرش ونبهات ومنطقة السراة، أما اللبان وهو الصمغ المستخرج من شجرة اللبان، فإن أهم مراكز إنتاجه في منطقة ظفار القريبة من مرباط[111] في منطقة الشحر، ويذكر الحموي عن اللبان قوله: ((إن اللبان لا يوجد في الدنيا إلا في جبال ظفار وهو غلة لسلطانها وإنه شجر تلك البادية، ولذلك إنهم يجيئون إلى شجرته

ويجرحونها بالسكين فيسيل اللبان منه على الأرض ويجمعونه ويحملونه إلى ظفار فيأخذ السلطان قسطه ويعطيهم قسطهم)).[112]

أما شجرة الكاذي التي يستخرج منها (دهن الكاذي) الذي تميز برائحة زكية تشُم على مسافات بعيدة من موقع الشجرة، فقد عُرفت مدينة زبيد بزراعة هذه الأنواع من الأشجار، فضلاً عن ذلك عُرفت اليمن بزراعة الكثير من النباتات ذات الاستخدامات في العقاقير الطبية وإنتاج البخور والعنبر والزعفران[113].

أما الخضراوات فتزرع في مناطق متفرقة من بلاد اليمن ومن أهمها الباذنجان والجزر والقثاء والخيار والبطيخ بنوعيه الأخضر والأصفر، والكرنب والملوخيا واليقطين والقرع العسلي والبصل والثوم والفجل والكراث، كما توجد البقوليات بأنواعها البازلاء والحمص والفول والعدس واللوبيا، وهذه الأنواع بمجملها كافية لسد الحاجة المحلية للسكان وفي الوقت نفسه أسعارها مناسبة.[114]

بعد هذا العرض المقتضب عن طبيعة الإنتاج الزراعي الذي شهدته اليمن إبان حكم الأيوبيين لا بد من الإشارة إلى أمر آخر ذي صلة مباشرة بالزراعة وهو طرائق الري وسقي المزروعات، فقد كانت تعتمد الزراعة على طرائق عدة[115] في الري ومنها:

1- الاعتماد على مياه الأودية والينابيع إذ يعمل الفلاحون السدود لحجز المياه ومن ثم يرفعونها إلى حقولهم الزراعية بعد حفر السواقي وتوجيه المياه إلى المزروعات.

2- استخدام طريقة الصهاريج ومن ثم توجيه المياه إلى الحقول الزراعية.

3- استخدام الآلات اليدوية في رفع المياه ومنها الدلو بعد شده بسلسلة من الحبال مربوطة بحيوان لسحبه كالحمار والثور ثم يتحرك بحركة دائرية لغرض استمرار جريان الماء وسحبه، فضلاً عن حفر الآبار الجوفية العميقة.

4- أما طرائق الري في المناطق الجبلية فيعمل الفلاح على عمل السدود وتوجيه مسار المياه الغزيرة من المناطق المرتفعة إلى المناطق المنخفضة[116].

أما الثروة الحيوانية التي عرفت بمصدر آخر إلى جانب الإنتاج الزراعي فقد استغلها المزارع اليمني أحسن استغلال لسد حاجاته ومتطلباته اليومية، حيث عرفت منطقة تهامة وبقية المناطق الأخرى بتربية الحيوانات وتدجينها، وهي على أنواع عدة منها الأغنام العنسية والجوفية والحجيجة وكذلك الإبل ومنها الارجية والمهرية والصدقية والمجيدية والإبل المهرية المغيرة، أما الأبقار فمنها الجندية والخدرية التي تتماز بقوتها الجسدية ولحمها الجيد وتربى في منطقة زبيد، فضلاً عن تربية حيوانات أخرى منها الحمير للسروح ومنها الحضرمية واليعافرية المعروفة بخفتها وسرعتها وخشونتها [117]، كما عُرفت مناطق اليمن بوجود بعض الحيوانات المتوحشة كالزرافات والأسود والغزلان والقردة[118].

والطيور ومنها الدجاج والوز والحمام، فضلاً عن معرفة البعض من سكان اليمن تربية النحل للحصول على العسل ولا سيما في منطقة جيلان[119]، كما عرف عن اليمنيين خبرتهم في صيد الأسماك في البحر الأحمر والمحيط الهندي وكانوا يطلقون على جميع أنواعه اسم الحوت[120].

ثانياً: الصناعة

عُرفت اليمن بتوافر الكثير من المعادن والمواد الأولية الداخلة في الصناعة عبر فترات مبكرة من تاريخها سواء قبل الإسلام أو بعده، ومن تلك المعادن العقيق والجزع والحديد الذي وُجد في مناطق عدن والمناطق المجاورة لها وهناك جبل فيها عُرف باسم جبل الحديد، فضلاً عن توافره في منطقتي صعده ووداعة [121].

لقد نالت الصناعة اهتمام حكام الدولة الأيوبية، إذ إنهم كانوا يجلبون الصناع من أصحاب الحرف المختلفة من مصر وبلاد الشام وينالون رعايتهم وتكريمهم[122]. لذا فإن الصناع إذا ما أرادوا الإقامة الدائمة في اليمن لقوا كل الاحترام والترحيب وإذا رغبوا بالعودة أعادوهم مكرمين كما حضروا، ((ما قصدهم قاصد إلا وحصل له من البر ولايناس وتنويع الكرامة ما يسليهم عن غربة الأوطان))[123].

أما إذا كان صاحب المهنة والصانع قد قرّر الإقامة الدائمة عندهم فإنه لا يسمح له بالعودة، وإن صمّم على ذلك سمحوا له بشرط أن يعود كما جاء من غير أن يحمل معه شيئاً مما كسب عندهم عقاباً له على ذلك [124].

من هنا يتضح أن توافر المواد الأولية والمعدنية على نحو خاص من جهة وتشجيع الإدارة الأيوبية لأصحاب الصناعات والحرف من جهة أخرى، قد شجع على تنامي حركة الصناعة في اليمن، وعلى هذا فان أهم الصناعات التي اشتهرت بها اليمن هي دباغة الجلود وصناعة الملابس الحريرية والصوفية والقطنية وصناعة السيوف والخناجر وصناعة الحلي الذهبية والفضية وصناعة الخمور وصناعة المربى والأقداح والقطران [125].

وفيما يأتي عرض موجز لأهم تلك الصناعات وهي:-

1- **صناعة دباغة الجلود:** بالنظر لوفرة نبات القرظ باليمن ووفرة الجلود لا سيما جلود الأبقار الجيدة، لذا ازدهرت صناعة الأحذية وقرب الماء في مناطق مختلفة من اليمن، ومنها مدن زبيد وصنعاء، حتى إن إنتاجها قد زاد عن الحاجة المحلية وصدّر البعض منه إلى مناطق الحجاز [126].

2- **صناعة الملابس:** عُرفت اليمن بصناعة الملابس الحريرية والصوفية والقطنية، إلا أن أشهرها صناعة الملابس القطنية التي كانت تصنع في منطقة السحول لذلك عُرفت باسم الملابس السحولية، وتصنع كذلك في منطقة معافر وعرفت بالمعافرية، واشتهرت مدينة زبيد بحياكة الملابس وكذلك بيت الفقيه وأماكن متفرقة من تهامة، حيث تتم صناعة الأقمشة التي لا تختلف في جودتها عن تلك المصنوعة في مصر والشام فتسمى في مصر الغزلية والشام الأجه [127].أما البرود فتأتي في مقدمتها الملابس التي تنتج في اليمن وظلت مشهورة بها حيث ينسب كل منها إلى بقعة أو مكان في هذه المنطقة أو إلى قبيلة من القبائل التي تسكنها مما يدل على أن هذه المنطقة هي الرئيسة في إنتاج البرود[128].

3- **صناعة السيوف والخناجر:** اشتهرت اليمن بصناعة الخناجر والسيوف ومنها الخناجر اليمنية المقوسة في مدينة صنعاء، وكانت تلك الخناجر ذات مقابض من العظم المطعم يحملها الناس عادة [129]، وقد تكون هي مكملة لمواصفات الزي واللباس الخاص بالرجال ((لا زالت تُحمل إلى يومنا هذا))، فضلاً عن صناعة السيوف ومن أشهرها السيوف اليمانية وهي المصنوعة في منطقة بيلمان وصناعة الرماح التي عُرفت في صعده ونوعها ذات المقابض الحديدية لتوافر الحديد بأنواعه في هذه المنطقة [130].

4- **الصناعات الغذائية**: وتأتي في مقدمتها صناعة المربى التي يطلق عليها اسم (معقدات الفاكهة)، وكان أهل اليمن يجيدون صناعتها من الجزر والقرع والخوخ [131]، فأصبحت لها شهرة واسعة في داخل اليمن وخارجها، فضلاً عن صناعات أخرى عديدة.

5- **صناعة العطور**: برزت هذه الصناعة في اليمن، نظراً لما تتمتع به من وجود نباتات وزهور عطرية عديدة، وقد انمازت مدينة عدن عن غيرها في هذه الصناعة وقد وصفها المرزوقي بالقول ((وكان طيب الخلق جميعاً بها يعبأ ولم يكن أحد يحسن صنعه من غير العرب حتى إن تجار البحر لتصبح بالطيب المعمول وتفخر به بالسند والهند وترتحل به تجار فارس والروم))[132]. ومن هنا فقد ظهرت أسواق هامة في عدن متخصصة في بيع العطور وتُعد من أشهر أسواق العرب بأنواع الطيب[133].

6- **صناعة المستلزمات البحرية والنقل**: لقد عرفت العديد من المدن اليمنية الواقعة على سواحل البحر الأحمر ومنها منطقة زبيد بصناعة المستلزمات واللوازم الرئيسة في صناعة السفن والحبال والأشرعة، وبهذا الصدد يقول ابن جبير عن ذلك ((إن أحسن ما يستخدم عليها الإبل الشقاديف وهي أشباه المحامل وأحسن أنواعها اليمانية لأنها مجادة متسعة يوصل منها الأثنان بالحبال الوثيقة وتوضع على البعير ولها اذرع قد صفت بأركانها يكون عليها مظلة فيكون فيها الراكب مع عديله في كن من لفح الهاجرة)) [134].

7- **صناعة الزجاج والخزف**: انتشرت هذه الصناعة في مناطق يمنية عدة، وذلك لتوافر مستلزمات صناعتها من الأجر والزجاج والمواد الخزفية، وقد أشار إلى هذا الموضوع ابن مجاور بقوله: ((إن احد آبار عدن سمي بئر سوق الخزف)) ويستنتج من هذه التسمية أن ذلك البئر كان قريباً من السوق الخاص لبيع الخزف وفي المنطقة نفسها التي يقع عندها ذلك السوق، ويؤكد أن صناعة الخزف كانت منتشرة بصورة واسعة وهذا بدوره يستلزم وجود سوق خاص لبيعه وشرائه [135].

وهناك صناعات عديدة أخرى عُرفت بها اليمن خلال حكم الدولة الأيوبية ومنها صناعة الأقداح والخمور والقطران وغيرها [136].

ثالثاً: التجارة:

انتعشت الحركة التجارية في اليمن بسبب موقعها الاستراتيجي في الجزء الجنوبي الغربي من قارة آسيا وشبه الجزيرة العربية وتحكمها بطرق المواصلات البحرية،البحر الأحمر والبحر العربي الذي هو جزء من المحيط الهندي، حيث أقيمت موانئ عدة على سواحله وبذلك أصبحت حلقة وصل بين الشرق والغرب، وقد أعاد عليها هذا الموقع بفوائد وعوائد تجارية عديدة سواء كان ذلك في نطاق التجارة الداخلية أو الخارجية (137)، وساهمت الموانئ العديدة على ازدهار النشاط التجاري اليمني ومن هذه الموانئ هي:-

- ميناء عدن: يُعد هذا الميناء بموقعه الاستراتيجي الهام مدخل البحر الأحمر الجنوبي من أهم الموانئ اليمنية حيث تأتيه السفن والبواخر من مختلف مناطق العالم، لذا كان سكان عدن يعملون بالتجارة ويحصلون من وراء ذلك على أرباح طائلة، وكانت هناك مواسم محددة لوصول المراكب إلى الميناء والسفر منه، وكان إذا أراد ناخوذه(138) السفر إلى جهة من الجهات، أُعلن في البلد عن ذلك فيتوافد عليه التجار ببضائعهم وعبيدهم وقد وصف القلقشندي الدعاية للسفر بقوله ((إذا أراد النواخذه السفر أقام فيها علماً برنك (139) خاص به فيعلم التجار بسفره ويتناقل الناس الأخبار فيبقى كذلك أياماً ويقع الاهتمام بالرحيل ويتسارع التجار في نقل بضائعهم منها القماش والأسلحة وتنصب على شاطئ البحر الأسواق ويخرج أهل عدن للتفرج هناك))(140).

أصبحت عدن وميناؤها جزءاً مهماً في اقتصاد الدولة الأيوبية، إذ كانت لها أهمية كبيرة في نظر ملوك الدولة الأيوبية بسبب نشاطها التجاري وكثرة مواردها، لذلك نالت رعايتهم واهتمامهم لا سيما ميناء عدن حيث بذل الوالي عثمان الزنجيلي جهوداً كبيراً في تطوير عمل البناء وبذلك أصبح هذا الميناء يتمتع بسمعة تجارية عالية وحضي بأفضل أساليب التحصين، لم يشهدها أي ميناء آخر في الجزيرة العربية آنذاك (141). ومن هنا فقد نالت شهرة واسعة وأصبحت قاعدة للبيع والشراء، لذا عمل عثمان الزنجيلي على بناء العديد من المؤسسات ذات الصلة بالحياة الاقتصادية فقد بنى العديد من القيصريات (142)، والأسواق والحوانيت ودور الحجر وبذلك ازدهرت عدن ازدهاراً عظيماً ونالت شهرة مميزة (143).

شهدت الأسعار إرتفاعاً ملحوظاً في ميناء عدن ولا سيما المواد الغذائية، لأن كل شيء يجلب لها، وزراعتها محدودة وطقسها حار رطب لا يشجع على ذلك، إلا أنها مدينة عامرة بالحركة التجارية، لتحكمها بطرق الملاحة البحرية القادمة من الهند وجنوب شرق آسيا، حيث تمر بميناء عدن ثم تواصل

المسير إلى موانئ تهامة والمخا وغلافقه والغازه، ثم يستمر هذا الطريق البحري حتى يصل إلى موانئ شمال البحر الأحمر والجزيرة العربية حتى ميناء عينذاب، الذي يعُد من الموانئ الهامة ونقطة اتصال بين تجارة البحر الأحمر وتجارة نهر النيل تصل اليها البضائع من اليمن وغيرها عن طريق البحر الأحمر ثم تحمُل على الإبل من الصحراء إلى أسواق القوس ومنها إلى القاهرة.(144).

-ميناء غلافقة: وهو مرسى مدينة زبيد ويبعد عنها خمسة عشر ميلاً تقصدها السفن التي تحمل البضائع لا سيما تلك البضائع القادمة من موانئ مصر الواقعة على البحر الأحمر ومن الحجاز وتحديداً من ميناء جده والجار، أو من موانئ الحبشة والصومال فضلاً عن السفن القادمة من الشرق وتحديداً من الصين والهند والديبل،ولا شك أن ميناء غلافقة شكّل أهمية كبيرة في العهد الأيوبي لذلك وُصف بأنه كان عامراً.(145)

تكونت علاقات متشعبة ما بين تجار الهند وسكان الموانئ اليمنية،حيث تواجدت جاليات عديدة **عملت على تنظيم** حركة التجارة من تلك الموانئ وإليها، فضلاً عن تقارب العادات والتقاليد وتشابه **الأزياء والملابس حيث** ارتدي الزي الهندي في مدينة زبيد وبالعكس.(146)

-**ميناء** مرباط: وهو مرسى مدينة ظفار، ويبعد عنها بنحو خمسة عشر ميلاً وهو من الموانئ المهمة على بحر العرب، وكانت ترسو فيه السفن القادمة من مناطق العالم المختلفة لا سيما من الشرق، وبذلك جاء وصف ياقوت الحموي عنه بالقول ((والمرباط مرسى جيد كثر ذكره على أفواه التجار) (147)

- ميناء ظفار: كانت أهميته متواضعة بسبب موقعه بالقرب من ميناء مرباط، إلا أن تلك الأهمية أخذت شكلاً آخر بعد تأسيس مدينة الأحمدية على يد مؤسسها أحمد بن محمود الحميري عام 619هـ/ 1222م على ساحل خور داخل في البر ومدينة فار على طرفه ولا تستطيع المراكب الخروج من ذلك الميناء إلا إذا هبت رياح قوية من جهة البر ومنه تنطلق السفن إلى الهند وغيرها من بلدان الشرق.(148)

- ميناء المخا: يقع بين مدينة زبيد وعدن وله أهمية كبيرة، ويعُد من موانئ اليمن القديمة على ساحل البحر الأحمر، يقوم على خليج صغير يتراوح عمقه بين 6- 8 م، وهو ميناء للتصدير لا سيما محصول البن، وكان الميناء المفضل لرسو السفن اليونانية والرومانية القديمة (149)، ثم تواصلت تلك الأهمية في الحقب التالية وشكل أهمية بارزة في حركة التجارة اليمنية فيما بعد.

- ميناء الأهواب: (150) يقع في الجنوب من ميناء غلافقة ولا يبعد كثيراً عنه، وفي الجنوب الغربي من مدينة زبيد، وقد توافرت له تلك المقومات التي توافرت إلى ميناء غلافقة من موقع على ساحل

البحر الأحمر وقربه من مدينة زبيد وإطلاله على سهل تهامة الغني زراعياً، تلك العوامل جعلت منه ميناء نشطاً تجارياً يستقبل بعض السفن القادمة من ميناء عدن وشرق أفريقيا، إذ إن موقعه يقابل ميناء عوان الواقع على الساحل الإفريقي الذي كانت تقصده السفن المحملة بالبضائع أيضاً.[151].

فضلاً عن هذه الموانئ الرئيسة هناك مجموعة أخرى من الموانئ أقل أهمية منها مثل ميناء مندب ودهلك وسرحه وشبومه والشحر، وكانت تقصدها السفن القادمة من مصر والحجاز والحبشة وبعض بلدان الشرق حيث ترسو فيها بعد أن تواجه بعض الصعوبات في حركة مسيرها الملاحي.[152]

هكذا ساهمت هذه الموانئ في تنشيط حركة التجارة الخارجية في عهد حكم الدولة الأيوبية في اليمن، وكانت من أهم البضائع الداخلة إلى تلك الموانئ من مصر تمثل الحنطة والسكر والدقيق والرز والزيتون والصابون وعسل النحل والزيتون والملح، وهذه البضائع تكون عادة معفاة من الضرائب لأنها تُعد من البضائع الاستهلاكية[153]، كما كانت تصل بعض السلع من الصين والحبشة والهند مثل الحرير وسن الفيل والكافور والزنجبيل والعود الهندي وجوز الطيب والزعفران والعنبر والأحجار الكريمة والأبنوس.[154]

أما التجارة الداخلية فقد ازدهرت هي الأخرى في عهد حكم بني أيوب في اليمن، إذ تميزت عملية النقل الصناعي من الملابس والجلود والمجوهرات من مناطق إنتاجها إلى الأسواق التجارية في صنعاء وعدن وزبيد وبقية المدن اليمنية الأخرى، فضلاً عن نقل المواد الأولية الداخلة في صناعة العطور من حضرموت إلى عدن لذلك كانت واردات مواد الطيب والعطور تُعد من عشور التجارة في عدن وتشكّل نسبة كبيرة فيها.[155]

إن تطور التجارة الداخلية والخارجية استلزم وجود أسواق محلية عديدة لتصريف المنتجات القادمة إليها سواء أكانت مستوردة أو مصنعة محلياً، لذلك شهدت المدن اليمنية قيام أسواق متنوعة منها الموسمية والأسبوعية واليومية والأسواق الدائمة فضلاً عن الأسواق المتخصصة بحسب طبيعة السلع المعروضة فيها [156]، ومن أهم تلك الأسواق هي جبلان وعيان وطماطم والعرفة والجريب وسوق المخلقة وغيرها [157] من الأسواق في المدن الساحلية والداخلية من البلاد اليمنية.

ثالثاً: الحياة الاجتماعية والفكرية والثقافية في اليمن خلال العهد الأيوبي:

- السكان:

اختلفت التركيبة الاجتماعية لسكان اليمن خلال حقبة حكم دولة بني أيوب، حيث انقسموا على فئات وطوائف متعددة حسب مذاهبهم وأديانهم، أو بحسب طبيعة مستواهم المعيشي من حيث الغنى والفقر، فعلى أساس الطوائف الدينية فمنهم من أبناء السنة وغالبيتهم من المذهب الشافعي والشيعة الزيدية، وقليل من فرقة الإسماعيلية من بني حاتم، فضلاً عن أهل الذمة من اليهود [158]، وكان عددهم قليل لا تظهر آثاره واضحة في الحياة الاجتماعية في اليمن.

أما التصنيف السكاني على أساس المعيار الاقتصادي فيمكن تقسيمه على طبقة الأغنياء التي يمثلها التجار وبعض كبار ملاكي الأراضي، أما بقية طبقات المجتمع فتتكون من الفلاحين الفقراء والصناع، ومما يذكر أن سلاطين بني أيوب قد أنهكوهم بالضرائب كما خربت بلادهم من جراء كثرة الحروب التي دخلوا فيها، فضلاً عن رعاة الأغنام والماشية وكان هؤلاء دائمي التنقل والترحال بحثاً عن الماء والكلأ، ويعيشون عيشة بدائية، أما العبيد فيُشترون من أسواق النخاسة، ويستخدمون في المنازل أو في خدمة أسيادهم وفي أعمالهم التجارية والصناعية أو في بعض حقول الزراعة. أما الجواري اللائي كن يجلبن من مختلف أنحاء العالم ويُبَعن في الأسواق بعد أن يحضرهن التجار ويبخروهن ويعطروهن ويزينوهن ثم بعد ذلك يأخذ المنادي بيد الجارية وينادي عليها في السوق فيحضر المشترون، فتتم عملية البيع على وفق الشروط المتفق عليها بين الطرفين البائع والمشتري.[159]

- المرأة:

لا شك أن مكانة المرأة الاجتماعية في اليمن قد تراجعت عما كانت تتمتع به في العهدين الأموي والعباسي، والحقب التي تلتها، فقد تولت زمام السلطة كما هو الحال الملكة أروى بنت أحمد الصيلحية[160]، وأما بشأن الجوانب الاجتماعية فان المرأة ظلت محافظة على عاداتها وتقاليدها ومنها الزي والحجاب، ومحدودية علاقاتها مع المجتمع الذكوري، إلا مع الرجال الذين تربطهم معها صلة القربى والنسب والعلاقات الأسرية.[161]

لقد توارثت الأسر اليمنية الكثير من عادات الزواج وطقوسها، إذ كان الرجل يدفع المهر والصداق، يجهز حاجات العروس ويعدّ الوليمة التي تسمى (حق النار) عند أهل اليمن، وكان مبلغ المهر عادة يُحدد بحسب نسب الزوجة ومكانة أسرتها الاجتماعية والطبقية أو بموجب مستوى جمالها الطبيعي[163].

ينفق الزوج من الأموال الشيء الكثير من أجل كسوة أهل خطيبته قبل أن تنتقل زوجته إلى داره، ومن الذين تتم كسوتهم أقارب الزوجة من الإخوة والأخوات، وقد يضطر الزوج أحياناً إلى طلب المال والاستدانة من آخرين لغرض سد تلك النفقات، لهذا فإن البعض من الشباب يعزف عن الزواج بسبب تكاليفه الباهظة.[164]

تستمر تقاليد ومراسيم الاحتفال بالزواج ما بين أسرتي الزوج والزوجة من اليوم الأول الذي يسمى يوم الحمام، حيث يدعو أهل الزوجة أقارب الزوج من النساء للذهاب مع العروس إلى الحمام، وفي اليوم الثاني يسمى يوم النقش، حيث تنقش قريبات الزوج يد العروس بنقش أسود اللون يسمى الخطط، وفي أثناء عملية النقش تمدح (النشادة) أي التي تلقي الأناشيد والأذكار والأشعار الرسول الأكرم (ص)، ثم تمدح أسرة الزوج وأهله والزوجة وأهلها بذلك اليوم المبارك، واليوم الثالث يسمى يوم الدخلة، الذي يحضره الأقارب والأصدقاء ومن يرغبون في دعوتهم بالحضور ومن ثم إقامة ولائم الطعام لهم [165]، وفي أعقاب الزواج أي في اليوم السابع يقيم أهل الزوج وليمة لأهل الزوجة، وبعد مضي عشرون يوماً تقيم أسرة الزوجة وليمة مقابلة يحضرها ضعف العدد الذي حضر في اليوم السابع من الزواج[166].

يظهر من سياق مراسيم الزواج المتبعة في اليمن بأنها لا تختلف كثيراً عن سياقات المجتمع العربي الشرقي عموماً ولا سيما في الجزيرة العربية، حيث تظهر في ابرز حلقاتها صفات العرب وخصالهم عبر تاريخهم العريق.

- **الأزياء والملابس:**

تنوعت الأزياء في اليمن حسب طبقات المجتمع، فقد كان لباس السلطان ومعظم جنده وقادته عبارة عن أقبية إسلامية ضيقة الأكمام مزندة على الأيادي وفي أوسطهم مناطق مشدودة وعلى رؤوسهم أغطية مختلفة الأشكال والتصاميم تسمى (تخافيف)[167]، ومما يذكر بهذا الصدد أن البعض من سلاطين بني أيوب كان يتشبهون في ملابسهم بملابس الخلفاء العباسيين، كما فعل ذلك السلطان المعز طغتكين، عندما ادعى بالخلافة على اليمن، فكان يرتدي القمصان ذات الأكمام الطويلة الواسعة التي تسمى الثمانية والعشارية، لأن طول الكم كان يبلغ ثمانية أذرع أو عشرة[168].

أما لباس العامة من الناس فكان مختلفا في المدن عنه في المناطق القروية، تكون ملابسهم من القطن والحرير وهو السائد، مع طول الأكمام واحياناً يكون الثوب كله طويلاً من الرأس إلى أخمص القدم وأحياناً يكون قصيراً حتى المفصل أو دونه بقليل، ويُستخدم الحزام من القماش أو الجلد فوق وسط الثوب (169)، أما الفلاحون في القرى والبوادي فيرتدون المآزر السوداء من غير القمصان، وأما لباس القضاة والفقهاء والعلماء فيرتدون ملابس الجوخ وكانوا يفصلونه كجبة مثل أهل الشام تكون واسعة الأكمام وتبطن ببطانة من القماش، أما الأطراف فتُصنع من الحرير [170].

أما بشأن ملابس المرأة على العموم فمبوقو ومحتشم، فهو عبارة عن سراويل طويلة تلاصق الأرض، وعليه ثوب طويل يستر أجزاء الجسم جميعهم ما عدا الكفين وباطن القدمين ويسمى عند أهل اليمن (زنه) وتضع المرأة على رأسها المصرات (المناديل) وهي من القماش الملون، وتضع المرأة تلك الملابس من الحرير الهندي وهو الخيط الذي تكثر ألوانه وخطوطه ويسمى المزند الذي يُزين بخطوط الحرير والقصب أو السيم من الخيوط الذهبية أو الفضية[171].

تُلبس هذه الملابس في الأعياد والمناسبات مع التزّين بما لديها من الحلي والعقود الذهبية والفضية وتسمى (السكه)، أو في بعض الأحيان ترتدي بعض العقود من اللؤلؤ أو المرجان [172]، أما الملابس الاعتيادية فهي بسيطة من القماش القطني وتكون طويلة ومحتشمة وهي الصفة الغالبة لمعظم النساء في المناطق القروية والريفية.

-التعليم والنشاط الفكري والثقافي في اليمن خلال حكم الدولة الأيوبية:

بالنظر لإنشغال الأيوبيين في اليمن بالحروب الداخلية العديدة التي استنزفت منهم أموالاً طائلة وأضعفت إمكاناتهم المالية انعكست على ميدان التعليم وبناء المدارس حيث كانت فقيرة ولم تنل الأهتمام المطلوب من السلاطين، بحيث اكتفى طلبة العلم بالحصول على التعليم الديني في المساجد والجوامع أو الذي يُقام في المنازل، حيث قدّم كل من الفقيه أسعد بن محمد والفقيه محمد بن أبي الفلاح الدروس في بيوتهم (173)، إلا أن البعض من سلاطين بني الأيوب أظهر اهتمامه بالتعليم (174) فأسس عدداً من المدارس كما هي مبينة في أدناه:

المدرسة السيفية التي أسسها الملك المعز طغتكين، وتُعد هذه المدرسة من أول المدارس التي أسسها سلاطين الدولة الأيوبية في اليمن (175) والمدرسة الميجرية التي أسسها ميجر الدين كافور التقي، وهو أحد خدام السلطان سيف الإسلام طغتكين بمدينة تعز حيث عُرف عنه حبه للعلم والعلماء، وبعد وفاته دفن في المدرسة ذاتها، وكان الناس يقومون بزيارة ضريحه والتبرك والدعاء عنده (176).

أما مدارس سنقر الأتابك فقد أنشأ مدرستين في مدينة زبيد، وكانت لأغراض دينية لتدريس فقه المذهبين الشافعي والحنفي عام 608هـ / 1212م ، ومدرسة الميلين التي أقامها السلطان المسعود بن الكامل في مدينة زبيد وهي الوحيدة التي أقامها ولم يكن له من المآثر في اليمن سوى هذا العمل، ومدرسة الركبي التي أسسها أبو عبد الله بن أحمد بن سليمان في منطقة دملوه وقد درّس بنفسه فيها، وقبيل وفاته أوصى بكتبه وبعض مساحات الأراضي المجاورة لها بأن تكون وقفاً إلى المدرسة، وقد خلّفه أبناؤه في التدريس فيها بعد وفاته ومنهم ولده سليمان (177).

أما مدارس المنصور التي أقامها السلطان المنصور نور الدين عمر بن علي بن رسول(178) في اليمن ومنها المدرسة الوزيرية المنسوبة الى مُدرسها الوزيري، والمدرسة الغرابية نسبة إلى مؤذنها الذي كان يُسمى الغراب، فضلاً عن بنائه أكثر من مدرسة دينية لغرض تدريس الفقهين الشافعي والحنفي في مدينة زبيد وقد خصص لها أوقاف محددة(179).

يُمنح الطالب بعد مدة دراسته شهادة اعتراف (إجازه) من معلميه ومرشديه، بعد أن تلقى على أيديهم علوماً عامة متخصصة في مجالات الفقه والعلوم الدينية المختلفة (180)، حيث يُسمح له بعد ذلك بممارسة التعليم والإرشاد، ونذكر هنا نماذج من تلك الإجازات ومنها إجازة الفقيه ابن أبي الصيف للركبي وإجازة الفقيه علي بن القاسم للعامري وجاء فيها ((قرأ على الفقيه لأجل العلم الأوحد ضياء الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن داود بن سليمان العامري جميع كتب المهذب في الفقه

والاجتماع والقياس والبقاء على حكم الأصل عند عدم هذه الأدلة صار بها أصلاً أن تغتنم فوائده وتلازم الإفادة في إفادته)).[181]

وهكذا يلاحظ أن الطابع الديني والفقهي هو الغالب على واجهات التعليم في اليمن خلال عهد الدولة الأيوبية، كما هو الحال فيما يخص الحركة الفكرية اليمنية، حيث إن أغلب رجال العلم هم من علماء الدين وأكثر الطلبة هم طلبة العلوم الدينية لا سيما طلبة الفقه، كما أن معظم الإنتاج الفكري كان يدور في إطار الحركة الدينية والعلوم المساعدة كاللغة والتاريخ وعلم الكلام [182].

أما على المستوى الفكري والثقافي فقد شجّع بعض سلاطين الدولة الأيوبية تنظيم أغراض الشعر المختلفة وكان في مقدمتهم السلطان إسماعيل بن طغتكين الذي قرَّب الشعراء وأفاظ عليهم ومن أبرزهم الشاعر أحمد بن محمد الأشرقي، والشاعر بن الدلال وغيرهم، ومما يرد عنه انه كان ينظم الشعر بل عُرف شاعر فصيح وبليغ وله ديوان شعر يقع في مجلد ضخم [183]، على العموم أن النهضة الفكرية والعلمية خلال مدة حكم الدولة الأيوبية كانت محدودة على عكس ما حصل إبان حكم الدولة الرسولية، وهذا ما سيتم عرضه في سياق الفصل التالي من الكتاب بمشيئة الله تعالى.

هوامش الفصل الأول ومصادره

(1) وُلد صلاح الدين الأيوبي في مدينة تكريت في العراق وهو من أصول كردية، شارك في عدد من الحملات ضد الدولة الفاطمية في مصر حتى تقويض حكمها وأسس بذلك نظام الدولة الأيوبية وبدأ أعماله العسكرية بسلسلة من الفتوحات شهدتها مدن دمشق وحلب والموصل، ودخوله في حروب متواصلة مع الصليبين كانت أبرزها معركة حطين الفاصلة عام 1171م التي حرر بها بيت المقدس، فضلاً عن حربه الشرسة مع ملك إنجلترا ريتشارد الأول (قلب الأسد) وعرُفت بالحرب الصليبية الثالثة عام 548هـ/ 1189م ثم وقع معه صلح الرمله عام 587هـ/1192م، لقد ذاع صيته بكونه قائداً عسكرياً شجاعاً ومقداماً وفي الوقت ذاته عُرف بحبه للعلم وتشجيع العلماء، فعمّر المساجد وأصلح قنوات الري وبنى القلاع وحدد أسوار مدينة القاهرة، توفي في دمشق ودفن بجوار الجامع الأموي، لمزيد من التفاصيل ينظر، الموسوعة العربية الميسرة، المجلد الثاني، دار النهضة، بيروت، 1987؛ ص1128.

(2) الدولة الفاطمية، هي الدولة الشيعية من الفرقة الإسماعيلية، حكمت مناطق شمال إفريقيا، تدين بظهورها إلى مؤسسها عبد الله المهدي في أوائل القرن العاشر الهجري، ثم تركزت في مصر واتخذت القاهرة عاصمة لها امتد نفوذها ما بين عامي 969م-1171م واجهت الدولة سلسلة من التحديات الخارجية في مقدمتها القوات الصليبية حتى سقوط بيت المقدس عام 1099م، اشتهر من أمراء هذه الأسرة عبد العزيز بالله الفاطمي 965- 996 والحاكم بأمر الله الفاطمي 996-1021م، حيث نظموا حركة البناء والعمران وكان آخر أمرائهم المعاضد لدين الله الفاطمي الذي وقع تحت تأثير القادة العسكريين الأيوبيين، شهدت الدولة الفاطمية تقدماً ملحوظاً في ميدان العلوم والفنون وبُنيت في القاهرة دار الحكمة والجامع الأزهر الذي أصبح جامعة يُدرس فيه الفقه الشيعي إلى جانب المذاهب الأخرى. وأظهرت الدولة اهتمامها بالأعياد والمناسبات الدينية العامة. ينظر، الموسوعة الحرة والويكيبديا على الموقع: .http:llar,wikipedia.org

(3) محمد عبد العال أحمد، الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي إلى عصرهم، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1980 ، ص69

(4) جميل حرب محمود حسين، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة المملكة العربية السعودية، مطابع سحر، ط1، 1985،ص92

(5) عز الدين أبو الحسن علي، ابن الأثير (ت630هـ/1228م)، الكامل في التاريخ، ج11، القاهرة، 1301 هـ ص 173، 178

(6) توران شاه، وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين الأيوبي الذي كُلف بقيادة الحملة العسكرية على اليمن وتم فتحها وبقيت تحت سيطرته 1174 – 1176م، وقد لقب باسم شمس الدين وهو الذي قضى على دولة بني زريع في عدن، ينظر،عبد الله أحمد الثور، هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، 1969، ص 298.

(7) محمد عبد العال، المصدر السابق، ص71.

(8) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص97.

(9) دولة بني المهدي، تُنسب هذه الدولة الي مؤسسها علي بن مهدي بن محمد بن علي بن داود بن محمد الرعيني الحميري 553هـ/1158م، استمر حكم هذه الدولة في اليمن خمسة عشر عاماً وثلاثة أشهر وثمانية أيام ومن أشهر حكامها علي بن مهدي وابنه مهدي بن علي وعبد النبي بن علي وعبد الله بن علي، ينظر: عبد الله الثور، المصدر السابق، ص 296، 297.

(10) وهذا ما سيتم تسليط الضوء عليه تفصيلاً في سياق هذا الفصل.

(11) شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل المقدسي أبو شامة ت 665هـ، الروضتين في أخبار الدولتين تحقيق، حلمي محمد أحمد، ج1، القاهرة، 1956، ص217.

(12) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص83.

(13) المصدر نفسه، ص83.

(14) ابن الأثير، ج9، ص122.

(15) اختلفت الروايات بشأن مصير عبد النبي بن علي بن المهدي فقيل أنه قد قتل يوم الاستيلاء على المدينة والقسم الآخر يذكر بأنه جيء به أسيراً إلى عدن بعد أن تم توران شاه السيطرة عليها فيما بعد وهناك من يرى أن توران شاه أمر نائبه في زبيد بقتله وهو في منطقة جبلة ونفذ النائب الأمر بقتله في شباط عام 1175م، محمد عبد العال، المصدر السابق، ص ص 85، 86.

(16) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص99.

(17) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، القاهرة 1960، ص64.

(18) بني زريع، هم الأسرة الحاكمة في عدن والمناطق المجاورة لها ويمثلها كل من العباس والمسعود بني المكرم اليامي الهمداني المعروفين بني زريع ثم توارثوا الحكم من بعدهم أولادهم حتى وفاة الملكة أروى بنت أحمد الصليحي، استمرت مدة حكم دولة بني زريع ما يقارب مئة عام من 470- 569هـ. ينظر، أحمد عبد الله الثور، المصدر السابق، ص288.

(19) عبد الرحمن محمد بن خلدون، ت808هـ/ 1406م، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج5 بولاق، 1284هـ، ص287.

(20) يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد ت 1693 م، أنباء الزمن في أخبار اليمن، القسم الأول، تحقيق، محمد عبد الله ماضي، د.ط، 1926، ص54.

(21) استمر حكم دولة بني حاتم قرابة 76 عاماً، من 1108- 1161م. لمزيد من التفاصيل ينظر، أحمد عبد الله الثور، المصدر السابق، 290.

(22) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص93.

(23) المصدر نفسه، ص93.

(24) أبو شامة، الروضتين، ج1، ص260.

(25) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص101.

(26) المصدر نفسه، ص 102.

(27) سيتم التطرق لمدة حكمها في اليمن في سياق المبحث التالي من هذا الفصل.

(28) المصدر نفسه، ص102.

(29) يحيى بن الحسين، المصدر السابق، 54؛ محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص103.

(30) حصلت موقعة المواصلة ما بين السلطان سيف الدين الغازي صاحب الموصل الذي جاء لمحاصرة إسماعيل بن نور الدين ضد صلاح الدين، وعرفت باسم المواصلة نسبة الى مدينة الموصل في العراق، عبد العال أحمد، هامش (2) ص105.

(31) عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص106.

(32) أحمد فضل بن علي بن محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، القاهرة، 1351هـ، 73.

(33) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص103.

(34) حسين بن أحمد العرشي، بلوغ المرام في شرح مسك الختام من تولى اليمن من ملك وإمام، نشره أنستاس الكرملي، القاهرة، 1931، ص41.

(35) محمود ياسين التكريتي، الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي 1174- 1226م، مجلة آداب الرافدين، جامعة الموصل، العراق – العدد12 كانون الأول، 1980، ص118.

(36) محمد عبد العال، المصدر السابق، ص146.

(37) حمزة علي إبراهيم لقمان، المصدر السابق، ص70.

(38) المصدر نفسه، ص70.

(39) أحمد بن إبراهيم الحنبلي ت 876هـ، شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، 1978، ص270.

(40) أبو محمد عبد الله الطيب أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج2، مطبعة ليدن، 1936، ص192.

(41) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص122.

(42) المصدر نفسه، ص122.

(43) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ص58.

(44) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص106.

(45) المصدر نفسه، ص107.

(46) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص125.

(47) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج1، ص20.

(48) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص126.

(49) المصدر نفسه، ص126.

(50) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص183.

(51) المصدر نفسه، ص185.

(52) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج2، ص24.

(53) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص127.

(54) المصدر نفسه، ص128.

(55) محمد بن أحمد عيسى العقيلي، المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، ج1، الرياض، 1378هـ، ص179.

(56) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص187.

(57) المصدر نفسه، ص189.

(58) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ص64.

(59) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص130.

(60) المصدر نفسه، ص131.

(61) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ص67.

(62) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص109.

(63) المصدر نفسه، ص109.

(64) المصدر نفسه، ص109.

(65) أبو ضياء عبد الرحمن بن علي ابن الديبع ت 943هـ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ج1، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، المطبعة السلفية القاهرة، 1971، ص411.

(66) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص110.

(67) المصدر نفسه، ص110.

(68) بعد وفاة السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق عام 1193م تولى السلطان أبو بكر بن أيوب أخ صلاح الدين السلطة ولُقب باسم الملك العادل.

(69) حمزة علي إبراهيم لقمان، المصدر السابق، ص73.

(70) موفق الدين علي بن الحسن الأنصاري (ت 812) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بيوني، ج1، القاهرة 1911، ص30.

(71) المصدر نفسه، ص31.

(72) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص134.

(73) محمد بن محمد زبارة الصنعاني، أئمة اليمن، ج1، تعز، 1952، ص141.

(74) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص250.

(75) المصدر نفسه، ص250.

(76) المصدر نفسه، ص251.

(77) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج1، ص405.

(78) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص135.

(79) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص111.

(80) المصدر نفسه، ص112.

(81) محمد عبد العال أحمد، المصدر السابق، ص259.

(82) بنو الرسول أو الدولة الرسولية التي أعقبت الأيوبيين في حكم اليمن، سيتم عرض دورها السياسي والاقتصادي والاجتماعي في سياق الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(83) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص23.

(84) مرغم الصوفي الملقب بالعبد الصالح وهو مرغم بن منيف الصوفي الحميري النسب من قوم أولي بأس وقوة وسلطان، يسكنون في بلاد حمير، كان يعمل بحياكة الصوف ومن هنا جاء لقبه بالصوفي، لمزيد من التفاصيل ينظر، يحيى بن الحسين، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني،تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور،مراجعة محمد مصطفى زياده،القاهرة، دار الكاتب العربي،1388هـ/1968م 1، ص411، وكذلك محمود ياسين التكريتي، هامش (5) ص 138.

(85) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص34.

(86) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص139.

(87) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج2، ص175.

(88) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص113.

(89) المصدر نفسه، ص113.

(90) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص47؛ محمود ياسين التكريتي،ص141.

(91) يحيى بن الحسين،غاية الاماني، ص47.

(92) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص113.

(93) سيد الباز العريني، مصر في عهد الأيوبيين، القاهرة، 1960، ص117.

(94) ينظر الملحق رقم (4) سلاطين الدولة الأيوبية في اليمن.

(95) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص143.

(96) محمد كريم إبراهيم الشمري، عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 476- 627هـ/ 1083-1229م، مركز دراسات الخليج جامعة البصرة، 1984، ص 243.

(97) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص294.

(98) المصدر نفسه، ص243.

(99) محمود ياسين التكريتي، المصدر السابق، ص144.

(100) خالص الأشعب، اليمن دراسة في البناء الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة 315، بغداد، 1982، ص136.

(101) ينظر خارطة الموقع الطبيعي لليمن في ملحق رقم (2).

(102) خالص الأشعب، المصدر السابق، ص138.

(103) أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل (ليدن، 1932)، ص34.

(104) شهاب الدين ياقوت بن عبد الله الحموي، (ت626هـ) معجم البلدان ج5،طهران، 1965، ص69.

(105) جميل حرب محمود، المصدر السابق،ص ص142-143.

(106) ليلى سلمان ماضي العامري، مدينة زبيد في اليمن خلال عهدي بني مهدي وبني أيوب 1159-1229م دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، العراق، 2006، ص91.

(107) أبو مخرمة، تاريخ ثغر عدن، ج2، ص20 وكذلك ينظر،

.Hill,j.c. Arab Agriculture in the Middle Age,(Loundon,1975),p. 135

(108) ليلى العامري، المصدر السابق، 92.

(109) عبد الواسع بن يحيى الواسعي، البدر المزيل للخرق في فضل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المتف، ط1، مطبعة التضامن،(القاهرة، 1345ه)، ص17.

(110) أبو العباس أحمد القلقشندي ت1418، صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج5، القاهرة، ص16.

(111) مرباط، وهي مدينة قديمة تقع على ساحل المحيط الهندي على بعد خمسة فراسخ عن ظفار وهي من أعمال منطقة الشحر شرقي حضرموت وقد سُميت مرباط لكثرة ما يربط بها من الخيل.

(112) الحموي، المصدر السابق، ج5، ص314.

(113) الواسعي، البدر المزيل، ص23.

(114) جميل حرب محمود، المصدر السابق،ص، 147.

(115) ينظر، محمد سعيد العطار، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1965، ص167.

(116) ليلى العامري، المصدر السابق، 94.

(117) المصدر نفسه،ص95.

(118) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص15.

(119) المصدر نفسه، ج2، ص102.

(120) كوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة زعيتر، ط4، القاهرة 1964، ص56؛ جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص ص147، 148.

(121) محمد كريم إبراهيم الشمري، المصدر السابق، ص338.

(122) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص36.

(123) المصدر نفسه، ص37.

(124) المصدر نفسه، ص37.

(125) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص148.

(126) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، 102.

(127) الواسعي، البدر المزيل، ص23.

(128) ليلى العامري، المصدر السابق، ص97.

(129) دائرة المعارف الإسلامية، ج14، ص345.

(130) جميل حرب محمود، المصدر السابق،ص150.

(131) المصدر نفسه، ص150.

(132) نقلاً عن محمد كريم إبراهيم الشمري، المصدر السابق، ص338.

(133) المصدر نفسه، ص339.

(134) أبو الحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1964، ص42؛ ليلى العامري، المصدر السابق، ص98.

(135) نقلاً عن محمد كريم إبراهيم الشمري، المصدر السابق، ص340.

(136) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص ص150، 151.

(137) لمزيد من التفاصيل عن النشاط الاقتصادي والاجتماعي، ينظر، عبد الفتاح قاسم الشبعي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن عصر الدولة الأيوبية 569- 626هـ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة صنعاء،2009.

(138) النواخذة أو الناخوذة هو قائد السفينة وربانها.

(139) الرنك هو الشعار أو العلامة المميزة التي تظهر في الأختام أو الدروع أو على الملابس وهي على عدة علامات منها، الكأس والسيف والدواة والنسر والهلال والصليب وزهرة الزنبق، ينظر، جميل حرب محمود، المصدر السابق، هامش(1) على ص158.

(140) القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، ص11.

(141) محمد كريم إبراهيم الشمري، المصدر السابق،ص 333.

(142) أو القيصارية وهي الأسواق المصطفة وعادة تكون مخصصة لبيع المواد الطبية والأعشاب. ينظر، لقمان، المصدر السابق، ص66.

(143) أبو مخرمة، ثغر عدن، ج1، ص ص10 و15.

(144) ليلى العامري، المصدر السابق، ص102.

(145) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص11.

(146) أبن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت) 944هـ/1537م، قرة العيون في اخبار اليمن الميمون،تحقيق محمد علي الأكوع، ط2،بيروت، دار بساط،1988، ص343.

(147) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج4، ص208 ؛ جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص159.

(148) جميل حرب محمود، المصدر نفسه، ص159.

(149) شرف الدين، اليمن عبر التاريخ،ص23.

(150) عُرف بإسم الأهواب مشتق من الأهوال لكونه يقع في موقع مكشوف أمام الرياح والأمواج وليس محمياً بألسنة رملية تُخفف من قوة الرياح القادمة عليه.

(151) ليلى العامري، المصدر السابق، ص ص107- 108.

(152) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص159.

(153) ابن مجاور جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب (ت)626هـ/1229م، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المعروف بتاريخ المستبصر، تحقيق اوسكار لوففريان، ط2، بيروت، منشورات المدينة،1986، ص142.

(154) عصام الدين عبد الروؤف الفقي، اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني الرسول، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص260.

(155) محمد كريم إبراهيم، المصدر السابق، ص332.

(156) ينظر، المركز الوطني للمعلومات صنعاء على الموقع:- http:ll www.yemen.nic.info.

(157) ليلى العامري، المصدر السابق، ص105.

(158) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص247.

(159) أبو مخرمه، تاريخ ثغر عدن، ج1، ص66.

(160) هي السيدة أروى بنت أحمد بن يعفر بن موسى الصليحي، بعد أن توفي والدها في عدن وهي طفلة صغيرة تولى تربيتها أحد أمراء الدولة الصليحية وزوّجها من ابنه المكرم وكان صداقها خراج عدن ولُقبت باسم بلقيس الصغرى تمتعت بحسن التدبير ورجاحة العقل وانتقلت من صنعاء إلى جبله وبعد أن أصيب زوجها بمرض الفالج تولت هي إدارة مُلك الدولة وقضت على كل الحركات المعارضة لحكمها وبقيت حاكمة على ما يزيد من نصف قرن 484- 532هـ قامت خلال مدة حكمها بالكثير من الأعمال العمرانية، منها تشييد جامع صنعاء وعمارة الجناح الشرقي وشق الكثير من الطرق وتعبيدها ورعاية معاهد العلم وتكريم المعلمين والمرشدين، توفيت في مدينة جبله عام 532هـ ودفنت بجامعها الشهير، لمزيد من التفاصيل عن دورها السياسي ونشاطها العمراني، ينظر، عبد الله الثور،المصدر السابق،ص ص283، 286.

(161) الواسعي، تاريخ اليمن، ص302.

(162) المركز الوطني للمعلومات صنعاء على الموقع:- http:ll www.yemen.nic.info

(163)عبد الفتاح الشبعي، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن عصر الدولة الأيوبية 569-626هـ.

(164) صباح مهدي رميض، إمارة عسير دراسة في أوضاعها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وعلاقاتها العربية والدولية 1876- 1932، دار جوامع الكلم، السلسلة الجعبرية (2) دمشق،2011،ص49.

(165) الواسعي تاريخ اليمن، ص305.

(166) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص250.

(167) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص34.

(168) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص253.

(169) صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص48.

(170) الواسعي، تاريخ اليمن، ص301.

(171) صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص44.

(172) الواسعي، تاريخ اليمن، ص303 ؛ جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص253.

(173) جميل حرب محمود، المصدر نفسه، 224.

(174) لمزيد من التفاصيل عن طبيعة التعليم وأساليبه ومناهجه ومدارسه، ينظر، ياسر حزام هزاع الخطيب، التعليم في اليمن في عهد الدولة الأيوبية 569- 616، 1174-1229،رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة صنعاء،2007.

(175) يحيى بن الحسن، أنباء الزمن، ص58.

(176) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص224.

(177) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص72؛ جميل حرب محمود، المصدر نفسه، ص224.

(178) عُرف عنه بأنه كان غاية في العقل والدهاء وحسن التدبير والكرم وشرف النفس وحسن السياسة فضلاً عن اهتمامه بالعمران والتعليم، ليلى العامري، المصدر السابق، ص80.

(179) أبو مخرمه، تاريخ ثغر عدن، ج2،ص178.

(180) المركز الوطني للمعلومات صنعاء على الموقع:- http: www.yemen.nic.info.11

(181) جميل حرب محمود، المصدر السابق، 225.

(182) محمد رضا حسن الدجيلي، الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، شعبة دراسات العلوم الاجتماعية (78)، البصرة، 1985، ص220.

(183) المصدر نفسه، ص124.

الفصل الثاني

الدولة الرسولية في اليمن

626- 858هـ / 1228- 1458م

أولاً : الدولة الرسولية وظروف وصولها إلى حكم اليمن

ثانياً : سلاطين بني رسول وقيام حكمهم في اليمن 625-803 هـ/1228 -1400م

ثالثاً : سلاطين دولة بني رسول إبان مرحلة الضعف والانهيار 803-856هـ/ 1400- 1458م

رابعاً : واجهات النشاط الاقتصادي والاجتماعي في اليمن خلال عهد الدولة الرسولية

أولاً: الدولة الرسولية وظروف وصولها إلى حكم بلاد اليمن

- النسب:

ينتسب بنو رسول إلى جدهم محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي بن رستم، الذي اشتهر بلقب (رسول) أي رسول الخليفة، أما سبب شهرته بهذا اللقب لقربه من الخليفة العباسي وحظوته باحترامه وتقديره، لذلك اختص بنقل رسائله المهمة إلى الأمراء والملوك شفوياً وذلك خشية من كشف إسرارها أو افتضاح أمرها [1].

إلا أن هناك من المؤرخين من يشكّك في صحة ما ورد في هذه الرواية، ويؤيد قرب جدهم محمد بن هارون من الأيوبيين وليست من الدولة العباسية، وهم الذين أطلقوا عليه هذا اللقب لأمانته ودقته في تنفيذ ما كلّف به من نقل الرسائل والمعلومات [2]، ويؤيد الباحث الفيفي هذا الرأي ويسنده بأن محمد بن هارون كان من المرجح أنه من أصول كردية ومن ثم فإنه بذلك يكون جزءاً من الكيان الأيوبي ذات الأصول الكردية[3].

وجاءت روايات آخرى وفي أغلبها معتمدة على مصادر يمنية عدّتهم عرب من أصول يمنية، ويبدو أن مثل هذه الروايات كانت تهدف إضفاء الشرعية الوطنية على حكمهم لبلاد اليمن، إذ ترجع نسبهم إلى جدهم محمد بن هارون بن أبي الفتح إلى جبلة بن أيهم الغساني [4] والغساسنة هم فرع من قبيلة الأزد اليمنية التي نزحت إلى شمال الجزيرة، وفي أزمنة لاحقة سكن أحفاد ابن الأيهم بلاد التركمان وتكلموا لغتهم، ومن هنا حصل الوهم (على حد وصفهم) عند بعض النسابة فجعلوهم تركمان.[5]

إلا أن الباحث الأكاديمي المتخصص بتاريخ العصور الإسلامية الوسطى في اليمن الدكتور محمد عبد العال أحمد، يشير في كتابه ((بنو رسول وبنو طاهر))[6] أن نور الدين عمر بن علي الرسولي مؤسس الدولة الرسولية يعود نسبه إلى جده محمد بن هارون بن أبي الفتح بن رستم الغساني الجفي المنجيكي التركماني من نسل جبلة بن الأيهم[7]، وهذا الرأي يميل إلى أن أصولهم ترجع إلى التركمان. لكن لا يعتد به المؤرخون اليمنيون وينفونه، ويؤكدون أن علي بن رسول وأولاده توجهوا إلى اليمن بصحبة الأيوبيين [8]، ولكن السؤال هنا، لماذا لم ترد إشارة إلى كيفية هجرة أجدادهم من اليمن، والى أي جهة كانت وجهتهم حتى صحبوا الأيوبيين عند دخولهم إلى اليمن؟، مع الإشارة إلى أن هذه الصحبة أجمعت عليها المصادر.

يصف المؤرخ بن حاتم اليامي وهو المؤرخ المعاصر للحكم الأيوبي في اليمن وعاصر بدايات تكوين الدولة الرسولية وهو أحد موظفيها، بأن كل من الأيوبيين والرسوليين يطلق عليهما لفظة (الغز)، وقد جعل كتابه بعنوان ((السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغز باليمن)) ولهذا الأمر دلالاته إذ إنه لم يشير إلى أن الرسوليين يرجعون بنسبهم إلى الغساسنة العرب [9].

وجاء في رواية آخرى عن جد الرسوليين محمد بن هارون قد استوطن العراق وعرف عنه بأنه الرجل الجليل القدر عظيم الشأن من بيت شجاعة ورئاسة وله وجاهة عند الملوك، حافظ للأسرار، وهذه الصفات قد قرّبته كثيراً من الخليفة العباسي [10]، ودخل في خدمته فجعله رسوله إلى الشام ومنها إلى مصر[11]، فكان يتحدث باسم الخليفة بغير رسالة مكتوبة منه ويعود بالإجابة للخليفة شفاهة، فكان الخليفة يطمئن له ويثق به، وهذه منزلة رفيعة لا شك في ذلك قد احتلها محمد بن هارون، لذلك أطلق عليه الخليفة (رسول الخليفة)[12]، وقد شاع عليه هذا اللقب ثم انتقل إلى ذريته من بعده.

يظهر من عرض الروايات السابقة بأنه لا يوجد اتفاق على مرجعية نسب بني رسول، ويخلص القول الباحث محمد عبد العال بهذا الصدد بأن ما ذكر، إن نسب بني الرسول يعود إلى الغساسنة وهو محض ادعاء ليس هناك ما يدعمه، وإن ذلك قد بدأ نسجه متآخراً بعد قيام الدولة ووصولها إلى سدة الحكم وبتوجيه من ملوك بني الرسول أنفسهم [13]، والمرجح ذلك أنه حصل في عهد السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول ثاني سلاطين بني رسول 647- 694هـ/1250-1297م الذي ألقت برسمه مخطوطة السيرة المظفرية، ومعنى هذا أن بني الرسول لا يرجعون إلى أصل عربي، وقد حاولت المصادر اليمنية المتآخرة نسبهم إلى الغساسنة والقصد من ذلك اكتساب حكمهم نوع من الشرعية والوطنية، وعلى هذا فإنهم يرجعون إلى أصل تركماني وهو العنصر الذي يشكّل مع الأكراد معظم أفراد جيش صلاح الدين الأيوبي، الذين توجهوا إلى مصر صحبة أسد الدين شركوه في أوآخر عهد الدولة الفاطمية، أو ضمن الإمدادات التي توالت تباعاً على صلاح الدين لدعم سيطرته على مصر بعد القضاء على حكم الدولة الفاطمية [14]. ويرجح أن يكون هذا الرأي صائباً هو تكليف سلاطين بني أيوب لبعض من أفراد أسرة بني الرسول في إدارة مناطق محددة من اليمن وليست بصفة تنازل كما ورد في بعض الروايات.

- بدايات ظهور الأسرة الرسولية على مسرح الإحداث في اليمن:-

شارك بنو الرسول في الحملة الأيوبية المرسلة إلى اليمن وقد مثّلهم فيها شمس الدين أبو الحسن علي بن رسول الذي صحب معه أولاده الأربعة وهم بدر الدين الحسن وهو الأكبر وشرف الدين موسى وفخر الدين أبو بكر ونور الدين عمر وهو أصغرهم[15]، وذلك في عام 579هـ/1183م، وإن هذا الموقف أحدث تحولاً مهماً فيما يخص الأسرة الرسولية وقد قرّبهم كثيراً من سلاطين بني أيوب الذين أسندوا لهم العديد من المناصب الإدارية والعسكرية، الأمر الذي مكّنهم من الظهور التدريجي على مجريات الساحة اليمنية [16].

كلّف السلطان الملك العزيز طغتكين بن أيوب علي بن رسول بمهمة النيابة عنه في مدينة حيس[17] وأعمالها[18]، إلا أن المعز إسماعيل بن طغتكين اختلف عن نهج أبيه فقد تعامل مع أهل اليمن بكل قسوة واستخدم سياسة التنكيل والبطش بهم، كما أساء معاملة الجند وبعض القادة العسكريين، وقد انسحب ذلك ايضاً على أبناء الأسرة الرسولية حتى إن بدر الدين الحسن بن علي رسول ظل رهينة عنده حتى نهاية حكمه عام 598هـ /1202م، إلا أن مجيء أخيه الناصر أيوب أعاد الثقة لأسرة بني رسول، فولى شمس الدين علي بن رسول إدارة حصن حب عام 599هـ/1202م وبقى كذلك حتى وفاته[19]. كما ولى فخر الدين أبي بكر بن علي بن رسول على وصاب [20]، وبدر الدين بن الحسن بن رسول على ريمه [21] وحرض[22].

وفي عام 611هـ /1214م توفي السلطان الناصر أيوب ولم يكن لديه من يخلفه على الحكم، فقام بنو الرسول بدور كبير في تهيئة الأوضاع لتولي سليمان تقي الدين الأيوبي وبايعوه بالحكم وساندوه بعد تأكدهم من صحة نسبه إلى البيت الأيوبي [23].

أظهر السلطان سليمان تقي شاهنشاه الأيوبي ثقته ببني الرسول، إلا أن هذه الثقة لم تدم طويلاً وانقلب عليهم، ولم تذكر المصادر المعنية أسباب ذلك التحول، إلا أنهم تواصلوا في إدارة بعض المناطق اليمنية التي كانوا مسؤولين عن إدارتها، لكنهم في الحقيقة دخلوا في خلافات مع سليمان ثم سادت العلاقات السيئة بينهما، ففي رمضان عام 611هـ/الموافق كانون الأول 1215م، حدث خلاف بين سليمان وكبار قادته العسكريين استغل ذلك ولاة بني رسول ومنهم بدر الدين الحسن وفخر الدين أبي بكر، وأظهروا ميلهم الى مكاتبة الإمام عبد الله بن حمزة الزيدي الذي استقبل الفارين من جند سليمان الأيوبي، الأمر الذي شجّع الإمام أكثر على مهاجمة مدن المهجم[24] وعدن، إلا أن القوة الأيوبية تصدت لها، ولكن مع ذلك فان مثل هذه الانتصارات قد عززت مكانة وقوة جيش الإمام الزيدي حتى بلغت طموحاته الاستيلاء على اليمن.

ترتب على ذلك إضعاف السلطة الأيوبية في اليمن ووصلت أخبار ذلك إلى السلطان الملك العادل الأيوبي الذي أصدر أوامره إلى ولده الكامل محمد (الملك المسعود يوسف) صاحب مصر في تجهيز حملة على اليمن هدفها إعادة الأمن والاستقرار إليها.[25]، وعند وصوله إلى اليمن استقبله أمراء بني الرسول بدر الدين الحسن بن علي بن رسول ونور الدين عمر وشرف الدين موسى وفخر الدين أبي بكر، وقد أحسن المسعود استقبالهم وأكرمهم وخلع عليهم الخلع السنية.[26] ثم أهدى إلى بدر الدين شربوشاً وحصاناً مسرجاً وألف دينار ذهب ثم ولاه على مدينة القحمه [27]، ثم ولى عمر بن علي على مدينة صهبان، ومن هنا ظهرت بدايات الإدارة الفردية لبني رسول.

قدّم بنو الرسول إسناداً كبيراً للملك المسعود في مهمته بإعادة السيطرة الأيوبية وفرض سيادته على بعض المدن اليمنية ومنها تعز ولا يكاد يمضي عام واحد على وجود الملك المسعود في اليمن إلا واستعاد هيبة السلطة الأيوبية، وبعدها قدّمت القبائل اليمنية طاعتها وولاءها له، وهو بدوره أغدق عليهم الخلع والأموال والهدايا [28].

شهدت البلاد حالة من الهدوء والاستقرار النسبيين، وتعزو بعض المصادر حالة الهدوء تلك إلى تراجع المقاومة الزيدية بعد وفاة الإمام عبد الله بن حمزة عام 614هـ/1217م، ومن ثم تولي ابنه عز الدين محمد الإمامة ولم يكن بعد قد وصل إلى حالة من النضج والخبرة التي كان يتمتع بها والده، فضلاً عن حالة الانقسام التي شهدتها المعارضة الزيدية بقيام دعوة يحيى بن المحسن بالإمامة [29]، لا شك أن هذه المتغيرات قد أضعفت قوتهم في مواجهة مقاومة القوات الأيوبية.

جاءت الفرصة المناسبة لتكريس نفوذ بني الرسول في اليمن على أثر القرار الذي اتخذه الملك المسعود بالعودة إلى مصر عام 620هـ/1223م، حيث أبدوا خلال مدة غيابه عن اليمن مقدرة فائقة في تسيير أمور الدولة والذود عنها من الأخطار التي كانت محدقة بها وفي مقدمتها إخماد ثورة ((مرغم الصوفي))[30]، وصد هجمات القوات الزيدية على مدينة صنعاء ودخولهم معهم في معركة (عّصِر) الحاسمة (التي مرت تفاصيل أحداثها في سياق الفصل الأول).

يظهرمن سياق الأحداث التاريخية أن طبيعة تنامي قوة بني الرسول قد أخذت بالتصاعد والزيادة الأمر الذي ولد الخشية لدى الملك المسعود وهو في مصر الذي قرّر العودة ثانية إلى اليمن عام 624هـ/1226م، ليقف على حقيقة أهداف بني الرسول وطموحاتهم، لذلك عمل على وضع حد لها حيث القي القبض عليهم باستثناء نور الدين بن عمر الذي كان يثق به ولا يشك بإخلاصه له [31]، ويصفه الخزرجي بأنه من أهل العزم والحزم والجود كريماً سريع النهضة وكان محارباً لا يسأم الحرب وصاحب حلم ودهاء[32]، ولهذه الصفات عيّنه الملك المسعود أستاذ داره وأتابك عسكره [33].

بحث الملك المسعود مع نور الدين بن عمر مسألة أنابته على مُلك اليمن بعد أن قرّر العودة إلى مصر، إلا أن نور الدين اعتذر واظهر عدم استعداده لقبول هذه المهمة الشاقة، وذلك خشية من إخوته وغدرهم به لكونهم اكبر منه سناً ويتمتعون بخبرة وتجربة معروفة في أمور الحكم، كما أبدى استحالة القيام بدوره كما يريد في ظل وجودهم في اليمن ومن ثم سيكون خاضعاً لهم شاء أم أبى ومنفذاً لرغباتهم وإمرتهم، لذا جاءت بعض الروايات بان الملك المسعود قبض عليهم وأودعهم السجن ثم أرسلهم قيد الاعتقال إلى مصر[34]. وعند ذاك أصبحت فرصة عمل نور الدين بن عمر يسيرة في إدارة الدولة، وكانت تلك مرحلة هامة وحاسمة في تاريخ دولة بني الرسول في الوصول إلى الحكم، وتحقيق الاستقلال ومن ثم توحيد البلاد تحت سيطرتهم.

ومن طبيعة العرض السابق نصل إلى خلاصه مفادها إن وصول بني الرسول إلى اليمن كان قد تم في غضون حملة الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين بن أيوب عام 579هـ/1183م، وإن طغتكين قد ولّى أباهم علي بن رسول على مدينة حيس وأعمالها، لكن حقيقة الأمر أن ظهورهم الواضح على مسرح الإحداث اليمنية قد حصل بشكل تدريجي متصاعد من الدور الثانوي في عهد المعز إسماعيل بن طغتكين وأخيه الناصر أيوب، ثم احتلوا مكانة متوسطة منذ بداية عصر سليمان شاهنشاه الأيوبي، أما في عهد المسعود فقد ازدادت مكانتهم وذاع صيتهم، لا سيما بعد تحقيق الانتصارات على القوى الخارجية المعارضة إلى الحكم الأيوبي في اليمن، إلا أن الملك المسعود نكّب بهم وحجّم أدوارهم خشية تزايد نفوذهم (كما تم عرضه في سياق الأحداث) باستثناء الأمير نور الدين بن عمر[35]، الذي أصبح له شأن آخر والذي مهّد لقيام الدولة الرسولية في اليمن التي بقيت في دست الحكم قرابة قرنين وثلاثة عقود من الزمن.

ثانياً: سلاطين بني الرسول(ص) وقيام حكمهم في اليمن

- نور الدين عمر بن علي بن رسول (المنصور) 629-647هـ/1229- 1250م

بعد مغادرة الملك المسعود أرض اليمن توجه إلى مكة حيث وافته المنية هناك عام 626هـ/1229م[36]، وبعد تلقي نور الدين عمر خبر الوفاة أرسل إلى الملك الكامل يعزيه ويجدد ولاءه للأيوبيين ويؤكد لهم مواصلة مساندته لهم بصفة نائب لهم، كما بعث بالهدايا والتحف والأموال مصداقاً لولاياتهم، الأمر الذي طمأن الملك الكامل في مصر، وعدّ ذلك دليلاً على الطاعة والتبعية وحسن الولاة، لذلك أقرّ له بالنيابة على حكم اليمن[37].

يظهر أن الملك الكامل قد استحسن فكرة بقاء نور الدين نائباً عنه في اليمن بسبب ظروف بلاده وما تواجهه من أزمات داخلية قد سبّبت في تصدع البيت الأيوبي الحاكم في مصر أو حدة المخاطر الخارجية المتمثلة بتهديد الصليبيين من جهة والخوارزميين من جهة ثانية الذين تحالفوا مع الملك المعظم [38].

استغل نور الدين عمر بن علي بن رسول تلك الظروف القاهرة التي مرت بها الدولة الأيوبية في مصر والشام وما حظي به من ثقة الملك الكامل وانضمامه إلى جانبه فشرع في تحقيق مطامعه وطموحاته في الاستقلال بمُلك اليمن وكان حاكماً غير متسرع في خطة التنفيذ[39]، بل أخذ يحقّق ذلك بخطوات هادئة ومرحلية، فبدأ العمل في التمهيد لعقد سلسلة من الاتصالات مع رؤساء العشائر ثم وضع الأشخاص الذين يثق بهم في إدارة الحصون والأماكن الحساسة في البلاد [40].

بدأ ذلك تطبيقه في تهامة وبقية المناطق اليمنية الأخرى، ثم كانت جهته فيما بعد صنعاء فدخلها في ذي القعدة عام 627هـ/ايلول1230م، ثم ولّى عليها ابن أخيه أسعد الدين محمد بن بدر الدين حسن الرسولي، وعاد هو إلى حصن تعز لإحكام سيطرته عليه حتى استولى عليه من غير قتال عام 628هـ/1231م[41].

حاول نور الدين عمر بن علي إنهاء نفوذ حكام المدن والحصون الذين كانوا على ولاء للحكم الأيوبي فيما سبق ليؤكد طموحه في تحقيق الاستقلال لنفسه [42]، لذلك أحكم قبضته على المدن اليمنية فتفرغ لمواجهة القوى الزيدية في شمال اليمن فتدخل بنو حاتم مستغلين وجوده في صنعاء عام 628هـ/1231م وعقدوا صلحاً بينه وبين الأشراف الزيدية الذين مثلهم كل من عماد الدين يحيى بن حمزة والأمير شمس الدين أحمد بن عبد الله بن حمزة [43].

أظهر الأئمة الزيدية رغبتهم في أن يستقل نور الدين عمر بن علي في اليمن وخلع طاعته لبني أيوب، وأنهم على استعداد في معاونته إذا ما قامت القوات الأيوبية بمحاولات استعادة سيطرتهم على اليمن منه ولضمان سريان الاتفاق واحترامه، تم الاتفاق بين الطرفين على تبادل الرهائن، وكانت من الشخصيات الهامة، حيث رهن بنو حمزة الزيدية الشريف صارم الدين داود بن عبد الله، وقدّم نور الدين عمر ولده المظفر يوسف، وارتضى بان يتولى بنو حاتم مهمة الاحتفاظ بالرهائن من كلا الطرفين في حصن ذمرمر[44]، وبعد ذلك تم تبادل الهدايا والهبات بينهم أما بنو حاتم الذين كان لهم الفضل في الوصول إلى هذا الاتفاق قد منحهم نور الدين عمر كل ما كان يطمحون فيه.

استقلال اليمن تحت حكم نور الدين عمر بن علي

بعد أن تمكن الأمير عمر من احتواء القوى المناهضة له سواء أكان ذلك بالقوة أو باستخدام سياسة الاتفاقات الثنائية، لا سيما تلك التي حصلت مع الإمامة الزيدية، أصبح ذا سيطرة شبه كاملة على البلاد، وأصبح بإمكانه استكمال تحقيق أهدافه بخلع طاعته لبني أيوب وإعلان استقلاله في اليمن[45]، وبعد عامين من العمل المخطّط المتواصل الذي قام به نور الدين عمر الذي اتخذ من مدينة تعز عاصمة لدولته، وبقيام دولته تلك سقطت دولة الأيوبيين في اليمن التي دام حكمها زهاء ستين عاماً (569-628هـ) (1174- 1231م)، حكم نور الدين عمر سنتين منفرداً بوصفه نائباً لهم في 626هـ /1229م، حتى أعلن استقلاله عام 628هـ /1231م[46].

سعى نور الدين عمر إلى استكمال متطلبات الاستقلال فأمر في عام 630هـ/1233م ضرب السكة (العملة) باسمه وإقامة الخطبة على المنابر في الجوامع والمساجد في شتى أنحاء البلاد [47]، فكتب في عام 631هـ/1234م إلى الخليفة العباسي المستنصر بالله في بغداد يخبره بأنه وحّد البلاد وخرج على طاعة الأيوبيين ولهذا أخذ يلتمس فيه قبول هديته التي بعثها له[48]. وان يبعث له تقليداً وتشريفاً بالسلطة والنيابة عنه ذلك جرياً على عادة الملوك والسلاطين التابعين لدار الخلافة فوصله التقليد الشريف عام 632هـ /1235م عن طريق البحر عبر مدينة البصرة، وبذلك يكون قد استكمل مظاهر استقلال دولته الجديدة، وبذلك أضفى نوعاً من الشرعية على حكمه [49]، وبذلك دخلت اليمن حقبة تاريخية جديدة في عهده.

أطلق نور الدين عمر بن علي على نفسه لقب (المنصور)[50]، فعمل بما وسعه من أجل توحيد أجزاء اليمن تحت سيطرته، لذلك فإنه واجهه مخاطر خارجية وداخلية جمة في مقدمتها رد فعل السلطان الكامل الأيوبي الذي عدّه مغتصباً جزء من هذه الدولة، لذا قرر إرسال حملة عليه انطلقت عام 629هـ/1232م، لكن نور الدين عمر وبما عرف عنه من حنكة وقيادة عسكرية وقد باغت الحملة وأرسل قوة لمواجهتها في الحجاز، ودارت معركة ضارية مع قوات الأيوبيين، واستطاع على إثرها دخول مكة بعد أن تشتت الحملة الأيوبية وذهب قسم كبير من قواتها إلى مدينة ينبع للاحتماء بها [51].

لا شك أن سيطرة نور الدين عمر على مكة جعلته يضع خطاً دفاعياً لحكم بلاده في اليمن، ولم تكن تلك المواجهة مع الأيوبيين الوحيدة بل تبعتها حملات عديدة في الحجاز، إلا أنها لم تظهر تقدم القوات الأيوبية وظل محافظاً على تفوقه العسكري في الحجاز [52].

أما الأخطار الداخلية فلم تكن بعيدة عن تهديد حكمه، مستغلة حالة انشغاله بالحروب والحملات العديدة التي أرسلها إلى الحجاز لمواجهة القوات الأيوبية هناك، ومنها تمردات القبائل اليمنية المتكررة، أو الساخطون من الجند وقادة الجيش على حكمه أو الذين لهم أطماع من أفراد البيت الرسولي، ولكن هؤلاء كانوا يستندون في تعزيز موقفهم إلى جانب القوى الزيدية، التي نقضت عهد الصلح المبُرم معه واستغلت مواجهته مع القوات الأيوبية في الحجاز فسيطروا على حصن كوكبان واستولوا على ما فيه من خيول وماشية [53].

أغضب هذا التصرف نور الدين عمر، لذلك جهّز حملة لتأديب الشريف الزيدي يحيى بن حمزة، ونجح في استعادة كل الأراضي التي استولى عليها الشريف شمال اليمن، وذلك عقوبة لهم لنقضهم بنود الصلح الموقع معه [54].

دارت سلسلة من المواجهات ما بين قوات نور الدين عمر والشريف الزيدي حصل فيها نور الدين عمر على العديد من القلاع والحصون، حيث خرّب الكثير من مزارعهم وأتلفها، كان يقود بعض الحملات بنفسه واحياناً يكلف ابن أخيه اسعد الدين أو غيره من كبار القادة [55]، حتى قُدر له أن يفرض سيطرته على البلاد وعند ذاك أرسل أكثر من حملة إلى بلاد حضرموت [56] واستولى على حصن الكيم وأعاد السيطرة على حصن حلب قرب مدينة ثلا إلى الشمال من حصن كوكبان [57].

عاد ثانية إلى مدينة تعز وفي طريق عودته أُخبر بتمرد علوان الجحوري في مدينة المهجم عام 647هـ/شباط 1250م، فقرّر التوجه نحوه حتى وصل إلى مدينة جند حيث دبُرت مؤامرة عليه وقُتل على يد أحد مماليكه في ذي القعدة عام 647هـ /1250م بعد حكم دام أكثر من عشرين عاماً قضى معظمها في حروب مستمرة من أجل إرساء دعائم الدولة الفتية وتثبيتها [58]، وخلّفه ابنه الملك المظفر يوسف بن عمر [59].

- **يوسف بن عمر (المظفر) 647هـ - 695هـ /1250- 1295م**

أحدث مصرع نور الدين بن عمر بن رسول هزه عنيفة في بلاد اليمن وقد عرّض دولة بني الرسول الناشئة إلى الانهيار، فلم تكن الظروف مهيأة لإقامة خلف له، لعدم وجود أحد من أبنائه معه في مدينة جند عندما حصل حادث مصرعه حتى يمكن مبايعته بالسلطنة، فابنه الأكبر المظفر يوسف كان نائباً له في مدينة المهجم، وابنه المفضل قطب الدين ولاه على مدينة المحالب، إلا أنه آثر أن ينيب عنه فيها وبقي مع والدته وأخوته في مدينة تعز[60].

يظهر أن نور الدين عمر لم يحسم في حياته مشكلة من يخلفه في حكم الدولة لا سيما بعد القرار الذي اتخذه بإبعاد ابنه الأكبر المظفر يوسف عن ولاية العهد، وعيّن مكانه أخاه الأصغر غير الشقيق المفضل واستخلف له العسكر استجابة لرغبة زوجته أم المفضل بنت جوزه، وأبعد المظفر يوسف إلى تهامة ليتولى هناك إدارة مدينة المهجم، وبذلك يكون بعيداً عن مركز إدارة الدولة، وجعل هذا الإجراء المظفر يقرّر الذهاب إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله في العراق، فلما بلغه مصرع والده شقى عليه وأثنى عزمه عن الخروج من اليمن [61].

تطورت الأحداث الداخلية في البلاد وسارت باتجاه صراع أسري عنيف ليست دائرته بين الأخوة الأشقاء فقط، بل بينهم وبين أبناء عمومتهم، لا سيما مع فخر الدين أبي بكر بن الحسن بن علي بن رسول وشقيقه اسعد الدين محمد والي مدينة صنعاء[62].

استعد المظفر يوسف للمنازلة والمنافسة على الحكم لا سيما وأنه يرى نفسه أحق من غيره به لكونه الابن الأكبر للسلطان منصور وله القدرة على إدارة شؤون الدولة، وعلى هذا الأساس كانت أولى خطواته تجميع قواته واستمالة رؤساء القبائل إليه لكي يبدأ مرحلة صعبة في تصفية خصومه سواء أكانوا من أسرته أو تحركات القوات الزيدية التي استغلت الوضع المضطرب التي شهدته الدولة الرسولية[63].

كانت بدايات تحرك المظفر يوسف في تصفية خصومه داخل الأسرة والقضاء على نفوذهم في بعض المدن اليمنية، فقصد مدينة زبيد لإنقاذها من سيطرة ابن عمه فخر الدين أبي بكر، وتحقق له ذلك باعتقاله في ذي القعدة عام 647هـ/1250م، وعند دخوله استُقبل استقبالاً حافلاً فمدحه الشعراء وأقسم أهل المدينة والقوات العسكرية فيها بالولاء له، لذا انعم على رؤساء القبائل فيها بالهبات والهدايا تثميناً لمواقفهم المساندة له[64].

تحرك المظفر يوسف باتجاه المناطق الجنوبية من اليمن، بعد أن أحكم سيطرته على المدن التهامية فكانت وجهته إلى ميناء عدن الهام ولحج وإبين، وبعدها قرّر التوجه إلى مدينة تعز عاصمة الدولة ومقر إقامة المفضل وأخوته ووالدتهم، ولم يكن باستطاعة المفضل المواجهة لاعتبارات عديدة منها ضعف إمكاناته العسكرية، مقارنة بما يمتلكه المظفر يوسف فضلاً عن ضعف الإسناد الشعبي له، لكون حقيقة أخيه المظفر هو الأحق بالحكم وهو الابن الأكبر للسلطان المنصور، لذلك ترك المدينة وذهب إلى حصن الدملوه، فدخل المظفر المدينة دون مقاومة تذكر في ربيع الأول عام 648هـ /1251م [65]، أما المفضل وأسرته فظلوا متحصنين حتى أواخر عام 650هـ /1253م، إلا أنهم استسلموا في نهاية الأمر لشعورهم بعدم جدية بقائهم في الحصار [66]، وبذلك سارت الأمور لصالح السلطان المظفر يوسف وتقدّم خطوة هامة باتجاه تثبيت سلطته على الدولة.

بعد تلك المجهودات الكبيرة التي قدّمها المظفر يوسف في تصفية خصومه داخل البيت الرسولي من أخوته وأبناء عمومته، لا سيما أسعد الدين، توجه بعد ذلك لتصفية الأوضاع غير المستقرة مع الإمامة الزيدية بعد أن وصل إلى مرحلة متقدمة من النضج والتخطيط الحسن وحكمة التنفيذ. لذلك استغل وبذكاء واضح الخلاف الذي نشب بين الأئمة الزيدية أنفسهم وتحديداً بين الإمام أحمد بن الحسين والأشراف من بني الحمزة، وبعد أن اشتدت حلقة هذا النزاع طلب أحد أبناء بني الحمزة اللجوء إلى السلطان المظفر يوسف وطلب مساعدته ضد الإمام [67].

لم يتردد المظفر في اغتنام هذه الفرصة فقدم مساندته له وأرسل له قوة من مدينة صنعاء في شهر ذي الحجة عام 651هـ/كانون الثاني 1254م، فزحفت تلك القوة إلى مدينة صعده لمواجهة قوات الإمام فأحكموا الحصار عليها حتى سقطت بأيديهم، فنهُبت منها أموال جمة وأُخذت منها غنائم عظيمة منها سبعين رأساً من الخيل [68].

وبذلك تمكن المظفر وبمساعدة القوى المناهضة للإمام من بسط نفوذه على قسم كبير من المناطق الشمالية التي كانت تابعة له، ثم واصل التعاون مع بني الحمزة ضد الإمام أحمد بن الحسين، فأنعم عليهم بالهدايا والهبات والخلع والخيول و أدى هذا الأمر إلى استمرار موالاتهم له وحملهم على الخروج على طاعة الإمام [69]، ودعاهم بعدم الاعتراف بإمامته وهذا أمر خطير فيما يخص الإمامة حيث عمل المنشقون على مبايعة الحسن بن وهاس إماماً عليهم وبذلك أصبح في اليمن إمامان في وقت واحد وهو ما يعُرف (بتعارض الإمامة)، و يتطلب هذا الأمر الانفراد بالإمامة ليكون أماماً واحداً سواء أكان بالسلم أو بالحرب [70].

استغل المظفر يوسف هذا الانقسام في صفوف الإمامة الزيدية فساند بني حمزة في عملية انشقاقهم في مواجهة الإمام وتم قتله في صفر عام 656هـ/شباط 1258م[71]، وبذلك يكون المظفر يوسف قد تخلص من منافس خطير كان يهدد سلطته.

أما على صعيد خلافه مع ابن عمه أسعد الدين الذي تحالف مع بعض قوى الزيدية فهي مشكلة أخرى عرقلت مسيرة سلطته في البلاد التي استمرت قرابة ثلاثة عشرة عاماً حمل أسعد الدين لواءها منذ أواخر عام 645هـ/1248م، حتى قُبض عليه وأودع السجن عام 658هـ/1260م[72].

تنفس المظفر يوسف الصعداء بعد التخلص من خطر ابن عمه أسعد الدين من جهة واستمالة بني حمزة من الطرف الزيدي إلى جانبه من جهة ثانية، وتعيين عدد من الولاة الذين يعتمد عليهم على إدارة المدن اليمنية لا سيما مدينة صنعاء، بعدها قرّر الذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وقد صحب معه كبار قادة الزيدية من بني حمزة [73] في عام 659هـ/[74] 1261م، فدخل مكة متضرعاً عاري الرأس والجسد حتى قضى الطواف والوقوف في جبل عرفة [75].

بعد عودته من أداء فريضة الحج، خرج صارم الدين داود على أخيه الإمام الزيدي الإمام عز الدين بن محمد وحمل لواء المعارضة له، رافضاً خطوات أخيه في التعاون مع المظفر يوسف، وقد بدأ في الوقت ذاته إثارة المشكلات في منطقتي حجه ومخلافه، الأمر الذي دعا المظفر يوسف بالوقوف ضده وإنهاء تمرداته المستمرة[76].

يبدو أن طبيعة الموقف الزيدي تجاه السلطان المظفر يوسف لم يكن ثابتاً ومستقراً، إذ كانوا يحالفونه حيناً ويناصبونه العداء حيناً آخر [77]، فقد تجدد العداء ثانية بعد مبايعة الشريف الزيدي إبراهيم بن تاج الدين إماماً لهم عام 670هـ /1272م، وبدأ يهدد صنعاء الأمر الذي دعا المظفر من إعداد حملة كبيرة عليه اضطرته إلى الانسحاب من صنعاء، ومع ذلك استمرت الحملات ما بين الطرفين من عام 670-672هـ/1272- 1274[78]، انتهت بتوقيع الصلح بينهما، ولم يكن هذا الصلح في حقيقته إلا هدنة مؤقتة حتى عادت تحركات القوات الزيدية في ذمار، اضطرت قوات المظفر يوسف من مهاجمتها ثانية وأوقعت فيها خسائر جسيمة، وعند ذلك وقع الإمام في أسر قوات المظفر يوسف وعاد المظفر إلى مدينة تعز ومعه الإمام أسيراً وأودع السجن وبقي فيه حتى وفاته في صفر عام 683هـ /نيسان عام 1284م[79].

ظلت الأوضاع ما بين المظفر والقوى الزيدية متذبذبة يتحين كل طرف بالطرف الآخر الفرصة للإيقاع به، أو استغلال الخلافات والمشكلات الداخلية لكل واحد منهم لا سيما استغلال المظفر للخلافات الزيدية فيما بينهم التي أضعفتهم كثيراً، ولم يشكلوا بعد ذلك خطراً على دولة بني الرسول[80] من الناحية الفعلية.

لكن بعض فصائل القوى الزيدية تواصلت في مواجهاتها مع قوات المظفر يوسف، الذي كلّف أولاده في قيادة الحملات العسكرية على القوات الزيدية ومنهم الملك الواثق الذي استغل الخلاف الدائر بين الأئمة الزيدية ونتج عنه انقسام فيما بينهم الأول بزعامة الإمام يوسف وعمه الشريف صارم الدين والثاني بزعامة الإمام المطهر بن يحيى، وقد تغلب الطرف الثاني بمساندة الملك الواثق، الأمر الذي مكّنه من استنزاف قوات بني حمزة وإضعافهم، لذلك تقدم زعيمهم صارم الدين داود بالمكاتبة مع السلطان طالباً فيه عقد الصلح بينهما وعقد في عام 684هـ /1285[81]، لكن سرعان ما عاد صارم الدين داود في التحالف مع الإمام المطهر بن يحيى وشكّلا قوة كبيرة لمواجهة قوات السلطان المظفر الذي عجز ولده الملك الواثق في مواجهتها، فكلّف عندئذ ولده الملك الاشرف بإدارة المواجهة الجديدة مع القوات الزيدية وقد انضمت إلى صفوفه قوات عديدة من القبائل فسارع الصارم إلى الانسحاب والتراجع مضطراً لطلب الصلح مع الملك الأشرف وعقده في عام 687هـ حزيران/1288م[82].

استبدل المظفر يوسف ابنه الأشرف بولده الآخر الملك المؤيد لإدارة الصراع مع القوى الزيدية وسيطر على مواقع عديدة كانت تحت سيطرة الزيديين وعاث بها الخراب والدمار، وهذا الإجراء بعث الاستياء في نفوس السكان الذين نفروا منه، لذا أعاد المظفر يوسف ولده الملك الاشرف ثانية إلى البلاد الزيدية بهدف تهيئة الأجواء للمصالحة وعقد الصلح معهم، وحصل ذلك في شهر محرم عام 694هـ/تشرين الثاني 1294م، وبعقد هذا الصلح ساد نوع من الهدوء في أرجاء البلاد [83]. حتى أعلن عن وفاة السلطان المظفر يوسف في رمضان عام 694هـ[84]/حزيران 1295 في مدينة الجند [85].

وهكذا استطاع المظفر يوسف أن يعيد للدولة الرسولية وحدتها وأمنها واستقرارها يبسط نفوذه على كافة أرجاء بلاد اليمن الطبيعية بشمالها وجنوبها وهي من الحالات القليلة في التاريخ اليماني التي توحدت فيها بشكل كامل على مدى الحقب التاريخية المختلفة ولهذا لُقب باسم ((تبع الأكبر))[86].

- عمر بن يوسف (الأشرف الأول) 693-694هـ/1295- 1296م

استخلف السلطان المظفر في نهايات حكمه ولده الأشرف وولاه ولاية العهد وقيادة العسكر عام 694هـ[87]/1296م، على الرغم من أن أولاده الآخرين الواثق وإبراهيم والمؤيد وداود قد شاركوا في قيادة الحملات السابقة على المعارضين لحكم والدهم (كما تم عرضه)، وعندما بلغ المظفر السن المتقدم من العمر الخامسة والسبعين خشي من وقوع الفتنة ما بين أولاده، لذلك خص ولده الأشرف بالسلطة لما يتمتع به من شخصية مميزة ومقربة منه [88]، لذلك أصدر تقليداً له في جمادي الأولى عام 694هـ /1295م [89].

مارس الملك الأشرف صلاحيات عديدة في إدارة الحكم فيقول بذلك المؤرخ ابن حاتم في كتابه السمط ((ثم انضافت الأوامر والنواهي والحل والعقد والبسط والقبض في البر والبحر والأقاليم والسواحل والأمصار والحصون والثغر وتدبير الحروب وتجهيز العساكر إلى مولانا السلطان الأعظم الملك الأشرف))[90].

أما والده السلطان المظفر فقد تفرغ من مسؤوليات الحكم وخلد إلى الراحة، ولم يشرف إلا على بعض الأمور الهامة التي تتطلب تدخله بصورة مباشرة، لذلك يتشاور مع ولده الأشرف.

نال الملك الأشرف تأييد العديد من القبائل وإسنادها وشرع في إعادة استقرار البلاد وإعمارها، وبذلك سادت حالة من الهدوء النسبي في البلاد، إلا أن أخاه المؤيد داود الذي تولى إدارة ولاية حضرموت قد انتزعته الغيرة من أخيه وأعد عدته وحشّد قواته لانتزاع السلطة من أخيه الاشرف عمر فتقدمت قواته وسيطر على المدن والحصون حتى مدينة عدن [91]، وعندها أخذ يخطّط في الوصول إلى لحج والاستيلاء عليها[92].

استاء الأشرف عمر من تصرف أخيه وخروجه عليه ولم يجد بداً من مواجهته والقضاء عليه، فسيّر له جيشاً معززاً بقيادة ابنه الملك الناصر واتبعها بحملات عديدة آخرى، حتى حصلت المواجهة الحاسمة في قرية الدعيس في شهر محرم 665هـ[93]/تشرين الثاني 1295م، وقد انتهت بهزيمة قوات المؤيد وأسره [94].

وبالقضاء على هذا التمرد يكون السلطان الأشرف قد تخلص من أهم الأخطار التي واجهته في مستهل حكمه، ثم بعد ذلك شاعت حالة من الاستقرار في البلاد، إلا أن مشيئة القدر لم تمهله طويلاً حتى توفي بعد مضي عام واحد على هزيمة أخيه في شهر محرم عام 696هـ [95]/تشرين الثاني 1296م.

- **داود بن يوسف (المؤيد) 696-709هـ/1296- 1321م**

كانت وفاة الأشرف مفاجئة، ولم يكن معه أحد من أبنائه الكبار ليعهد إليه الحكم، حيث كان ابنه الأكبر الناصر محمد نائباً له في مدينة القحمه، والعادل صلاح الدين في صنعاء، لذلك فقد اتفق كبار رجال الدولة وأهل الحل والعقد على ولاية المؤيد فمهّدوا إليه وهو في السجن من يوم حدوث معركة الدعيس، ثم أطلقوا سراحه وبايعوه بالحكم [96].

ويبدو أنهم بايعوه بالحكم ظناً منهم إزالة ما حصل من سوء معه بسبب موقفهم من أخيه الأشرف وأنه سيعفو ويصفح عنهم، وكان في مقدمة من بايعه الصاحب حسام الدين بن أسعد بن موسى العمراني وزير أخيه الأشرف فاجتمع به وحلف له الأيمان واستخلف له الجند والأمراء وأعيان الدولة فلم يختلف عليه منهم اثنان وحصل على الاتفاق والسداد [97].

وبعد أن تسلم السلطان المؤيد الحكم في شهر محرم 696هـ/1296م[98]، عمل على مراسلة كتبته وعامليه على مدن اليمن كافة، بعد أن دخل في طاعته كل من ولدي أخيه الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف وأخيه العادل وبايعاه بالسلطة فأمنهما وأكرمهما وعمل على إزالة الخلافات بينهما بل عزّزها بمصاهرة عائلية حيث زوّج ولديه الظافر فرعيس والمظفر ضرغام حسن من ابنتي أخيه الأشرف [99].

وعلى الرغم من تلك الخطوات التي اتخذها بهدف زيادة الاستقرار، إلا أنه عمل على تطهير كل أجهزة الدولة من رجال أخيه وكبار موظفيه، ثم تقريب رجاله وأتباعه، وخصّص لهم المناصب الرفيعة العالية[100]. ويبدو أنه كان محقاً في ذلك، حيث سرعان ما خرج عن طاعته وفي مقدمتهم أخيه المسعود الذي أعلن عصيانه في تهامة واستولى على العديد من البلدان التابعة له [101]، وذلك في أواخر عام 696هـ/1297م معرباً عن طموحاته الشخصية في الحكم من جهة، وبدفع من خصوم السلطان المؤيد من جهة ثانية، لذلك زحف المسعود بجيوشه إلى مدينة حرض شمال تهامة وانضم إليه الكثير من أتباعه [102].

استخدم السلطان المؤيد أسلوب المهادنة مع أخيه المسعود وقرّر أن يحسم طبيعة الخلاف بالطرائق السلمية إلى الطاعة والولاء وله الأمان في اقطاعاته وملكه ووعده خيراً في ذلك، إلا أن المسعود لم يستجب إلى تلك الدعوات، فما كان أمام السلطان المؤيد من إجراء إلا مواجهته والصدام معه باستخدام قوة العسكر، فأرسل له حملة بقيادة أخيه المنصور أيوب وبرفقته ولده الملك الظافر عيسى وزود الحملة بثلاثة فيلة وكان لاشتراكها أكبر الأثر في إضعاف معنويات جنود المسعود، وعندئذ

أيقن المسعود بأن لا جدوى من منازلة قوات أخيه واعترف بالأمر الواقع ودخل في طاعة أخيه ولم يدخل في حرب معه، إلا أن السلطان المؤيد على الرغم من ذلك أصدر أمر اعتقاله مع ولده أسد الإسلام في حصن تعز في شهر محرم عام 697هـ/أيلول 1297م[103]، وبقيا في السجن مدة عام كامل، ثم أفرج عنهما وأسكنهما في مدينة حيس وقرّر لهم حامية ومُلك لهم فيها.[104]

وبالقضاء على تمرد أخيه المسعود قد هدأت الأوضاع في البلاد، إلا أن هناك تمردات قد حصلت في مناطق مختلفة سواء في صنعاء أو في يريم أو في جنوب مدينة ذمار ومأرب، إلا أنه بحنكته وكفاءة قادته ومنهم ابنه المظفر ضرغام الدين قد تم القضاء عليها.[105]

أظهر السلطان المؤيد عزمه في القضاء على كل الحركات المناوئة لحكمه وفي مقدمتها حركات الأئمة الزيدية الذين تظاهروا في البداية بالطاعة للمؤيد وعقدوا صلحاً، لكنهم أظهروا خلافهم معه، الأمر الذي اضطره إلى مواجهتهم في صنعاء في شهر ذي القعدة من عام 697هـ/1298[106]، فتراجع الأئمة الزيدية عن موقفهم وجدد البعض منهم ولاء الطاعة له، لا سيما أن السلطان المؤيد قد اتفق معهم على أن يرسل مبلغاً قدره عشرين ألف دينار سنوياً إليهم نظير التزامهم بالطاعة وإقرار الأمن في مناطقهم وحماية المسافرين والتجار والعابرين في حدودهم وعدم التعرض لأحد بسوء، إلا أن الزيدية خالفوه لقلة المبلغ المقدم إليهم وطالبوه بأن يكون المبلغ مئة ألف دينار، لكن المؤيد لم يوافقهم على قيمة هذا المبلغ ورفع قيمة المبلغ السابق إلى ثلاثين ألف دينار[107].

تعززت علاقات السلطان المؤيد مع الأئمة الزيدية بعد ذلك وأجزل العطاء والهبات لهم فرافقوه في دخوله إلى مدن تعز وزبيد، وكان الشريف الزيدي علي عبد الله هو أول من دخل في طاعة المؤيد وقد نال بمكانة كبيرة عنده وأغدق عليه بسخاء وفير، وبعد وفاته انتهج ولده عماد الدين إدريس سلوك والده في التقارب مع السلطان المؤيد وقابله في ذي القعدة عام 699هـ/[108] تموز 1311م وقد سلّم معظم ما لديه من الحصون إلى المؤيد، الأمر الذي استحسنه السلطان المؤيد، لذلك قدم له الهدايا والهبات والتحف القيمة وكذلك مبلغاً من المال قدره سبعة آلاف دينار وعدداً من المماليك والخيول ثم أقطع له إقطاعات في مدينة القحمة عام 700هـ الموافق أيلول 1300م [109].

بعد أن أمّن موقف الأئمة الزيدية إلى حد ما، توجه إلى إنهاء تمرد قبائل الأكراد وهم من بقايا الجيش الأيوبي في مدينة ذمار الذين خرجوا على إدارة الحكم فيها فأجهز عليهم وقضى على تمردهم[110]، ثم تفرغ على تمرد قبائل الجحافل والعجالم في مدينة لحج، حيث أرسل لهم السلطان المؤيد الأمير الكبير أبو علي طغرطل بن عبد الله المؤيدي الملقب بسيف الدين وهو أحد مماليك المؤيد

فلما وصل إلى لحج أوقع بتلك القبائل في جمادي الآخرة عام 700هـ /1300م[111] وأنهى تمردهم، ثم توجه لإخماد تمرد قبائل المخلاف السليماني [112] وقد نجح في ذلك ايضاً، وبذلك استقرت الأوضاع في البلاد وأخذ ولده المظفر ضرغام الدين يتجول في المدن المختلفة ومنها صنعاء وزبيد وتعز، وقد لقي فيها استقبالاً بهيجاً حيث زيّنت معالم المدينة، وفي الوقت ذاته كلف ولده الملك الظافر عيسى بإدارة صنعاء بدلاً عن ولده المظفر ضرغام وأمره بالقضاء على تمردات قبائل لأمور وأخضعهم لسلطة والده[113]، فضلاً عن إخماده حركات قبائل المعازبة التي خرجت عن الطاعة واخّلوا بالأمن حتى أذعنوا بالطاعة بعد أن نهُبت أموالهم وقدموا رهائنهم ووافقوا على بقائهم في مدينة زبيد [114].

وكانت آخر محطة في حركات التمرد التي قضى عليها السلطان المؤيد هي حركة الناصر بن الأشرف عام 716هـ/1316م، التي كانت بدفع وتحريض من قاضي القضاة جمال الدين محمد بن أبي بكر، استطاع المؤيد إعداد حملة لمواجهته وعلى الرغم من أنه كان يعاني من المرض الشديد فحاصره وأسره فطلب الناصر العفو والأمان فعفى عنه وآمنه، وعزل قاضي القضاة واعتقله في حصن تعز عقوبة لما قام به من عمل تحريضي ضده [115].

أذن على الرغم من كل مشكلات حركات المعارضة التي حصلت في عهد السلطان المؤيد التي دامت قرابة ستة وعشرين عاماً، إلا أن حالة الهدوء النسبي قد سادت في البلاد، وبعد أن اشتد به المرض توفي يوم الثلاثاء الموافق ذي الحجة عام 721هـ [116]/22 أيلول 1321م.

- سيف الدين بن علي (المجاهد) 721-764هـ/1321-1363م

تولى علي بن داود بن يوسف بن عمر الملقب (المجاهد)[117]، حكم البلاد بعد وفاة والده المؤيد، ولم يلق صعوبة في مسألة تولي إدارة الحكم لكونه الابن الوحيد الباقي على قيد الحياة من أولاد المؤيد، حيث أجمع أمراء الدولة وأعيانها على توليه على الرغم من أنه لم يكن قد تجاوز عمره الخامسة عشرة[118]، ومن ثم فإنه قليل الخبرة والتجربة مما جعله فريسة سهلة لأفراد حاشيته [119]، وانصياع لتنفيذ رغباتهم واقتراحاتهم، هذه الأمور لا شك أنها انعكست بصورة مباشرة على إدارة الدولة التي شهدت اضطرابات وفتن داخلية عنيفة، كما اهتزت صورته لدى كبار قادة العسكر ولم يظهروا ثقتهم بقدرته على إدارة البلاد [120].

قام السلطان المجاهد ببعض الإجراءات المتخبطة منها إقصاء كل أعوان أبيه وتقريب خاصته فبدأ بعزل نائب السلطنة واتابك العسكر جمال الدين محمد بن يوسف بن يعقوب وفوضها إلى شجاع الدين بن عمر بن يوسف بن منصور [121]، فضلاً عن ذلك أساء معاملة بعض القادة في الجيش والجند حيث أوقف تقديم الهبات والهدايا المعطاة لهم وهم في الثكنات وحصن الدملوه في أثناء زيارة السلطان إليهم على الرغم من أن هذا التقليد كان قائماً قبل وصوله إلى الحكم [122].

تلك التصرفات انعكست على إدارة قوات العسكر الذين بدؤوا يناصبونه العداء والخلاف، والخروج على طاعته، فكانت أولى عملياتهم قتل نائب السلطنة الأمير شجاع الدين المقيم في ناحية المجاذيب في تعز مع صهره الأمير محمد بن علي الهام وكان معهما قاضي القضاة عبد الرحمن الظفاري والشيخ محمد بن عثمان الحكيمي العيسى فقتلوهما، ثم حاصروا المجاهد نفسه بعد أن حطموا أبواب داره فوقع في أسرهم [123].

في جمادي الآخرة عام 723 هـ الموافق حزيران 1322م، تم عزله من حكم السلطنة، وأقاموا عمه المنصور أيوب بن المظفر سلطاناً على البلاد وسلّموا إليه المجاهد الذي أمر بسجنه في حصن مدينة تعز، وفي الوقت ذاته أغدق على العسكر بالهبات والأموال الطائلة والملابس الفآخرة والخيول الأصيلة، لذلك نال حب قادة الجيش وجنده[124].

حصل تقارب بين المنصور وأشراف الأئمة الزيدية الذين رحبوا بهذا التغيير وكاتبوه وأظهروا له رغبتهم في التعاون معه وتقديم الطاعة له، وفي الوقت ذاته أفرج عن ابن أخيه الناصر جلال الدين محمد بن الأشرف الذي سبق وأن سجنه المجاهد في سجن عدن [125].

ارتكب المنصور خطأً كبيراً وخطيراً تمثل بعد متابعة أتباع السلطان المجاهد وتحركاتهم لا سيما أنهم كانوا يشغلون مواقع حساسة ولا سيما في الجيش، وأمن جانبهم، إلا أن هؤلاء استطاعوا التسلل في سرايا الجيش والإعداد لمؤامرة خطّطت لها والدة المجاهد ((لأدار الكريمة جهة الإصلاح)) وبالتعاون مع بعض أفراد الحرس في حصن تعز، حيث تم التسلل ليلاً والدخول على المنصور واعتقاله في رمضان عام 723هـ/أيلول 1322م [126]، وبذلك لم يدم حكم المنصور سوى ثلاثة أشهر فقط.

أطلق سراح السلطان المجاهد وفشلت جميع المحاولات التي بُذلت من أجل نصرة المنصور أيوب، أما المجاهد نفسه فقد تعهد بتأمين مماليك والده وكتب لهم العهود والذمم بحضور القاضي والشهود وأعيان الدولة[127].

ظلت حالة البلاد غير مستقرة حتى بعد عودة السلطان المجاهد ثانية إلى سدة الحكم فواجه هذه المرة مشكلة خروج ابن عمه الظاهر أسعد الدين عبد الله بن المنصور المتحصن في حصن الدملوه الذي استقر فيه منذ زمن حكم والده المنصور، فكاتبه باسترداد الحصن، إلا أن الظاهر امتنع عن ذلك، على الرغم من أن المجاهد استخدم معه أسلوب التهديد بقتل والده المنصور المحجوز لديه، إلا أن الظاهر رفض ذلك، فما كان من المجاهد إلا أن جهّز حملة عسكرية وهاجم بها حصن الدملوه، إلا أن هذه الحملة فشلت بسبب قوة ومناعة الحصن وصعوبة السيطرة عليه، فضلاً عن العامل العسكري وطبيعة الوضع العام الذي كانت عليه البلاد وما أصابها من عدم الاستقرار والصراع على السلطة[128]

اتسعت دائرة الخلافات ما بين السلطان المجاهد والأمير الظاهر بن منصور، في الوقت الذي انضم أتباع عديدون من الجند إلى جانب الظاهر الذي أكرمهم وقدّم لهم الهدايا والهبات على طريقة والده، وبذلك استطاع من مواجهة المجاهد وحقّق تقدماً عسكرياً في مدن الجند عام 723هـ/آذار 1323م، وتوجه بعد ذلك إلى تعز عاصمة الدولة ومقر حكم السلطان المجاهد، فتراجع الأخير ودخلت قوات الظاهر إلى تعز، إلا أن المجاهد استطاع من إعادة ترتيب قوات عسكره في العاصمة وتمكن من رد هجوم الظاهر وإنقاذ العاصمة من خطر محدق [129].

أعاد الظاهر ترتيب قواته ثانية مستغلاً حالة الفوضى والارتباك السائدين في صفوف قوات المجاهد، فسيطر على مدينة زبيد وتوابعها وضرب السكة باسمه، ولم يكن أمام المجاهد في ظل هذه الظروف العصيبة إلا أن يُعيد تعبئة قواته لاستعادة مدينة زبيد التي تحصنت فيها قوات الظاهر ونجحت في إفشال هجوم قوات المجاهد عليها[130].

لا شك أن النجاح الذي حقّقه الظاهر على المجاهد قد أتاح الفرصة أمام بعض الأمراء بالخروج على سلطة المجاهد ومنهم والي لحج عمر بن بلبال الذي استولى على مدينة عدن بعد أن حاصرها قرابة عشرين يوماً، وبذلك آخرجها من قبضة حكم السلطان المجاهد في شعبان 723هـ/آب 1322[131]، وبعد ذلك أمر الظاهر بتعيين ابن الصليحي والياً عليها[132]، وطلب الأموال والودائع الموجودة في خزائنها، وبذلك تكون قوات الظاهر قد سيطرت على أغلب مدن البلاد وحصونها باستثناء تعز التي بقيت تحت إدارة المجاهد وهو بحالة مرتبكة. إذ كان يتطلب منه التفكير في كيفية مواجهة المستجدات الخطيرة التي تواجهه في ظل تصاعد ثورة ابن عمه الظاهر لذلك أرسل وفوداً إلى الأشراف الأئمة الزيدية والمخلاف السليماني وبعض زعماء القبائل طالباً منهم المساعدة والنجدة، وإن الأمور تسير نحو زوال ملكه، ولم يكتف بهذه الإجراءات الداخلية فعمل على مراسلة السلطان المملوكي الناصر بن قلاوون طالباً مساعدته مقابل ذلك تقديم الولاء والطاعة له [133].

وصلت النجدات التي طلبها السلطان المجاهد وعزّزت موقفه في مواجهة قوات الظاهر التي أُجبرت على الانسحاب والتحصن في مدينة زبيد بعد أن خسر معارك شرسة معها [134]، وفي الوقت ذاته حصلت خلافات بين قوات الظاهر نفسها، الأمر الذي شجّع السلطان المجاهد في مواصلة تقدمه وتثبيت قواته على مواقفها فدخلت مدن عدن وزبيد وذكر اسمه في خطب مساجدها وبقيت الخطب التي بإسم الظاهر في مساجد تهامة [135]، ثم عادت الكثير من القبائل في مواقفها من المجاهد وقدّمت الطاعة له، وفي الوقت ذاته عمل المجاهد على إعادة الأمن والشروع بالإصلاح، وهذه التوجهات وقد فككت صفوف القوى المعادية له وفي مقدمتها قوات ابن عمه الظاهر[136].

أما السلطان المملوكي في مصر فقد استجاب لطلب السلطان المجاهد وأرسل له حملة كبيرة، إلا أنها جاءت بعد أن حقّقت قوات المجاهد نجاحات نسبية على قوات الظاهر بعد أن وصلت المساعدات الداخلية التي طلبها المجاهد.

لا شك أن الحملة الكبيرة التي أرسلها السلطان المملوكي قد أثارت شكوك المجاهد ومخاوفه من أن هذه الحملة قد تسيطر على اليمن وتجعله تابعاً لها من جهة وضعف إمكاناته في سد احتياجاتها ومتطلباتها من جهة ثانية، لذلك طلب من السلطان المملوكي بسحب تلك القوات وإعادتها إلى مصر بعد أن انتفت الحاجة لوجودها في بلاده، فأمر السلطان المملوكي بعودتها في شعبان عام 725هـ/ حزيران 1325[137].

استعاد السلطان المجاهد قوته في السيطرة على البلاد وقام بعد ذلك بجولة في المدن هدفها تعزيز صلته بسكانها ومن ثم إعادة الثقة معهم، فزار مدن الجند ولحج وزبيد التي وصلها في شهر رمضان عام 725هـ/آب 1325[138]، فعمل على إعادة تنظيم الأوضاع فيها، ومن ثم التهيؤ للقيام بجولة لمواجهة الظاهر الذي عاد التحصن في مدينة عدن، ودارت مواجهات عديدة بين الطرفين، سجّل المجاهد التقدم فيها وسيطر على بعض الحصون المهمة، ومنها حصن الدملوه الذي أسرت فيه قوات المجاهد والدة الظاهر وأخته ونقلتا إلى دار الإمارة في حصن تعز وتحفظ عليهما، ولا شك أن هذا الأمر قد فتّ في عضد الظاهر المتحصن في حصن السمدان وجعله يفقد صوابه ولم يقدر على إدارة المواجهة مع السلطان المجاهد[139].

عقد الظاهر الصلح مع المجاهد في شهر محرم عام 730 هـ/تشرين أول 1329م بعد أن توسط له قاضي القضاة جمال الدين محمد، وبذلك نزل من حصن السمدان[140]، وأمر المجاهد بسجنه في حصن تعز حتى وفاته في ربيع الآخر عام 734هـ /كانون الأول 1333م، وقد أختلفت الروايات بشأن وفاته حيث أُتهم المجاهد بقتله خنقاً[141]، وبوفاته يكون المجاهد قد تخلص من خصم عنيد وثورة أستنزفت منه الكثير من الموارد والإمكانات طوال مدة حكمه.

حاول السلطان المجاهد استثمار الظروف ما بعد التخلص من الظاهر فعدّ الكثير من الحملات لتصفية خصومه واستكمال سيادته وسيطرته على بعض مدن اليمن التي كانت خارجة عن إدارته، وبذلك يكون الهدوء النسبي قد عاد إلى البلاد وعندها قرر الذهاب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج لا سيما وأنه كان على علاقات طيبة مع أمراء مكة ومنهم الشريف رميثه بن أبي نمي[142] وأدى حجته الأولى في عام 743هـ /1343م[143]، وبعد أداء مناسك الحج كرّم أبي نمي وأجزل العطاء له ولعامليه لحسن استقباله وتسهيل مهمة أداء مراسيم فريضة الحج[144].

عاد السلطان المجاهد إلى بلاده واستُقبل بحفاوة كبيرة في المدن التي مرّت بها قافلته حتى وصل إلى مدينة زبيد ومنها توجه إلى تعز، وبمناسبة أدائه فريضة الحج قدّم الهدايا وأجزل العطاء على قادة الجيش والجنود وأمر بالعطاء والكسوة والخلع لهم[145].

سادت البلاد حالة من الاستقرار والهدوء، إلا أنها شهدت بعض التمردات والعصيان هنا وهناك، إلا أن المجاهد استطاع القضاء عليها ومنها انتفاضة بعض المماليك المستنجدين بابن أخيه الفائز أبي بكر بن حسن بن داود، إلا أنها فشلت وانتقم منهم المجاهد شر انتقام.[146]

عقد السلطان المجاهد العزم على تأدية فريضة الحج للمرة الثانية عام 751هـ/1351م واصطحب معه العديد من أفراد أسرته ومنهم والدته وابنه العادل، غير أن الوضع في مكة قد تبدل عما كان عليه في أثناء حجته الأولى، حيث توفي الشريف رميثه بن أبي نمي وجاء من بعده ابنه الشريف عجلان الذي حصل على منصب الشرافة بعد نجاحه في إبعاد أخيه ثقيه بن أبي نمي عنها، فما كان من أخيه إلا أن استقبل السلطان المجاهد وقَدِم معه إلى مكة، وعند ذاك شاعت حالة الخوف لدى الشريف عجلان، في الوقت الذي أعلنت إشاعة مفادها بأن السلطان الرسولي قَدِم إلى مكة من اجل القبض على الشريف عجلان وإحلال أخيه بدلاً عنه نهاية موسم الحج[147].

ولهذا عمل الشريف عجلان على إيهام المحمل المملوكي المصري في مكة وأوشى له بأن السلطان الرسولي قادم من أجل إزالة النفوذ المملوكي في مكة، لذلك اتفق الطرفان على مباغتة السلطان المجاهد والقبض عليه في غفلة من حراسه، وهذا ما حصل بالفعل في الثالث عشر من ذي الحجة عام 752هـ/1352م، واستسلم السلطان المجاهد خشية من إراقة الدماء بين الطرفين وهو في موسم الحج، لذا نُقل إلى القاهرة بعد انتهاء موسم الحج[148].

أما والدة السلطان المجاهد وبقية الوفد فعادوا إلى اليمن وأخذت على عاتقها مهمة إدارة البلاد وتدبير شؤون الحكم[149]، وقد حاولت وبشتى الطرق تخليص ولدها مما وقع فيه، وفي الوقت ذاته استطاعت القضاء على الفتن والاضطرابات التي قامت بها بعض القبائل على أثر غياب السلطان المجاهد، واستمرت كذلك حتى عودته في ذي الحجة عام 752هـ/كانون الثاني 1352[150]، وبعد عودته شرع في مهاجمة القبائل التي خرجت على طاعته، وفي الوقت ذاته اشتدت عليه المشكلات حتى لا يكاد يتخلص من مشكلة حتى يلحق بآخرى وكانت من أبرزها تمردات قبائل تهامة لا سيما قبائل المعازبة والقرشيين وثورة عامله على مدينة حرض الأمير محمد بن ميكائيل عام 761هـ/1360م، الذي استطاع خلال مدة قصيرة الاستيلاء على مدن تهامية عديدة، مستغلاً مساعدة الأئمة الزيدية في تمرده لذا فرض سيطرته على مدن المهجم والمحالب فضرب السكة باسمه وسمى الخطبة بلقب الشريف الحسيني الفاطمي النبوي، الأمر الذي جعل السلطان المجاهد يواجهه في أكثر من حملة إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها [151].

لم تكن ثورة الأمير محمد بن ميكائيل الوحيدة في سلسلة التمردات على حكم السلطان المجاهد بل رافقتها تمردات عديدة آخرى في مقدمتها خروج أولاده الثلاثة الصالح والعادل والمظفر وكان الأخير أخطرهم حيث استولى على مدن لحج وأبين وحاول الاستيلاء على ميناء عدن، بعد أن جمع عدداً من الأتباع من قبائل العقارب وأمرهم بالتقدم باتجاه عدن، إلا أن قوته واجهت مقاومة كبيرة اضطرته إلى العودة إلى لحج[152].

لاشك أن تمرد ابنه المظفر ومحاولته الاستيلاء على ميناء عدن قد تكون الأخطر على مستقبل حكمه لا سيما أن عدن تشكّل الشريان الأقتصادي الحيوي لدولته لذلك قاد السلطان الحملة بنفسه للقضاء على هذا التمرد إلا أنه فشل أيضاً[153]، كل هذه الأحداث أثّرت على مسيرة حكم السلطان المجاهد حتى توفي في عدن في جمادي الأولى عام 764هـ[154]/آذار1363.

- **السلطان عباس بن المجاهد (الأفضل) 764- 778هـ/1363-1376.**

خلف السلطان الأفضل والده في الحكم، على الرغم من أنه لم يكن الابن الأكبر، إلا أن ملازمته لأبيه ووقوفه إلى جانبه، في الوقت الذي خرج أخوته الثلاثة (الصالح والعادل والمظفر) على طاعة أبيهم، حيث أجمع كبار الدولة والأمراء على توليه الحكم، ثم بايعوه في اليوم نفسه الذي توفي فيه والده[155].

استلم السلطان الأفضل حكم البلاد في ظروف غير مستقرة، وكانت أمامه مشكلات عديدة، في مقدمتها أخوته الثلاثة المتمردين وهذا يعني فتح باب الصراع والمنافسة على السلطة، فضلاً عن إعادة مطامع المعارض ابن ميكائيل على الواجهة من جديد في منطقة شمال تهامة وأعلن نفسه سلطاناً هناك، زامنه تمرد القوى الزيدية، التي استغلت بدون شك حالة الاضطراب السائدة في الدولة، لذلك توسعت في مناطق الجبال في صنعاء وما يليها شمالاً، كما خرجت قبائل المغازبة والقرشيين والأشاعر في منطقة تهامة على طاعة السلطان وعاثوا في الأرض الفساد.[156]

في ظل هذه الظروف الصعبة، فقد السلطان الأفضل سيطرته على أودية وحصون عديدة منها وادي سهام وأجزاء كبيرة من وادي زبيد وتهامة.[157]. ولم يبقى السلطان الأفضل متفرجاً على ما يدور حوله، فعمل على توحيد صفوفه، وإعادة النظر في ترتيب شؤون دولته ساعياً إلى سد الثغرات الموجودة فيها ورفع معنويات الجيش واجهزة الدولة، فقدّم لهم الهبات وأجزل عليهم العطاء، وبعد ذلك تفرغ لمواجهة خصومه الواحد تلو الآخر، فقد بدأ بابن ميكائيل الذي أرسل عليه حملة كبيرة في عام 765هـ/1364م، واستطاعت الحملة من تدمير قوته وتشتيتها ثم أجبرته على الانسحاب ومن ثم اللجوء إلى الأئمة الزيدية في الشمال، وظل عندهم مشرداً حتى وفاته عام 779هـ/1377م[158]، وأصبحت المناطق الواقعة تحت سيطرته تحت يد السلطان الأفضل.

لا شك أن هذا الانتصار الذي حققه السلطان الأفضل على ابن ميكائيل قد شجّعه على مواصلة التحرك في القضاء على تمردات القبائل التهامية، وقد بدأ بقبائل القرشيين وإيقاع الهزيمة بهم في ذي القعدة عام 765هـ [159]/نيسان 1374م، بعد أن قتل وشرّد أبرز قادتهم، لذلك أضطروا لطلب الأمان من السلطان الأفضل، بعد أن قدّموا الضمانات والرهائن بعدم العودة إلى أعمال التمرد والعصيان ثانية، حتى جاءت المواجهة التالية مع قبائل المعازبة الذي واجههم بأكثر من حملة فأوقع بهم هزيمة قاسية ثم فرض عليهم الطاعة.[160]

بعد هذا الجهد الذي بذله السلطان الأفضل لم يبق أمامه هدف إلا القضاء على تمرد أخوته لا سيما أخيه المظفر، لذلك وجّه لهم سلسلة من الحملات العسكرية، ولم تكن نتائجها ايجابية فيما يخص السلطان وفشلت في أغلبها، لكنها حقّقت بعض الأهداف وفي مقدمتها أنها شلت قدرتهم على المواجهة وأضعفتهم، وبذلك سجّل تقدماً على ما حقّقه والده في حياته، وخلال ثلاث سنوات استطاع أن يفرض سيطرته على مناطق واسعة في اليمن، لذلك نال تأييد العديد من القبائل وولائها التي قدّمت له الطاعة، وبدأت البلاد تشهد حالة من الاستقرار المشوب بالحذر.[161]

تفرّغ السلطان لمواجهة الأئمة الزيدية الذين كانوا يمثلون له مشكلة كبيرة، وذلك بسبب تمرداتهم المستمرة من جهة، ودعم خصومه من جهة ثانية، فضلاً عن أنشطتهم في إثارة الاضطرابات داخل دولته، فقد استمروا في دعم حركة معارضة أخيه المظفر مثلما حدث ذلك عام 766هـ/1365م، وقدّموا له المساعدة في تقدمه على مدينة حرض وكذلك عند دخوله مدينة الشحر عام 768هـ/1367م [162].

لم تحسم المواجهات ما بين قوات السلطان الأفضل والأئمة الزيدية بسبب موقفهم في إثارة المشكلات والأضطرابات في مدن المهجم والكدراء والقحمة، وزبيد، لذلك أرسل حملة بقيادة الطواشي أمين الدين الذي استطاع القضاء على الفتنة في زبيد وإعادة الأمن إليها.[163]

في عام 772هـ/1371م توفي الإمام الزيدي المهدي بن علي بن محمد، فتم الاتفاق على تولي ابنه الناصر صلاح الدين بن محمد الإمامة، وتمت مبايعته على ذلك في صفر من عام 773هـ/1371م، سار الإمام الجديد على النهج ذاته الذي كان عليه والده في مواصلة الحملات على مدن الجند وزبيد[164]

لم يتقاعس السلطان الأفضل في إدامة زخم المواجهات مع خصومه، إلا أنها أرهقته كثيراً، وعهد أمر قيادة الكثير من الحملات إلى كبار قادته ومساعديه ولم يشترك فيها بنفسه، وقد يكون ذلك سبباً موضوعياً في عدم تحقيق النجاح والتفوق في تلك الحملات، وظلت حالة الصدام مع قوات الإمام الزيدي قائمة، حتى وفاة السلطان في مدينة زبيد في شهر شعبان عام 778هـ/كانون الأول1376م، بعد ذلك نُقل إلى دار الخورنق في مدينة تعز ودفن في المدرسة الأفضلية.[165]

- السلطان إسماعيل بن العباس(الاشرف الثاني) 778-803هـ/1376-1400م

بعد وفاة السلطان الأفضل، بويع ولده إسماعيل من قبل رجال الدولة وعلمائها[166]، ولُقب (الأشرف الثاني)، وذلك في شعبان عام778هـ/كانون الأول 1376م، فقد أقسم الجميع بالولاء له، ويذكر المؤرخ الخزرجي القول ((كانت الكتب من كل بلد تصل إليه والعرب من كل ناحية تفد عليه وهو يجيب على كل كتاب بما يقتضي ويقابل كل واصل إليه بما يجب ويرتضي حتى استوثقت البلاد دانيها وقاصيها وأذاعت البرية طائعها وعاصيها)).[167]

تولى إدارة الدولة وهو شاب عمره سبعة عشر عاماً، وقد وصفه ابن حجر العسقلاني في كتابه (أنباء الغمر في أبناء العمر في التاريخ)) بأنه كان في بداية عهده شاباً طائشاً مقبلاً على اللهو والعبث، وأضاف بأنه كان محجوباً عن السلطة بوساطة خاله الأمير عبد العزيز الجحفلي[168]، وأدت والدته (بجهه طي)[169] دوراً مهماً في مسيرة حياته بل هي التي هيّأت ظروف وصوله إلى السلطة، وتجدر الإشارة إلى أن المصادر التاريخية اليمنية بشكل عام والمصادر المتخصصة بالدولة الرسولية بشكل خاص لا تذكر ذلك، وينفرد المؤرخ العسكري بذكر خصال والدته وسيرتها ويصفها بالقول إنها امرأة كانت على مستوى كبير من القوة والحكمة، وقد مارست دوراً مهماً في تولي ابنها إدارة البلاد[170]، وجاء في نص قوله:((كانت امرأة نجيبة حازمة لبيبة وكانت غاية في الجمال والجود والكمال، ولما توفي السلطان الملك الأفضل استدعت الأشراف والأعيان ووجوه العسكر واستحلفتهم بالطاعة لولدها السلطان الأشرف ووعدتهم بما طابت به نفوسهم فانحرفوا جميعاً عن غيره وانقادوا لطاعته وساروا تحت ركابه))[171].

يظهر من سير الأحداث أن حالة القلق وإثارة الاضطرابات لسلاطين الدولة الرسولية قد لا تختلف من سلطان إلى آخر، إلا أن الفرق بينهم في حجم التحدي ونوعه فضلاً عن طبيعة الموقف المتخذ عند المواجهة، لذا فإن السلطان الاشرف كانت أمامه تحديات تمثلت بخروج قبائل المعازبة الذين شكّلوا ثورة واسعة النطاق في المناطق التهامية، لذلك أرسل عليهم حملات عديدة بقياده وزيره القاضي تقي الدين عمر بن أبي القاسم، ونجح في مواجهتهم وتم تشتيت قواهم [172]، لكنهم سرعان ما عادوا إلى المواجهة في مدينة القحمة فتوجب إعداد حملات متتالية إلا أنها لم تقض على نفوذهم تمامًا وظلت تشكّل مصدر قلق وإزعاج لقوات السلطان الأشرف الثاني [173].

وعلى صعيد المواجهة مع الأئمة الزيدية، تجددت في عهد السلطان الأشرف الثاني، بعد أن حاولوا إثارة الفتن الداخلية وأستقطابهم لوزير السلطان الأشرف وجيه الدين عبد الرحمن النظاري، الذي

أقصي من الوزارة على أثر خلاف مع السلطان الأشرف الثاني عام 784هـ/1382م، وقام الإمام الزيدي باستدعائه فاستقبله وأكرم وفادته، وهذا الأمر بلا شك أثار السلطان الأشرف فكان رد فعله مباشراً بقتل رسول الإمام في ذي القعدة عام 786هـ/كانون الأول 1384 بحجة أنه أفشى أسرار ائتمنها السلطان عنده.[174]

إن تطورات الأحداث تلك قد سارعت في قيام الكثير من التحركات العسكرية بين الطرفين، فبدأت القوات الزيدية بشن العديد من الغارات الواحدة تلو الآخرى على المدن الرسولية ومنها عدن وتعز وزبيد، كما تعرضت مدن الحرض والمهجم والمحالب هي الآخرى إلى هجمات القوات الزيدية المتكررة[175]، فتصدت لها قوات السلطان الاشرف الثاني بحملات عديدة اضطرتها إلى الانسحاب إلى مدينة ذمار وأعادت تنظيمها في شوال عام 791هـ/1389م، وبعدها شنّت قواته غارات عديدة على عدد من الحصون التابعة إلى السلطان الأشرف الثاني في منطقة الشواني، إلا أنها لم تنجح في المواجهة. [176]

توفي الإمام الزيدي صلاح الدين محمد في عام 793هـ/1391م، وقد تركت وفاته أثراً كبيراً على تحركات القوات الزيدية ونشوب الخلاف بين الأئمة، بل خروج الكثير من القبائل التي كانت تؤيدها عن طاعتها وانضمت إلى قوات السلطان الرسولي[177].

اشتد الصراع بين علي بن الإمام الناصر والإمام أحمد بن يحيى المرتضى حول من ينفرد بالإمامة ويخلف الإمام الناصر، حتى وقع الإمام أحمد بن يحيى في اسر الإمام علي عام 794هـ/1392م[178]، لكن الأمور حالت إلى الإمام الهادي بن علي بن المؤيد بن جبريل، ويظهر أن هذا الصراع الداخلي على الزعامة الزيدية قد أصابها بضعف كبير ومن ثم أتيحت الفرصة أمام السلطان الأشرف في كسب ود الكثير من أتباع وقبائل الزعامات الزيدية التي انضمت إلى صفوفه بعد أن خلع عليهم الخلع والهدايا وأحسن استقبالهم، وبالمقابل تنازلوا له عن بعض الحصون والقلاع التي كانت تحت نفوذهم [179].

وعلى هذا النحو تكون البلاد بعد هذه الأحداث شهدت حالة من الهدوء والاستقرار تعزز حكم السلطان الأشرف وبدأ مرحلة جديدة من العلاقات مع الأئمة الزيدية، وأرسل الهدايا النفيسة إلى الإمام علي بن صلاح الدين، وبقيت كذلك حتى وفاة السلطان الأشرف في ربيع الأول عام 803هـ[180]، الموافق تشرين الثاني 1400م بعد حكم دام ربع قرن[181]، وبوفاته انتهت مرحلة هامة من تاريخ سلاطين بني الرسول الأقوياء وبدأت مرحلة جديدة من حكم السلاطين الضعفاء فشهدت الدولة حالة من الضعف والانهيار ومن ثم السقوط.[182]

ثالثاً: سلاطين دولة بني الرسول (مرحلة الضعف والإنهيار) 803-858هـ/1400-1426م

- السلطان أحمد بن إسماعيل (الناصر)803-827هـ/1400-1424م

قبيل وفاة السلطان الأشرف الثاني عقد البيعة لولده السلطان أحمد الناصر، وعمل الأخير منذ توليه الحكم القضاء على حركات التمرد والعصيان في المدن اليمنية، ومن ثم استقرار الأوضاع العامة فيها، فكانت أولى حملاته التي وجّهها كانت على قبائل المعازبة وأنهى تمردهم وعند ذاك جنحوا إلى الهدوء[183]، ويظهر أنه انتهج سياسة والده في التعامل مع هذه القبائل [184].

قاد السلطان الناصر حملات عديدة على القبائل الثائرة وانتزع الكثير من الحصون والقلاع التي كانت تحت سيطرتها، ومنها حصن المهور ووادي السهام وحصن ريمه، فضلاً عن حملته على بلاد المقاصرة الواقعة شمال وادي السهام [185]، ثم توجّه الناصر بجهوده العسكرية إلى المناطق الجبلية حيث استولى على حصون ارياب والحقل، ودمّر مدينة تريم في أوائل شهر شوال عام 805هـ/1402م، ثم زحف على حصن ساره واستولى عليه في الثاني عشر من ربيع الأول عام 806هـ/1403م فضلاً عن تعزيز قوته في حصن الدرج واستولى عليه فيما بعد[186].

في عام 808هـ/1405م، ثارت قبائل الجحافل في لحج وقطعت الطرق ونهبت القوافل حتى وصلت عدن وأثارت الرعب في أهلها والوافدين عليها مما تسبّب في انقطاع الواردات إليها وقتل عاملي السلطان فيها، الأمر الذي ألزم السلطان من قيادة الحملة بنفسه واستولى على مدينة دثينه [187]، ثم عادت الأمور إلى نصابها.[188]

هكذا تمكن السلطان الناصر من السيطرة على الموقف في اليمن، وهدأت الاضطرابات لمدة تزيد على خمس سنوات، ولم تحدث بعدها إلا حوادث متفرقة حتى عام 818هـ/1415م، الذي أُخمدت فيه ثورة أهالي مدينة وصاب واستولى على حصون مدينتهم[189]، ثم توجّه بعد ذلك للقضاء على حركات التمرد في منطقة رادع ووادي خيان، فضلاً عما قام به في مواجهة قبائل العجالم في شمال لحج، ثم عادت بعد ذلك إلى مدينة تعز عام 820هـ/1417م[190].

جرت محاولات عديدة ضد السلطان الناصر هدفها السيطرة الحكم وانتزاعه منه، ولا سيما محاولة أخيه حسين بن الأشرف الذي استولى على مدينة زبيد في عام 822هـ/1419م وأعلن نفسه سلطاناً على البلاد ولقب بالملك الظافر، إلا أن السلطان الناصر تمكن من مهاجمته وألقى القبض عليه وسجنه في حصن تعز وأمر الناصر أخيه الظاهر بسمل عين أخيه الذي أعلن تمرده عليه وسملت عيناه[191]، ومما يذكر أن السلطان الناصر قد شعر بالندم على ما فعله مع أخيه وأنه جاء بساعة غضب[192].

تصدى السلطان الناصر لحركات معارضة آخرى في مقدمتها حركة محمد بن أبي القاسم نجاح الأشعري في مدينة زبيد، فسيّر حملة عليه وتم القضاء عليها في ربيع الأول عام 806هـ/1403م، وحركة خالف معوضة بن تاج الدين عام 809هـ/1406م في جهات رادع وقد تم التوصل إلى اتفاق معه وتراجع عن مواجهته، وفي منطقة الشوافي تمرد ابن الحسام الزاهر عام 811هـ/1408م، إلا أنه وجد نفسه غير قادر على مواجهته فقدّم الطاعة للسلطان.[193]

وبذلك قضى السلطان الناصر وعلى مدى عشر سنوات من حكمه على قمع تلك التمردات والحركات المعارضة حتى بسط نفوذه على أقاليم الدولة المختلفة، حتى سادت البلاد حالة من الاستقرار والهدوء، ولكن مع ذلك كانت هناك قلاقل متفرقة في البلاد، منها خروج أهل مدينة وصاب عام 821هـ/1417م وواجههم وأنهى خروجهم على طاعته، وبعد ذلك سعى إلى عقد سلسلة من الاتفاقات مع شيوخ مناطق الجبال عام 826هـ/1423م ومنهم جلال السيري والشيخ علي بن الحسام الزاهر، والشيخ عبد الباقي الحبيشي الذين أعلنوا طاعتهم للسلطان[194]، وبعد هذا الإجراء شهدت البلاد حالة من الهدوء وأصبح السلطان الناصر هو صاحب الكلمة النافذة في البلاد واستمرت على ما هي عليه حتى وفاته عام 827هـ/1424م، وقد دفن في مدرسة والده الملك الأشرف.[195]، بعد حكم دام أربعة وعشرين عاماً وثلاثة أشهر وقد وصفه ابن التغري بردي بأنه كان من أشرار دولة بني الرسول، وقد خربت معظم البلاد في عهده لظلمه وتعسفه وعدم سياسته ونضج تدبيره.[196]

- عبد الله أحمد (المنصور) 827هـ-830هـ/1424- 1427م

تولى السلطنة بعد وفاة والده وكان صغير السن قليل التجربة [197]، إلا أنه استطاع أن يفرض هيبته وثبّت سلطانه على البلاد، لكنه لم يعمر طويلاً حتى توفي في ربيع الآخر عام 830هـ/1427م، بعد حكم دام ثلاث سنوات فقط [198]، وجاء من بعده أخيه الأشرف الثالث المنصور.

- الأشرف الثالث إسماعيل 830-831هـ/1427-1428م

تسلم السلطان الجديد الحكم وهو صغير السن ضعيف القدرة والإمكانات، الأمر الذي جعل البعض من الأعيان والولاة يتدخلون في إدارة الدولة وإثارة المشكلات فيما بينهم، ولم يكن باستطاعته مواجهتها، فضلاً عن أن الكثير من القبائل والزعامات قد خرجت عن طاعته، ثم كثرت أعمال السلب والنهب وانتشرت الفوضى في البلاد، التي تزامنت مع ما واجهته الدولة من ظروف طبيعية صعبة إذ حلّ القحط والجدب، لذلك تفجّر الناس غضباً عليه.[199]

ألقت جماعة من العبيد المماليك القبض على السلطان وخلعوه عن العرش، ثم أودع السجن حتى توفي فيه [200]، بعد حكم دام عام وشهرين فقط.

- يحيى بن الأشرف إسماعيل (الظاهر) 831-842 هـ/1428-1439م

بعد أن أقدم العبيد المماليك على خلع الأشرف الثالث واعتقاله، عملوا على تنصيب عمه الظاهر يحيى، الذي كان سجيناً منذ عهد أخيه الناصر أحمد، فكانت أمامه مهمات صعبة تواجه حكمه، في مقدمتها حصار المجموعات من العبيد والمماليك له وتقييد حرياته ومحاولتهم فرض إرادتهم عليه، لذلك سايرهم في البداية حتى سنحت له الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم والتخلص منهم.[201]

سعى السلطان الظاهر يحيى التخلص من كبار الرجال الذين تآمروا على السلطان الأشرف الثالث وفي مقدمتهم الوزير القاضي شرف الدين إسماعيل بن عبد الله العلوي وأسرته فشرّدهم واستولى على أموالهم، وبعد ذلك واجه تمرداً جديداً قادته مجاميع من العبيد في منطقة المحالب والمهجم وقاد الحملة بنفسه عليهم، إلا أن تلك الحملة لم تستطع القضاء عليهم بل أضعفهم، إلا أنه في الوقت ذاته خرجت قبائل أخرى عليه في مدن حرض والكدراء والقحمه ومنطقة سهام فضلاً عن ذلك معاودة قبائل القرشيين على أعمال التمرد والعصيان، لذا كان من الصعب مواجهتها جميعاً[202]، وسادت البلاد أوضاع الخراب والدمار حتى وفاته في رجب 842هـ/كانون الثاني 1439م[203]

- الأشرف الرابع إسماعيل ابن الظاهر يحيى 842-845هـ/1439-1442م

لم تهدأ أحوال البلاد في عهده وظلت حركة المعارضة والتمرد متواصلة على الرغم من استخدامه سياسة شديدة قاسية مع القبائل التي ناصبته العداء [204]، إلا أن تلك السياسة في الحقيقة لم تجد نفعاً، فعادت قبائل القرشيين والمعازبة تمرداتها عليه، فقاد حملات عديدة عليهم، إلا أنها فشلت في

معظمها[205]، وبعد ذلك عمل على مهادنتهم فدعا أبرز قادة قبائل المعازبة إلى وليمة أجراها في قرية بيت الفقيه شمال مدينة زبيد في جمادي الأولى عام 845هـ/أيلول1441م، فلما جلسوا لتناول الطعام أجهز عليهم وقتل أربعين رجلاً منهم وتمكن الباقون من الفرار[206].

جاءت هذه الحادثة بنتائج عكسية عليه تماماً حيث تواصلت الثورات ضده وبقيت كذلك حتى وفاته في شوال عام 845هـ/شباط1442م.[207]

- يوسف الثاني بن عمربن إسماعيل (المظفر الثاني)845-854هـ/1442-1450م

بايعه أهل الحلِّ والعقد وأجمعوا على توليه الحكم بعد وفاة الأشرف الرابع وقد وصف بأنه كان ذا عدل وإحسان في سيرته، إلا أن ظروف الدولة كانت تسير نحو أخطار جسيمة هدّدتها بالانهيار لا سيما ما قام به قائد الجند يشبك الخاصكي في مدينة زبيد الذي أقام أحد أبناء أسرة بني الرسول محمد بن إسماعيل بن عثمان الملقب(الأفضل) وقد التف حوله زعماء القبائل المعارضة في مقدمتها القرشيين والمعازبة، إلا أن السلطان المظفر الثاني أجهز عليه بحملة كبيرة ألقى القبض عليه في ربيع الآخر عام 846هـ/آب 1442م وأودعه السجن في تعز[208]

تفرغ السلطان المظفر الثاني في توجيه هجومه على المتمردين والمعارضين لحكمه وفي مقدمتهم مجموعة المماليك، إلا أنهم شعروا بأن السلطان غير قادر من الناحية العملية على مواجهتهم، لذلك أعلنوا ولاءهم للناصر أحمد بن الظاهر في مدينة زبيد وعاثوا فيها الخراب والدمار وكان موقف السلطان المظفر الثاني ضعيفاً غير قادر على مواجهة المماليك الذين أصبحوا أكثر قوة وتمادياً حتى أنهم خلعوا الناصر أحمد بن الظاهر وعزلوه وأخرجوه من مدينة زبيد عام 847هـ/1443م.[209]

- المسعود صلاح الدين ابن الأشرف والمؤيد بن الملك الظاهر وظروف سقوط الدولة الرسولية 847-854هـ/1443-1454م.

أقام العبيد المماليك المسعود صلاح الدين أبا القاسم سلطاناً عليهم في مدينة زبيد وكان صغير السن لا يتجاوز عمره الثالثة عشرة، ويبدو أنه كان مجرد واجهة لهم ليكون ضد السلطان المظفر الثاني، فزحفوا باتجاه مدينة عدن واستولوا عليها في ذي القعدة عام 847هـ/شباط 1444[210]، ثم توجهوا بعد ذلك إلى لحج، وقد ساهم بنو طاهر في تسهيل مهمتهم ويظهر أن بني طاهر كانت لهم تطلعات في تولي السلطة، بعد أن أخذت حالة التداعي والانهيار واضحة على أسرة بني الرسول ومن يمثلها في الحكم.

أما المسعود فقد قام بدوره بالهجوم على مدينة تعز التي كان فيها السلطان المظفر الثاني متحصناً، فشدّد الحصار عليه، مما دعا الأخير أن يطلب النجدة من الشيخ عامر بن طاهر الذي أسرع في نجدته، وأجبر قوات المسعود على فك الحصار والعودة إلى عدن في رمضان 852هـ/تشرين الأول 1448م، إلا أن المسعود استطاع مواصلة تحقيق أهدافه ومنها إرغام المظفر على التنازل وتحقّق ذلك في 854هـ/1450م[211].

بعد سلسلة الانتصارات التي حقّقها المسعود حاول إضعاف المماليك والانفراد بالسلطة، لكن هذا الأمر أفرز نتائج سلبية في علاقته مع المماليك الذين شعروا بضرورة عزل المسعود ومن ثم أقاموا سلطاناً جديداً هو المؤيد حسين بن الملك الظاهر بن الاشرف في تعز وذلك في شعبان 855هـ/تشرين الأول 1451م، وكرد فعل وجّه المسعود قوة لمهاجمته إلا أنه فشل وعاد أدراجه إلى عدن.[212]

أما أسرة بني الطاهر فلا شك أنها استفادت كثيراً مما وصلت إليه ظروف الدولة الرسولية، وكانت تواجه خطوات متسارعة نحو الانهيار والانحطاط، مستغلة ضعف المسعود في عدن فهاجموه في شهر محرم عام 858هـ/كانون الأول 1454م، ولم يستطع الصمود بوجههم فاضطر إلى التخلي عن الحكم في السادس من جمادي الآخرة 858هـ/حزيران 1454م[213] ثم توجه بعد ذلك إلى مكة.[214]

تقدّم السلطان المؤيد بن حسين إلى عدن وفرض سيطرته عليها جمادي الآخرة 858هـ/حزيران 1454[215]، لكن سيطرته عليها كانت هشة وضعيفة سرعان ما كان فريسة سهلة لبني طاهر الذين دخلوا عدن في جيش كبير واستولوا عليها في الثالث والعشرين من رجب 858هـ/1454[216]، أما السلطان المؤيد فقد حُدّدت إقامته ثم سمحوا له بالتوجه إلى مدينة زبيد ثم خرج منها إلى مكة.[217]

هكذا انتهى حكم الدولة الرسولية [218]، في اليمن الذي دام زهاء قرنين وثلاثة عقود من الزمن، واستكمالاً لوحدة الموضوع وشموليته، ستتم الإشارة إلى الجوانب الاقتصادية والحياة الاجتماعية في الدولة الرسولية وبشيء من الإيجاز في سياق المبحث التالي.

رابعاً: واجهات النشاط الاقتصادي والاجتماعي في اليمن خلال عهد الدولة الرسولية

- النشاط الاقتصادي:

أولى سلاطين الدولة الرسولية اهتماماً كبيراً بالنشاط الاقتصادي، وعدّوه الركن الأساس في بناء دولتهم، مستفيدين من تجارب الدولتين الصليحية والأيوبية، وبذلك شهد القطاع الزراعي نشاطاً ملموساً من حيث التنظيم والإنتاج [219]، ولعل مبعث هذا الاهتمام يعود إلى أن الزراعة شكّلت المصدر الرئيس في معيشة السكان وكانت رافداً في سد متطلبات معيشتهم اليومية، فضلاً عن العوامل المساندة لتطور الإنتاج الزراعي ومنها وفرة الأيدي العاملة ورغبتها في مزاولة العمل في القطاع الزراعي، لذلك عملوا على بناء السدود وحفروا الآبار وشقوا السواقي والترع وبنوا المدرجات على سفوح الجبال.[220]

ساهم سلاطين الدولة الرسولية في دعم النشاط الزراعي من خلال تقديم التسهيلات والإعفاءات الضريبية على الأراضي المزروعة، لذلك تدخلوا هم وأولادهم وكبار المسؤولين لديهم في الاعمال الزراعية [221]، وأظهروا حرصهم على متابعة مشكلات الفلاحين والصعوبات التي تواجه مسار عملهم، لذلك جاء توجيهاتهم بمشاركة ممثلين عن الفلاحين بوصفهم أعضاء في مجالس الدولة على شرط أن يكون من يمثلهم يمتلك الخبرة والأمانة والحالة الميسورة ومن المعتادين على تقديم الخدمات لقراهم.[222]

أخذت الدولة على عاتقها مهمة النهوض بالقطاع الزراعي، فتعددت إجراءاتها بهذا الخصوص فعملت على منح القروض للمزارعين وسهّلت عمليات التسديد وأجلتها حتى موسم الحصاد، كما وفّرت بالوقت ذاته الحماية الموقعية لكثير من الحقول الزراعية عن طريق تكليف مجموعات من العسكر لأداء هذه المهمة.[223]

فضلاً عن متابعتها لحركة التسويق الزراعي سواء كان ذلك على المستوى الداخلي أو الخارجي[224] مع المراقبة الصارمة لموضوع الأسعار وعدم الإخلال بها.

لم تكن الدولة بعيدة عن المزارعين في حالة تعرض مزارعهم لأخطار، وظروف طبيعية قد تكون مدمرة مثل السيول الجارفة من جراء الفيضانات وسقوط الأمطار الغزيرة، أو انجراف الأراضي وحتى أحياناً في مواسم انحسار الأمطار وحلول الجفاف أو الهلاك الذي يحصل بسبب مهاجمة موجات من الجراد، لذلك أصدرت العديد من القوانين والقرارات الهادفة إلى تخفيف الضرر عنهم، من خلال

الاعفاءات الضريبية والعدول عن الالتزامات المفروضة على الفلاحين للدولة [225]، لم تكتف بذلك بل قّدمت لهم الإعانات والمساعدات والتعويضات كل حسب حجم الضرر الذي لحق به، بعد أن تقدّر لجنة متخصّصة حجم الضرر الحاصل ونوعه.[226]

أما ملكية الأراضي الزراعية فكانت مقسمة على ثلاثة أنواع هي، الملكية الخاصة العائدة إلى عامة الناس وتُقسم إلى ملكيات كبيرة ومتوسطة وصغيرة، ويكون مصدر عائديتها أما عن طريق الميراث أو الاستصلاح أو عمليات البيع والشراء، وقد تكون في بعض الأحيان عن طريق الهبات من الدولة إلى بعض الأمراء والقادة والقضاة.[227] والملكيات السلطانية وهي الأراضي العائدة إلى السلطان وأفراد أسرته من الزوجات والأبناء والبنات، وتسمى تلك الأراضي بأسماء سلاطينها، مثل الأملاك المظفرية نسبة إلى السلطان المظفر والأشرفية للسلطان الأشرف والمؤيدية نسبة إلى السلطان المؤيد، وهذه الأراضي معفاة من الالتزامات الضريبية، إلا أن ملكيتها عائدة للدولة تنتقل من سلطان إلى آخر، وملكية أراضي الأوقاف وهي الأراضي الموقوفة إلى أعمال البر والخير وغالباً ما توقف إلى الأعمال الخيرية كبناء المدارس والمساجد ونالت رعاية السلاطين واهتمامهم بصورة خاصة.[228]

وفي شأن آلية العمل الزراعي فإن العمل الروتيني قد لا يختلف من مكان إلى آخر ومن حقبة إلى آخرى، إذ تبدأ مرحلة اختيار التربة الصالحة للزراعة الملائمة لنوع المحصول المراد زراعته، ثم حراثتها وغالباً ما كانت وسائل الحراثة بدائية بسيطة عن طريق المحراث الخشبي الذي تجره الحيوانات (الثيران)، ثم بعد ذلك تسوى التربة بواسطة (المرجفيل) على شكل ألواح، ثم تبذر البذور وتتم عمليات المتابعة اللاحقة من السقي والمدارات اليومية حتى الوصول إلى مرحلة الحصاد (جني المحاصيل الزراعية) [229].

وأما طرائق الري فهي عديدة تأتي في مقدمتها الطبيعة المعتمدة على الأمطار حيث وظّفها المزارعون أفضل توظيف ثم مياه العيون والآبار، الموجهه إلى السواقي والأنهار، ويكلف بعض الأشخاص من المزارعين الثقاة وذوي الخبرة في الشؤون الزراعية مهمة مراقبة الحصص المائية وتنظيم الري بين المزارعين ويكون عادة على أساس الحصة الزراعية وحيازة المساحة المزروعة ويسمى هؤلاء الأشخاص باسم (شيوخ العبر)[230].

تنوعت طرائق استغلال الأراضي الزراعية عندما يتعذر على مالكها استغلالها بصورة جيدة، ومنها نظام الحيازة أو التأجير حيث يجري بموجب هذا النظام اتفاق بين الطرفين المالك والمؤجر وتُحدّد فيه المدة بالإيجار ونسبة المحصول الزراعي وعادة ما تكون متباينة بين محصول وآخر حسب

نوعيته وأهميته.[231]، وطبيعة استهلاكه، ونظام الشراكة وتكون بموجب اتفاق بين الشركاء من حيث تكاليف الزراعة بصورة إجمالية من بداية العمل حتى موسم الحصاد، ونظام الضمان أو المزارعة الذي يعني أن المالك يحصل على ضمانات بالحصول على نسبة محدودة من المحصول قد تكون عينية أو نقدية، ونظام بيع الأراضي الزراعية والقبالة وهي المختصة بزراعة النخيل، حيث يقدّم المزارع المال إلى الدولة سواء كانت الأرض التي حصل عليها زرعت أم لم تزرع.[232]

واستكمالاً للموضوع الزراعي لا بد من الإشارة إلى أهم المحاصيل الزراعية المنتشرة في اليمن هي الحبوب ومنها الذرة والشعير ولعس[233] والبر وهو على أصناف العربي والهلب والبر الحبيشي والبر الوسني، والعدس والأرز والدخن والسمسم والجنجلان واللوبيا (الدجر) والهرطمان (الكشد) والحلبة والباقلاء والعتر وهو أشبه بالبازلاء والحلف الذي يزرع عادة في الأماكن الباردة والخردل والكتان [234].

أما الفواكه والخضراوات والأشجار المثمرة فهي عديدة منها، الموز والسفرجل والرمان والتفاح والكمثري [235] (أجاص) والخوخ والمشمش والتوت والأترنج وهو شديد الحموضة والليمون أو ما يسمى عند أهل اليمن الليم، والعنب وهو على أنواع، أما الخضراوات فهي أصناف عديدة منها الباذنجان[236] وهناك محاصيل زراعية آخرى متفرقة. جدير بالإشارة أن الدولة كانت تحصل على فوائد وضرائب عديدة على هذه المحاصيل وتشكّل مورداً مهماً من الموارد المالية للدولة.

أما القطاع الصناعي الذي ارتبط بوفرة المعادن المنتشرة في الأراضي اليمنية ولا سيما في مدينة تعز عاصمة الدولة الرسولية ومنها الفضة والحديد والعقيق والبلور وأصناف عديدة من الجواهر والدُر الكبار الذي وجُد في سهول تهامة [237]، والنيكل والكوبلت والنحاس [238]. فدخلت هذه المعادن في العديد من الصناعات ومنها الفولاذ المصقول وتعدين الحديد الذي دخل في بعض الصناعات والآلات المختلفة فضلاً عن استخدامه في صناعة السيوف والخناجر والسكاكين [239]، أما صناعة الخزف والأواني والأطباق الخزفية فقد عُرف بها مخلاف لحج عن غيره من المخاليف [240]، كما ازدهرت صناعة الغزل والنسيج القائمة على ما يستورد من الخام من بلدان الهند والصين [241]. وكانت صناعة رائجة ادخل عليها الحرفيون اليمنيون لمسات جميلة.

نالت الصناعات الجلدية اهتمام أبناء اليمن لا سيما في المدن المعروفة بثرواتها الحيوانية وتوافر مواد الدباغة فيها، لذلك شهدت تطوراً ملموساً عبر الزمن [242]. ونظراً لما هو معروف عن الاستثمار الزراعي في اليمن كما تم عرضه في بداية المبحث فقد استثمر البعض منه ولا سيما الفاكهة في صناعة

النبيذ والخل وعرفت بإسم مركبات الفاكهة[243]، فضلاً عن استخراج زيت الزيتون، وصناعة السكر الأحمر والصليط حيث يصنع من قصب السكر الخالص ومن بذور السمسم وتشتهر به منطقة عزلة حريبة.[244]

انتشرت الحرف اليدوية في مناطق عديدة من المدن والقصبات اليمنية ولا سيما الريفية منها مثل صناعة أدوات الحصاد القديمة (المنجل والمسنية) والمحراث الخشبي، وبعض الصناعات المشتقة من بعض النخيل والأشجار، حيث تعمل منها الحصران والسلال والمسارق التي يقدّم عليها الطعام، فضلاً عن صناعة بعض القبعات اغطية الرأس (الطفشات) لوقايتهم من أشعة الشمس، كما تستخدم بعض صناعة السلال كأغطية للأطعمة ومنه الخبز[245]. وعُرف عن أهل اليمن بصناعة بعض الأسلحة التقليدية وصناعة البارود الذي كانوا يستخدمونه في تفجير بعض الصخور وتفتيتها لغرض البناء وتشييد المساكن لهم.[246]

أما النشاط التجاري فقد نال هو الآخر اهتمام سلاطين الدولة الرسولية بسبب موقع بعض المدن الاستراتيجية المتحكمة بحركة التجارة والنقل بصفتها موانئ نشطة ومنها ميناء مدينة عدن التي نالت مكانة كبيرة في الميدان التجاري حتى إن شهرتها ومكانتها قد جاءت من هذا النشاط وإن وارداتها تشكّل مصدراً اساسياً من واردات خزينة الدولة، إذ عمل السلطان المنصور على منع تجار الكارمية خلال عهده من معاملة تجار المماليك في مصر من الوصول إلى عدن عبر سفنهم التجارية، بهدف إتاحة الفرصة للتجار اليمنيين أن ينشطوا عملياتهم التجارية.[247] لذلك كانت محط أنظار السفن والبوآخر الهندية والمصرية، وعُرفت بنشاط أسواقها التجارية، لذا شيّدت فيها القيصاريات وشهدت حركة تبادل السلع الداخلة لها والخارجة منها، وعلى هذا الأساس استقر فيها عدد كبير من تجار البلدان المختلفة من الهند والصين ومصر وغيرها من البلدان الآخرى.[248]

كما نشطت التجارة الداخلية بين المدن اليمنية خلال عهد الدولة الرسولية لا سيما أن تلك المدن متباينة من حيث النشاط الاقتصادي فالبعض منها عُرف بالإنتاج الزراعي والثانية بالإنتاج الصناعي والحرفي لذا فإنها تحتاج إلى التعاون والتكامل بينها لا سيما أن البلاد قد شهدت في بعض الحقب الزمنية حالة من الاستقرار لا سيما في المرحلة الأولى من حكم السلاطين الأقوياء التي ازدهرت الحركة التجارية في عهدهم.

- **النشاط الاجتماعي:**

سلاطين بني الرسول والحركة العلمية.

نالت الحركة العلمية عناية فائقة من قبل بني الرسول، إذ يُعد عصرهم أغنى العصور اليمنية وأكثرها ازدهاراً بالعلم وأوسعها عطاء بالإنتاج الفكري، وصارت مدينة تعز حاضرة الدولة وقبلة الكثير من العلماء من داخل البلاد وخارجها طمعاً بالإفادة والاستفادة فكانوا يقدّمون إلى السلاطين أفضل ما جادت به عقولهم من مؤلفات فيحصلون على أسمى الجوائز واسخاها ويحضون بكل احترام وتقدير [249].

شجّع السلطان المظفر الحركة العلمية بل كان هو احد أقطابها الذين ساهموا في دفعها وتطورها فكانت له مساهمات فعالة بالكتابة والتأليف في حقول مختلفة [250]، وأما السلطان الأشرف الذي تمتع بدرجة عالية من العلم وسعة الاطلاع فألفّ العديد من الكتب في مجالات الطب والصيدلة والفلك والزراعة والتاريخ والأنساب، ومن هذه المؤلفات، كتاب التبصره في علم النجوم، وصلح الملاحة في معرفة الفلاحة، والمغني في البيطرة والإبدال لما علم الحال في الأدوية والعقاقير، وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب.[251]

أظهر السلطان المؤيد حبه الشديد لجمع الكتب والمصنفات لا سيما النفيسة منها[252]، مع اهتمامه في تشييد المدارس وإعمارها، كما سجّل السلطان المجاهد مواقفاً طيبة في دعم حركة التعليم وتشجيعها في بلاده مقرباً طلبة العلم ومشفقاً عليهم وقد عُرف بأنه كان من اعلم السلاطين في دولة بني الرسول وله مؤلفات تدل على ذلك منها، الأقوال الكافية والفصول الشافية في الخيل، وكتاب الخيل وأصنافها وأنواعها وبيطرتها، وله اهتمام بنظم الشعر وكان له ديوان في ذلك.[253]

وعمّر السلطان الأفضل الكثير من المنشآت العمرانية والحضارية في مناطق اليمن المختلفة، وعُرف بمقولته المشهورة ((كلما كانت الولاية أعمر كانت الولاية أوفر وأشكر))[254]. وقد كان عارفاً ومهتماً ومشاركاً بالعديد منها كالفقه والنحو واللغة والآداب والتاريخ والأنساب والزراعة [255].

وله مؤلفات قيمة التي تدل على جودة علمه وسعة اطلاعه، ومنها العطايا السنية والمواهب الهنية في المناطق اليمنية، ونزهة العيون في تاريخ طوائف القرون، نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء.[256]

وفي عهد الأشرف الثاني شهدت اليمن نهضة علمية وعمرانية شاملة حيث تم تشييد القصور ودور الاستراحات والمدارس والمساجد [257]، وقد عُرف عنه حب العلم والعلماء، وأظهر ولعه في علم التاريخ الذي اشتهر به شهرة واسعة وألف فيه سفره المعروف ((العسجد المسبوك والجوهر المحكوك، وفاكهة الزمن))[258].

وأُشرت للسلطان الناصر مواقفه من الحركة العلمية وعدّ واحداً من أبرزهم الذين أولوا الحياة العلمية جلّ اهتمامهم، فأغدق على العلماء ورجال التعليم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم بالهبات والهدايا وخصّص لهم الرواتب المجزية، طالباً منهم التفرغ لطلب العلم وتطوير قابليتهم بهدف تقديم رسالة دينية وعلمية على أفضل وجه ممكن [259]. وشيّد المدرسة الناصرية في مدينة آب كما ساهم في بناء مدرسة في منطقة المداجر، وحرص على قدوم العديد من مفكري البلدان الإسلامية بهدف طلب العلم وطلب الرزق على حد سواء، ومنهم عبد العزيز النويري وتقي الدين الفاسي وابن حجر العسقلاني.[260] وهكذا الحال فيما يخص بقية السلاطين الآخرين من بني الرسول الذين جاؤوا من بعده فقد أظهروا اهتمامهم بالحركة العلمية ومؤسساتها على الرغم من ظروف الدولة التي كانت تسير نحو الانهيار والسقوط لكثرة مشكلاتها والتمردات القائمة فيها سواء من داخل الأسرة نفسها أو من القبائل المتمردة على سلاطينها في مدن البلاد المختلفة.

عدّ سلاطين الدولة الرسولية أن بناء المدارس والأهتمام بها هو مظهر من المظاهر الحضارية التي تساهم في بناء الأمم وتطورها، حيث أُسست في عهدهم ستاً وعشرون مدرسة منها إحدى عشره مدرسة سلطانية، وخُصّصت لهذه المدارس أموال من الأوقاف العامة لسد متطلباتها من حيث تكاليف الدراسة وأجور المدرسين والمعلمين فيها [261]. فضلاً عن رعاية طلبتها من توفير السكن والطعام لطلابها وتخصيص مصروفات مالية لهم، [262] وبسبب هذا الاهتمام والرعاية فقد تخرج العديد من العلماء والمفكرين من مدارسهم التي أنتشرت في معظم المدن اليمنية والحجاز، ومنها الجند والمعافر وزبيد وعدن وظفار[263] ومكة. و على هذا الأساس شهدت البلاد حركة شاملة في النهضة العلمية بمختلف اختصاصاتها العلمية والأدبية.[264]

تمتع رجال العلم من العلماء والفقهاء والمدرسين والقراء والمؤذنين برعاية مادية متميزة، اختلفت من شخص إلى آخر بحسب قرب هذا العالم أو المدرس من السلطان، لكن على العموم أن مستواهم المعيشي كان رفيعاً [265] ووفرت لهم معيشة كريمة في المجتمع لذلك نالوا بالأحترام والتقدير، وقد حصل البعض منهم ولا سيما الذين كلفوا بتعليم أولاد السلاطين وتأديبهم على مساحات من أراضي السلاطين وخراجهم.[266]

- **مكانة المرأة في الدولة الرسولية**

نالت المرأة اهتمام سلاطين الدولة الرسولية وأتيحت لها فرصة المشاركة في تطوير المجتمع، حيث عملت ما بوسعها من اجل تطوير التعليم والنهوض به، فضلاً عن دورها في بناء الأسرة وتنشئتها التنشئة الصحيحة، وقد جاءت في مقدمة النسوة نساء الأسرة الرسولية من زوجاتهم وبناتهم وأخواتهم وأمهاتهم السلاطين، اللواتي بذلن الجهود وصرفن الأموال الطائلة من أجل ازدهار حركة التعليم، ونذكر بهذا الخصوص بعض النماذج من تلك النسوة ومنهن الحرة لؤلؤة بنت يحيى بن أحمد العنسي زوجة الأمير شمس الدين علي بن رسول التي عمّرت المدرسة العومانية في منطقة جبله، والحرة زوجة السلطان المنصور وأم ولده المظفر الأول التي بنت المدرسة السيفيه في زبيد [267]، والفاضلة الدار النجيمي ابنة علي بن رسول أخت السلطان المنصور وعمة السلطان المظفر الأول التي بنت من أموالها العديد من المدارس في مدن يمنية مختلفة وكانت من الصالحات المحسنات، ويرجع إليها تأسيس المدرسة النجمية في جبله ولها المدرسة الشرفية نسبة إلى أخيها شرف الدين الذي توفي في مصر والمدرسة الشهابية نسبة إلى أخيها أحمد شهاب الدين.[268]

وشاركت زوجات السلاطين في تعزيز الصروح العلمية كذلك، فتأتي جهود الحاجة المصونة دار الأسد ابنة الأمير أسعد الدين محمد بن الحسن رسول وهي أم ولده الواثق، فقد بنت مدرسة في مدينة تعز في منطقة المهيال وعرفت باسم المدرسة الأسدية، وقد بنت زوجته الثانية الحرة مريم ابنة الشيخ الشمسي التي عرفت بأنها من أعقل النساء التي بنت مدرسة السابقية في زبيد وكان يطلق الناس عليها العفيفة أو مدرسة مريم، لحسن نظام التعليم فيها ورصانة كادرها التدريسي.[269]

وساهمت بنات السلطان المظفر الأول في عملية بناء المدارس وإعمارها حيث تم بناء المدرسة الأشرفية والواثقية في زبيد وتسمى احياناً بإسم المدرسة النورية [270]، وكذلك الحال يقال على بنات السلطان المؤيد اللواتي بذلن جهوداً كبيرة في بناء المدارس والتصدق على المحتاجين، وقدمت أم السلطان المجاهد دوراً مشهوداً في الحركة العلمية التي شهدتها مدينة زبيد فقد أسست مدارس الصلاحية الأولى والثانية والثالثة فضلاً عن مدرسة السلامة[271]، ولا شك أن كل تلك الجهود انصبت في تنشيط حركة التعليم وتركت المرأة مشاركة فاعلة فيها لذا جاءت نهضة علمية وفكرية سجّلها التاريخ لسلاطين الدولة الرسولية في اليمن خلال قرنين وثلاثة عقود من الزمن.

شهدت الأسرة في الدولة الرسولية روابط أجتماعية قوية رسّخت من خلال مشاركة المرأة في إرشاد أفراد أسرتها توجيهم، وحرصها الدائم على متابعة متطلباتها، وعليه فأن مثل هذه الخصائص

الأسرية قد أنعكست على تماسك المجتمع وحافظت على أصالة هويته، لذا كانت المرأة حريصة على أن يحصل أبناؤها على قسط من التعليم على الرغم من التفاوت المادي والمعيشي بين الأسر.[272]

هكذا تركت لنا الدولة الرسولية في اليمن تاريخاً وتراثاً وآثاراً عظيمة، شدت الباحثين والطلبة الدارسين عن البحث في كنوزها، عبر واجهات مختلفة الأغراض السياسية والاقتصادية والاجتماعية والحضارية، ومع ذلك تبقى الحاجة قائمة إلى مزيد من البحث والدراسة الموضوعية البعيدة عن الأهواء والعواطف الذاتية التي قد تنساق وراء المصادر والمراجع التي كتبت عنها بسبب طموحات ذاتية مرحلية زائلة.

هوامش الفصل الثاني ومصادره

(1) محمد بن يحيى الفيفي، الدولة الرسولية في اليمن، دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية 803- 827هـ/1400-1424م، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005، ص29.

(2) حسين بن علي الويسي، اليمن الكبرى، ج1، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء 1919، ص278.

(3) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص ص29، 30.

(4) جبلة بن الأيهم، هو جبلة بن الحارث بن أبي شمر من آل جفنه واسمه المنذر بن الحارث ذات القرطين وكنيته أبو جبله أبو المنذر الغساني، وكان ملك غسان وهم نصارى العرب في أيام هرَقل، ينظر، الموسوعة العربية على الرابط الآتي: http:ll www.arab.ency.com

(5) موسوعة المعرفة على الموقع: http:ll www.marefa.org (6) الكتاب في الأصل أطروحة دكتوراه حصل عليها الباحث من جامعة الإسكندرية عام 1980 وكان في الأصل بعنوان ((اليمن فيما بين نهاية الدولة الأيوبية والفتح العثماني)).

(7) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما 628-923هـ/1231- 1517م، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، 1989، ص40.

(8) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص16.

(9) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص32.

(10) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص27.

(11) موسوعة المعرفة على الرابط: http:ll www.marefa.org

(12) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص27.

(13) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص51.

(14) المصدر نفسه، ص52.

(15) المصدر نفسه، ص62.

(16) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص33.

(17) حيس، مدينة تقع في سهول تهامة إلى الجنوب من مدينة زبيد.

(18) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص66-67.

(19) EL- khazrejiyy,The pearl – strings,A History of the Resuliyy Dynasty of yemen Ed by – E.G Browne Gibb, Memorial serics, 3 Vols,London ,1906. .p.44

(20) وصاب، هو جبل محاذ لمدينة زبيد وتقع فيه مجموعة من القرى والمدن والحصون، ينظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج8، ص425.

(21) ريمه بلد معروف باليمن تقع على الشرق من مدينة بيت الفقيه، وهي الجبال الواقعة بين وادي يرع شمالاً ووصاب جنوباً، ينظر، الويسي، المصدر السابق، ص191.

(22) حرض، مدينة تقع في سهول تهامة، على وادي حرض المعروف، وهي تابعة الى قضاء ميدي، الويسي، المصدر السابق، ص191.

(23) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص35.

(24) القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص13.

(25) راجع الفصل الأول من الكتاب.

(26) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 74.

(27) مدينه القحمه، تقع على بعد خمسة أميال شمال مدينة بيت الفقيه، ينظر، محمد عبد العال، المصدر نفسه، هامش (5)، ص74.

(28) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ص69.

(29) .Kay. H.c,yemen ,its early Mediaeval History,London, 1882,p.319

(30) راجع الفصل الأول.

(31) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص46.

(32) المصدر نفسه والصفحة ذاتها.

(33) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص41.

(34) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص40.

(35) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 87. ينظر ملحق سلاطين بني رسول في اليمن. ملحق رقم (5).

(36) تاريخ اليمن في الدولة الرسولية، المخطوط العربي برقم 4609 المكتبة الوطنية في باريس، حقّقه ووضع مقدمته وعلق عليه هيكوايش ياجيما، طوكيو، 1976، ص50 وسأرمز له في الهوامش التالية بإسم المخطوط العربي 4609، الدولة الرسولية.

(37) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 90.

(38) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، القاهرة، 1970، ص106.

(39) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 91.

(40) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص ص301-302.

(41) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص47.

(42) المصدر نفسه، ص47.

(43) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 95.

(44) المصدر نفسه، ص96.

(45) جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن التغري بردي ت874هـ/1469م، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج8، القاهرة، 1970،ص73.

(46) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 99.

(47) لقمان، المصدر السابق، ص77.

(48) المصدر نفسه، ص77.

(49) عبد الله بن عبد الوهاب الشحامي، اليمن الإنسان والحضارة، ط3، بيروت، منشورات المدينة 1986، ص145.

(50) المخطوط العربي، الدولة الرسولية، ص5.

(51) أبو مخرمه، تاريخ ثغر عدن، ج2، 178.

(52) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 100.

(53) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص58.

(54) المصدر نفسه، ص 60.

(55) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 113.

(56) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(57) محمد بن محمد زبارة، أئمة اليمن، ج1، تعز، 1372، 162.

(58) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص45.

(59) أحمد فضل بن محسن العبدلي، هدية الزمن في أخبار لحج وعدن، دار العودة، بيروت، ط2، 1980، ص76.

(**60**) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 109.

(**61**) **الخزرجي**، العقود اللؤلؤية، ج1، ص89.

(**62**) **محمد الفيفي**، المصدر السابق، ص48.

(63) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص89.

(64) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 121.

(65) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص9.

(66) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص51.

(67) زبارة، المصدر السابق، ج1، ص164.

(68) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص112.

(69) المصدر نفسه، ص118.

(70) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 140.

(71) زبارة، المصدر السابق، ج1، ص173؛ kay,op.cit.p.231

(72) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 146.

(73) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص134.

(74) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص13.

(75) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص134.

(76) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 149.

(77) موسوعة المعرفة على الموقع: http:ll www.marefa.org

(78) زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص193.

(79) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 153.

(80) المصدر نفسه، ص155.

(81) المصدر نفسه، ص158.

(82) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص248.

(83) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص161، 162.

(84) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص21.

(85) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص303.

(86) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص53.

(87) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص77.

(88) ابن التغري بردي، النجوم الزاهرة، ج8، ص73.

(89) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص21.

(90) نقلاً عن محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 163.

(91) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص285.

(92) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص77.

(93) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص55.

(94) زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص207.

(95) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص22.

(96) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص57.

(97) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص299.

(98) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص22.

(99) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 167.

(100) بامخرمه، ثغر عدن، ص106.

(101) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص58.

(102) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 169.

(103) المصدر نفسه، ص170.

(104) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص309.

(105) المصدر نفسه، ص311.

(106) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص22.

(107) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 172.

(108) المصدر نفسه، ص173.

(109) المصدر نفسه، ص174.

(110) محمد الفيفي، ينظر هامش (1)، ص59.

(111) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص80.

(112) ينتسب معظم أشراف المخلاف السليماني إلى سليمان بن عبد الله الشيخ الصالح بن موسى الجوف بن عبد الله المحض وليس إلى سليمان بن داود بن الحسن المثنى كما زعم البعض، ويشكّل المخلاف السليماني اليوم منطقة جازان الواقعة في جنوب غرب المملكة العربية السعودية في الوقت الحاضر (عسير ونجران)، وكان يشكّل منطقة واسعة تمتد من منطقة حلي بن يعقوب في الشمال إلى ما وراء مدينة حرض في الجنوب ويتكون من مخلافين هما مخلاف عثر أو عثّر الواقع إلى الشمال من جازان وعاصمته عثر التي نسب إليها، ومخلاف حكم الذي يلي مخلاف عثر من الجنوب وعاصمته مدينة حرض المعروفة حالياً اليمن، وفي الثلث الأخير من القرن الرابع الهجري استطاع سليمان بن طرف الحكمي أن يوحّد المخلافين نسبة إليه،

ينظر، محمد الفيفي، المصدر السابق هامش رقم (4) ص59؛ كذلك صباح مهدي رميض، إمارة عسير، ص27؛ محمد بن أحمد عيسى العقيلي، المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، ج2، القاهرة، 1961، ص27.

(113) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 174.

(114) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص328.

(115) المصدر نفسه، ص418.

(116) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص23.

(117) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص304.

(118) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ص89.

(119) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(120) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص61.

(121) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص2.

(122) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 186.

(123) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، ص88.

(124) أبو مخرمه، ثغر عدن، ص140.

(125) زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص222.

(126) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص24.

(127) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 188.

(128) ينظر الموسوعة الحرة الويكيبديا على الرابط الآتي: http:ll. ar. Wikipedia.org

(129) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 191.

(130) المصدر نفسه، ص192.

(131) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص81.

(132) المصدر نفسه، ص81.

(133) محمد الفيفي، المصدر نفسه، ص64.

(134) playfair, Robet Lambert, A History of Arabia Felix or yemen selection from the record of Bombay Government,Bombay, 1859.p.91.

(135) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص62.

(136) المصدر نفسه، ج2، ص45.

(137) لمزيد من التفاصيل عن ظروف الحملة التي أرسلها السلطان المملوكي في مصر لنجدة السلطان المجاهد يراجع، ابن التغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص84؛ أبو مخرمه، ثغر عدن، ج2، ص142.

(138) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص 196، 197.

(139) المصدر نفسه، ص198.

(140) حصن السمدان يقع على مسافة 64كم جنوب غرب مدينة تعز كما يبعد عن مركز مدينة الحجرية 15 كم. محمد الفيفي، هامش (4) ص64.

(141) ابن التغري بردي، النجوم الزاهرة، ج9، ص202.

(142) تولى إدارة مكة مرات عدة وكان بعضها بالشراكة وبعضها مستقلاً، كان أبرزها انفراده بالإمارة عام 738-746هـ/1337-1345م، توفي في شهر ذي القعدة عام 746هـ/1345م، ينظر، الفيفي، هامش رقم (6) ص ص65، 66.

(143) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص27.

(144) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص70.

(145) المصدر نفسه، ص73.

(146) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(147) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص ص66، 67.

(148) المصدر نفسه، ص67.

(149) أبو مخرمه، ثغر عدن، ج2، ص148.

(150) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص27.

(151) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 69.

(152) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص ص85، 86.

(153) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 69.

(154) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 208.

(155) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص105.

(156) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 211.

(157) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص112.

(158) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 72.

(159) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص29.

(160) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص131.

(161) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص 212، 213.

(162) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 73.

(163) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص145.

(164) محمد زبارة، ائمة اليمن، ج1، ص264.

(165) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص37.

(166) حمزة علي لقمان، تاريخ عدن، ص101.

(167) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص164.

(168) نقلاً عن محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 73.

(169) والدة السلطان الأشرف الثاني وهي ابنة جمال الدين طي بن عبد الله الأفضلي البركاتي، سجّلت بإسمها الكثير من المآثر الحسنة منها بناء مسجد على دارها في تعز سُمي (مسجد دار الأزمان) وتصدقت على الكثير من الفقراء والمساكين واعتقت الكثير من الجواري توفيت في عام 784هـ/1382م، ينظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص470 وكذلك الفيفي، هامش (5) ص76.

(170) محمد الفيفي، المصدر نفسه، ص 71.

(171) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص ص174، 175.

(172) المصدر نفسه، ص166.

(173) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبني طاهر، ص 218.

(174) المصدر نفسه، ص219.

(175) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ج2، ص534.

(176) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص 204.

(177) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 78.

(178) زبارة، أئمة اليمن، ج1، ص28.

(179) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص225، 226.

(180) المخطوط العربي، 4609 الدولة الرسولية، ص67.

(181) ينظر تسلسل رقم (7) في سلاطين بنو الرسول في عبد الله الثور، المصدر السابق، ص306.

(182) تناول الباحث محمد الفيفي، سيرة السلطان الناصر تفصيلها وهي موضوع رسالته للماجستير وطبعتها الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005.

(183) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 227.

(184) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(185) يحيى بن الحسين، أنباء الزمن، ج2، ص562.

(186) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص ص114، 115.

(187) المصدر نفسه، ص115.

(188) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص85.

(189) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص563.

(190) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 230.

(191) المصدر نفسه، ص231.

(192) المصدر نفسه، ص231.

(193) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص ص116، 117.

(194) المصدر نفسه، ص120.

(195) المخطوط العربي، المرقم 4609 الدولة الرسولية، ص118.

(196) نقلاً عن محمد عبد العال أحمد، المصدر نفسه، ص 232.

(197) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(198) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 232.

(199) المصدر نفسه، ص233.

(200) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(201) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص567.

(202) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 235.

(203) حمزة علي لقمان، تاريخ عدن، ص105.

(204) ابن التغري بردي، حوادث الدهور، ص367.

(205) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص587.

(206) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 237.

(207) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(208) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 238.

(209) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص580.

(210) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص87.

(211) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 242.

(212) المصدر نفسه، ص242.

(213) المصدر نفسه، ص243.

(214) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http:ll www.marefa.org

(215) حمزة علي لقمان، تاريخ عدن، ص108.

(216) ظروف وصول الأسرة الطاهرية لحكم اليمن وسنعالجها تفصيلياً في الفصل الثالث من الكتاب إن شاء الله.

(217) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص 243.

(218) أحمد فخري، اليمن ماضيها وحاضرها، مراجعة وتعليق عبد الحليم نور الدين، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1975.

(219) ينظر المقال " الدولة الرسولية " على موقع صحيفة التجمع على الرابط الآتي:

.http:ll www.attagammua.net

(220) ابو الحسن علي بن الحسين المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، 1417هـ، ج2، ص67.

(221) فارس بن صالح الذكري، النشاط الزراعي في تعز في عهد الدولة الرسولية، دراسة منشورة في موقع مدونة النويهي على الرابط الآتي: http:ll alnwaihi.maktoobblog.com.

(222) مدونة النويهي، المصدر نفسه.

(223) المصدر نفسه.

(224) يوسف بن يعقوب بن مجاور (ت 630هـ/1232م) صفة بلاد اليمن ومكة والحجاز المسمى تاريخ المتبصر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج1، ص27.

(225) مدونة النويهي، المصدر السابق.

(226) المصدر نفسه.

(227) المصدر نفسه.

(228) المصدر نفسه.

(229) المصدر نفسه.

(230) المصدر نفسه.

(231) مؤلف مجهول، نور المعارف، ج1، ص372 ؛ مدونة النويهي.

(232) مدونة النويهي، المصدر السابق.

(233) العنسي، وهو نوع من الحبوب أشبه بالحنطة له قشرتان ويدخل في عمل الخبز.

(234) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص 172؛ القلقشندي، صبح الأعشى، ج15/5.

(235) ابن مجاور، تاريخ المستبصر، ص185؛ مدونة النويهي.

(236) كتاب ملح الملاحة، ص174، نقلاً عن النويهي.

(237) محمد بن أحمد البيروتي، الجماهر في معرفة الجواهر، دار عالم الكتب، بيروت، د.ت، ص270.

(238) تعز نت على الرابط الآتي: http:ll www.taz.net.

(239) ليلى العامري، المصدر السابق، ص97.

(240) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص8؛ أبو مخرمه، ثغر عدن، ج1، ص22.

(241) محمد العزاوي، الجمهورية العربية اليمنية، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1975، ص77.

(242) حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط2، دار العودة، بيروت، 1981، ص161.

(243) محمد كريم إبراهيم الشمري، المصدر السابق، ص240.

(244) ينظر، منتديات المغترب اليمني على الرابط الآتي: http:ub.m.yemen.com

(245) ينظر، منتديات ستار تايمز، السياحة العربية على الرابط الآتي:
http:ll www.stantimes.com .

(246) ينظر مركز المعلومات / محافظة تعز على الموقع: http:ll www.taizgov.com

(247) عن النشاط التجاري وأهميته فيما يخص عدن خلال عهد الدولة الرسولية، ينظر، محمد منصور علي بلعيد، رسالة ماجستير، جامعة عدن 2008، متاحة على موقع واتا على الرابط الآتي: http:www.wata.cc.

(248) المصدر نفسه.

(249) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 91.

(250) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص234.

(251) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص ص56، 57.

(252) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص285.

(253) أبو مخرمه، ثغر عدن، ج2، ص183.

(254) الأفضل الرسولي، نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405هـ/1985، ص50.

(255) أبو مخرمه، ثغر عدن، ج2، ص139.

(256) محمد الفيفي، هامش (4)، ص 75.

(257) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص180.

(258) شاكر محمود عبد المنعم، الملك الأشرف إسماعيل الغساني وجهوده الثقافية، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، ع8، 1978، ص ص104، 113.

(259) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 91.

(260) المصدر نفسه، ص98.

(261) عدّ البعض من الباحثين أن عصر الدولة الرسولية هو العصر الذهبي لإنشاء المدارس وتأسيسها التي انتشرت ليس فقط في المدن الرئيسة وإنما في المدن الصغيرة والقرى البعيدة، وتجاوز عددها أكثر من مئة وخمسين مدرسة، منها المنصوريتان العليا والسفلى والفرحانية والياقوتية والجبرية بمدينة زبيد والأسدية في مدينة آب والأشرفية في تعز، لمزيد من التفاصيل ينظر، عبد الله عبد السلام الحداد، المدارس اليمنية نشأتها – وظائفها – عماراتها- أنواعها، متاح على الرابط الآتي: http://faculty.k.s.u.edu.sa

(262) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 91.

(263) الحياة العلمية في اليمن خلال القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي (عصر الدولة الرسولية) رئاسة الجمهورية اليمنية، المركز الوطني للمعلومات متاح على الرابط الآتي: .http://www.yemen.nic.into

(264) الإدارة التربوية في العصر الرسولي، على موقع رئاسة الجمهورية اليمنية، المركز الوطني للمعلومات، المصدر نفسه.

(265) طه حسين هدُيل، الحياة الاجتماعية في اليمن في عصر الدولة الرسولية، منتدى آبين، حلقة (11) متاح على الرابط الآتيhttp://www.abanboard.net:.

(266) محمد الفيفي، المصدر السابق، ص 97؛منتدى آبين، المصدر السابق، الحلقة (11).

(267) منتدى آبين، الحياة الاجتماعية في اليمن في عصر الدولة الرسولية، ح15.

(268) أظهرت المرأة الرسولية وتحديداً زوجات السلاطين اهتماماً ببناء المساجد والمدارس، ومنهن الدار الشمسي ابنة السلطان المنصور عمر أول سلاطين الدولة الرسولية، ولا زالت أكثر من ثلث المباني المتبقية في مدينة تعز وزبيد قد بُنيت بنفقات نساء الدولة الرسولية، ينظر، ملتقى المرأة للدراسات والنشر والتدريب، تعز، على الرابط الآتي: http://www. wfnt.org

(269) الحياة الاجتماعية في عصر الدولة الرسولية، منتدى آبين، ح15.

(270) منتدى ابين، المصدر نفسه، ح15.

(271) لم يقتصر الاهتمام بالتعليم والمدارس في عهد الدولة الرسولية من قبل أمهات السلاطين وزوجاتهم وأخواتهم فحسب بل شاركت جواري نساء سلاطين بني الرسول في بناء المدارس وتعميرها وبذلن أموالاً كثيرة اقتداءً بسيداتهن مثل ماشطة الحره بنت حوزه التي تنسب إليها المدرسة الشقيرية في مدينة الجند والمدرسة الزاتية المنسوبة لأحدى وصيفات دار النجمي في ذي جبله، كما شاركت بعض النساء من العامة أيضاً ومنهن سيدة بنت أحمد النظاري التي بنت مدرسة النظاري في عزلة الحرث في مدينة اب، ينظر، المصدر نفسه، ح15.

(272) منتدى آبين، الحياة الاجتماعية في عصر الدولة الرسولية، ح، (11).

الفصل الثالث

الدولة الطاهرية في بلاد اليمن

أولاً : الدولة الطاهرية – مرحلة النشوء وتطور بناء الدولة 894-856هـ/ -1454 1489م

ثانياً : الدولة الطاهرية مرحلة النهوض والارتقاء 911-894هـ/ -1489 1505م

ثالثاً : مرحلة تدهور الدولة الطاهرية وانحطاطها 945-911هـ/ -1505 1538م

- الطاهريون في مواجهة المماليك الشراكسة
- نهاية الدولة الطاهرية وسقوطها

رابعاً : النشاط الاقتصادي والتراث الحضاري للدولة الطاهرية في اليمن .

أولاً: الدولة الطاهرية.... مرحلة النشوء وتطور بناء الدولة 1454-1489م

اختلفت المصادر التاريخية بشأن بيان إشكالية نسب الطاهريين، فمنها تسندهم وتجعلهم فرعاً من الدولة الأموية من قريش، ويعدونهم من سلالة الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد أيّد هذا الرأي، المؤرخ ابن الديبع الشيباني في كتابه ((المفضل المزيد على بقية المستفيد في أخبار زبيد)) الذي حققه الدكتور يوسف شلتت، ص121، وأيّد هذا الرأي كذلك أبو محمد عبد الله الطيب أبو مخرمة في كتابة قلادة النحر، وكذلك عماد الدين القرمطي في كتابه (روضة الأخبار ونزهة الأسمار في حوادث اليمن الكبار والحصون والأمصار) الذي حقّقه المؤرخ محمد بن علي الاكوع الحوالي[1]، كما أيّد بعض المؤرخين المحدثين هذا الرأي أيضاً[2].

أما مؤرخ الدولة الطاهرية ومتابع سيرتهم المعاصر الدكتور محمد عبد العال أحمد فلديه شك كبير في إحالتهم إلى النسب الأموي ويفند ذلك بوجهتي نظر، الأولى تقول أن العباسيين قد عملوا على استئصال الأمويين لا سيما في البلاد التي خضعت لسيطرتهم، وكانت بلاد اليمن من جملة مناطق نفوذهم، إذ كان يتولاها نواب من قبلهم، وحرص هولاء كغيرهم من النواب العباسيين في الولايات الأخرى على التخلص من بقايا البيت الأموي[3]، والثانية أن المصادر التي أشارت إلى النسب الطاهري لم تسلط الضوء عن كيفية وصولهم إلى اليمن خلال القرن التاسع الهجري أو ما قبله[4].

أما المؤرخ ابن التغري بردي فيقول إنهم من القبائل القرشية، وهذا الرأي فيه الكثير من المغالطات حيث أن القبائل القرشية قد استوطنت في أسفل وادي رمح في تهامة إلى الشمال من زبيد واليهم ينتسب أفراد قرية القرشية، أما بنو الطاهر فاستوطنوا في مدن المقرانة وجبن في مخلاف رادع، وهنا يتضح اختلاف مواقع السكن والاستقرار، ولعل الأمر الآخر الجدير بالانتباه هو أن القبائل القرشية كانت من أكثر قبائل اليمن اضطراباً أيام حكم الدولة الرسولية[5]، ولذلك فإنه من المستبعد أن يطمئن بنو الرسول إلى الطاهريين أو يعتمدون عليهم إذ كانوا فعلاً من تلك القبائل (القرشية)، ثم أن معارضة القرشيين ظلت مستمرة حتى في أثناء حكم الدولة الطاهرية وبذل سلاطينها جهوداً كبيرة من اجل إخمادها، لذا فأن بني طاهر إذا كانوا ينتسبون حقيقة إلى القرشية لما أقدم هؤلاء على الثورة والتمرد ضدهم[6].

وهناك رأي آخر يرجعهم إلى قبيلة الذراحنة الحميرية في منطقة جبن (محافظة الضالع حالياً) وهو الرأي الأقرب إلى الدقة[7]، وبذلك فهم من أهل اليمن عملوا بالزراعة والتجارة[8].

دخل آل طاهر في خدمة سلاطين الدولة الرسولية في بدايات القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي، وبصورة متدرجة حتى نالوا احترامهم وأصبحوا أمناء ووكلاء على التجارة ولا سيما في عدن(9).

وفي عهد السلطان الناصر أحمد بن إسماعيل الرسولي الذي ارتبط بعلاقات طيبة مع الشيخ معوضه بن تاج الدين جد الأسرة الطاهرية الذي وفد عليه وأحسن إكرامه، وأوكل له مهمة إقرار الأوضاع في مدينة المقراتة وبقية المناطق في مخلاف رادع، ثم تواصل في مواجهة الخطر الزيدي، لا سيما أن مساعي التعاون ظلت قائمة فيما بينهم(10).

بعد أن توطّدت العلاقات بين بني الرسول وبني طاهر، توافدت أعداد من أسرة آل طاهر واستقروا في مدينة تعز وهي عاصمة الدولة الرسولية في عام 835هـ/1431م، حتى أن الشيخ علي بن طاهر قد مثل أمام السلطان الطاهر يحيى بن الأشرف إسماعيل الرسولي فأكرمه كما حصل مع والده من قبل، وزادت أواصر العلاقات بين الطرفين بعد المصاهرة التي حصلت بزواج السلطان الناصر من ابنة الشيخ طاهر بن معوضه، ولا شك أن هذه المصاهرة قد فتحت الأبواب لمزيد من النفوذ لبني طاهر الذين ساهموا في الأحداث التي شهدتها اليمن أواخر حكم الدولة الرسولية(11).

استغل بنو طاهر حالة التراجع والتدهور التي شهدتها الدولة الرسولية في أواخر عهدها، وشعروا بعدم قدرتها على مواصلة الدفاع عن نفسها، بعد أن ظهرت علامات الانقسام والتفتت، وضعف ولاء الجند، لذلك فرضوا سيطرتهم على مدينة عدن واحتلالها بعد أن انسحب آخر ملوك بني رسول الملك المسعود في 23 رجب عام 858هـ/1454م(12)، وبعد دخولهم المدينة والسيطرة على الحصون أمنوا أهلها وحاولوا كسبهم لصالحهم حتى حصلوا على تأييدهم وولائهم وهذا الأمر لا شك حفزهم على مواصلة السيطرة على مدن أخرى ومنها مدينة زبيد(13).

أرسل السلطان الطاهري الأمير زين الدين الشيلي إلى مدينة زبيد، وعند وصوله إلى مدينة موزع راسل المماليك يستأذنهم الوصول إلى المدينة والإقامة بها فأذنوا له بعد تردد، فوصل إليها وأظهر إخلاصه لهم وعرف حقيقة أحوالهم، ثم كتب إلى الملك المجاهد الطاهري، يبلغه عن مواقف أبناء تهامة ومدينة جيس المؤيد له، ثم بعد ذلك وصل إلى مدينة زبيد ودخلها بدون قتال(14) ثم ذكر اسم السلطان الطاهري في خطبة يوم عيد الأضحى الذي صادف في ذي الحجة عام 859هـ/تشرين الثاني 1455م(15)، وهكذا استطاع بنو طاهر من إقامة دولتهم على أنقاض دولة بني الرسول وبدأت مرحلة لا تخلو من الصعوبات هي مرحلة بناء الدولة (مرحلة التأسيس).

- الحكم المشترك للسلطان الظافر عامر الأول وأخيه المجاهد علي بن طاهر

استطاع الأخوان الظافر عامر الأول وأخوه المجاهد علي بن طاهر من الإيقاع بالملك الرسولي المؤيد في عدن، ثم بعد ذلك عملا على تنظيم قيادة أتباعهما، ومن ثم الارتقاء بمهام الدولة الجديدة التي بنيت على أنقاض دولة بني الرسول، وبذلك تمت إدارة شؤون السلطنة بصورة مشتركة، على الرغم من أن السلطان الظافر عامر استأثر بالخطبة والسكة دون أخيه على الرغم من كونه الأصغر، ويبدو أن هذا الأمر قد حصل بموافقة أخيه ورغبته وبقى هذا الأمر حتى عام 861هـ/1459م ثم تحولت الخطبة والسكة بأصم المجاهد علي في جميع أنحاء البلاد، ويظهر أن هذا الأمر قد جاء بموافقة أخيه الظافر عامر [16].

هنا يثار السؤال لماذا هذه الصيغة المشتركة في طبيعة الحكم ؟ ويبدو انها كانت خطوة في تجنب محنة الصراعات الأسرية والاستفادة من تجربة الدولة الرسولية والدول التي سبقتها في حكم البلاد، فضلاً عن ذلك أنها محاولة في إسناد الأخوان بعضهم البعض في بناء دولتهم الفتية المهدّدة بسلسلة من الأخطار في مقدمتها خطر الإمامة الزيدية.

بقي السلطان المجاهد في مدينة زبيد مدة عامين في مدينة زبيد، ثم عاد بعدها إلى عدن لمواجهة حملة السلطان محمد بن سعيد فارس أبو دجانه صاحب منطقة الشحر الذي وصل بتسع قطع بحرية هدفها احتلال مدينة عدن[17]، مستغلاً الفتنة الداخلية ما بين القبائل اليافعية (آل حمد وآل كلد)، بعد أن وقف الشيخ الطاهري إلى جانب آل حمد، والتجأ الشيخ الكلدي إلى الأمير أبو دجانه ووعده بأنه سيقدم له العون والمساعدة[18].

لكن القوات الطاهرية استطاعت من إلقاء القبض على أبو دجانه وقتل الشيخ الكلدي، بعدها فرضت القوات الطاهرية سيطرتها على النصف الشرقي من مدينة الشحر [19]. أما القسم الغربي منها فقد أناب أبو دجانه والدته (بنت معاشر) عليها التي وصفت بأنها امرأة ذات شخصية مؤثرة موصوفة بالشجاعة والعزم، فأحسنت إدارة بلادها بعد أن أُعلن عن أسر ولدها، وبعدها توجهت إلى مدينة عدن، وقدّمت تنازلها عن مدينة الشحر إلى ابن طاهر مقابل إطلاق سراح ولدها، وعلى الفور كانت موافقة السلطان الطاهر عامر على العرض الذي تقدّمت به، فأمر بإطلاق سراح ولدها من السجن وسلمت الشحر إلى نائب بني طاهر[20]، وعند ذاك أذن لهما بالعودة إلى بلدهما، لكن ما تتناقله الروايات هو أن أبا دجانه قد سقي السم على يد أحد أمراء أسرة بني طاهر وتوفي على أثره، وعلى هذا النحو دخلت مدينة الشحر تحت سيطرة الدولة الطاهرية [21].

أُسندت مهمة إدارة المدينة بعد ذلك إلى الأمير جياش بن السنبلي عام 863هـ/1459م، الذي دخلها نيابة عن بني طاهر في ذي القعدة من العام نفسه وظلت تحت حكمهم حتى عام 866هـ/1463م[22].

استقرت الأوضاع في مدينة الشحر وأُعطيت الفرصة المناسبة لبني الطاهر للتفرغ في مواجهة الخطر الزيدي في المناطق الشمالية وذلك استكمالاً لسلسة المواجهات السابقة التي حصلت ما بين علي بن الطاهر والإمام الزيدي الناصر بن محمد 814-865هـ/ 1437-1462م، الذي حاول من مدينة ذمار تهديد الدولة الطاهرية، وقد انتهت هذه المواجهات بأسر الإمام الزيدي وإيداعه السجن حتى وفاته عام 865هـ/1462م، إلا أن حالة الترقب وعدم الاستقرار ظلت قائمة بين الجانبين[23].

أبدى السلطان الظافر عامر الطاهري نشاطاً واستعداداً لمواجهة الإمام الزيدي في صنعاء، ففي ذي القعدة عام 870هـ/ حزيران 1466م خرج من مدينة عدن بناءً على رسالة وصلته من بعض القبائل هناك تؤيد مساعدته في حالة هجومه على المدينة، إلا أن أخاه المجاهد علي قد حذّره من ذلك وعدّ ما يقوم به عمل غير محسوب النتائج وهو مغامرة، وبيّن له أن مثل هذا العمل قد يكون خدعة ومكيدة من تلك القبائل [24].

كان السلطان الظافر عامر مصراً على ما عزم القيام به، فجهّز جيشاً كبيراً وتوجه نحو صنعاء وضرب عليها نطاق من الحصار، وبالمقابل فأن القبائل التهامية أخذت الاستعدادات، بل أن الشيخ ابن شارب الهمذاني فاجأهم بهجوم مباغت، ودارت رحى معركة ضارية على أبواب صنعاء، انهزمت على أثرها قوات السلطان الظافر ولم تبق معه إلا قوات قليلة من جنده[25]، ثم قتل بعد ذلك في تلك المعركة عام 870هـ/حزيران 1466[26]، بعد مدة حكم دامت قرابة تسعة وعشرين عاماً، وكان على جانب عظيم من الدين والتقوى والسير في طاعة الله تعالى، وكان ملازماً للطهارة وتلاوة القرآن والأذكار ولا يفتر عن ذلك آناء الليل وأطراف النهار وعرف عنه انه كان كثير الصدقات وشغوفاً بفعل الخير والمبرات[27].

بعد أن قُتل السلطان الظافر اضطربت الأوضاع العامة في البلاد وأصبحت مسؤولية السلطان المجاهد علي الطاهري كبيرة وأصبح منفرداً في إدارة الدولة بعد حقبة الحكم الثنائي مع أخيه، و لا شك أن المعارضة قد استغلت هذه الأوضاع وبدأت تتحرك ضده. لذلك تعامل السلطان المجاهد علي مع هذه المتغيرات بحكمة، وقرّر الانسحاب وعدم مواجهة القوات الزيدية، ومن ثم إعادة ترتيب شؤون ملكه وملك أخيه [28].

في الوقت الذي كان فيه مشغولاً بحصار حصن حب بمخلاف بعدان، إلا أنه أحكم حصاره على الحصن المذكور بعد أن قطع القوت والمؤن عن أهله حتى أشرفوا على الهلاك، لذلك اضطروا تسليمه في رجب عام 870هـ/شباط 1466م، وبعد هذا التفوق عاد إلى مدينة عدن وبدأ بمرحلة جديدة من مراحل التهدئة وتخفيف حدة التوتر في المنطقة[29].

استغلت قبائل تهامة طبيعة المجريات التي شهدتها الدولة الطاهرية أعقاب مصرع السلطان الظافر، واستعد السلطان المجاهد علي بن طاهر لمواجهتهم وقد استنزفت منه كثيراً وظلت المعارضة على شاكلتها طوال مدة حكم الدولة الطاهرية، وعند ذاك قرّر المجاهد العودة إلى مدينة تعز ثم إلى زبيد حتى وصل إلى مدينة عدن، عامل ما بوسعه في إعادة البناء ومحاولاً كسب ود القبائل الموجودة فيها [30]. وبذلك يكون القسم الجنوبي من اليمن أصبح مستقراً تحت حكم السلطان المجاهد علي بن طاهر، في حين ظلت الأقسام الشمالية تحت إدارة الحكم الزيدي [31]. أما القبائل التهامية فجردت الحملات واحدة تلو الأخرى وظلت كذلك حتى وفاة السلطان المجاهد علي بن طاهر في عام 883هـ/ الموافق 11تموز 1478م بعد حكم دام قرابة خمسة وعشرين عاماً قضى نصفه الأول شريكاً لأخيه الظافر عامر وأنفرد في النصف الثاني منه بعرش السلطنة [32].

وجدير بالإشارة إلى أن السلطان المجاهد وقبل وفاته كان قد قرّب ابن أخيه عبد الوهاب بن داود إليه وأوكل له بعض المهام والمسؤوليات، ورأى فيه القدرة والإمكانية العالية في الإدارة، وزادت أواصر هذه الرابطة والثقة بعد أن أصيب السلطان المجاهد بالمرض الذي عانى منه، وعند ذاك أمر بتعيينه ولياً للعهد[33]، وبعد وفاته اجمع بنو طاهر على توليه مهمة إدارة السلطنة ولُقب بـ(المنصور)[34].

ونظراً لما تتمتع به عدن من أهمية اقتصادية وإستراتيجية ومصدر مالي مهم للدولة قرّر السلطان المنصور عبد الوهاب الذهاب إليها والحصول على ولائها وتأييد حكامها، فتحرك من منطقة جبن وبعد ثلاثة أيام على وفاة عمه السلطان المجاهد، وحصل على البيعة هناك من كبار رجال الدولة وقادة العسكر والحاميات والحصون فيها [35]، لكن أحمد فضل العبدلي صاحب كتاب ((هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن))له رأي في هذا الجانب حيث يقول: إن المنصور عبد الوهاب دخل عدن من غير علم أهلها ثم دخلت بعده عساكره وأقام فيها مدة من الزمن [36].

وكان لمدينة عدن خصوصيتها المختلفة عن باقي المدن حيث لا يسمح بدخول أفراد الأسرة الطاهرية إلا بترخيص من السلطان نفسه حرصاً من بني طاهر الشديد وخشيتهم من حصول صراعات وانقسامات وصراعات على العرش داخل الأسرة قد تؤدي إلى السيطرة على هذه المدينة وفي

سياق الحديث إن والي عدن قد سمح بدخول السلطان المنصور بعد أن عرض الأخير ترخيص له إجازه فيه السلطان المجاهد قبل وفاته [37]، ثم حصلت البيعة التي تمت الإشارة إليها في سياق الكلام أعلاه.

تجوّل السلطان المنصور في المدينة بصحبة مجموعة من رجالات الأسرة الطاهرية وقدّم الهبات والهدايا إلى رجال العسكر والحاميات ووعدهم بمزيد من العطاء، وقرّر نقل العاصمة من مدينة جبن رادع إلى مدينة عدن ومن ثم أعادها بعد ذلك إلى تعز [38].

لم تستمر حالة الهدوء تلك وسرعان ما ظهرت الخلافات الأسرية على الواجهة، بعد أن تولى السلطان المنصور عبد الوهاب الحكم خلفاً لعمه السلطان المجاهد، وجاءت هذه المرة من أبناء السلطان الظافر عامر بن طاهر الذين يجدون أنفسهم هم أحق بالحكم من السلطان المنصور عبد الوهاب، على اعتبار أن والدهم كان شريكاً للسلطان المجاهد وهم يرثونه في الوقت الذي لم يكن للسلطان المجاهد عقب.[39]

إلا أنهم بايعوا المنصور وأيدوا عمهم عندما وقع اختياره عليه، لكنهم بعد وفاة عمهم نقضوا العهد واستغلوا فرصة خروج السلطان المنصور عبد الوهاب إلى عدن، أعلن يوسف بن الظافر عامر إنشقاقه وخروجه على طاعة السلطان المنصور في مدينة زبيد واتخذها قاعدة له وأسسها لأن تكون هي قاعدته ينطلق منها بالسيطرة على المناطق الأخرى ومن بعد ذلك يمهد بالاستيلاء على مقاليد السلطة، لذا عمل على إبطال ذكر اسم السلطان المنصور في خطبة يوم الجمعة في مدينة زبيد وجعلها عامة باسم الأسرة الطاهرية.[40]

علم السلطان المنصور عبد الوهاب بحركة التمرد التي قام بها يوسف بن الظافر عامر في مدينة زبيد، فأسرع بإعداد قوة وسار بها إلى المدينة ووصلها في جمادي الأولى عام 883هـ/الموافق آب 1478م[41]، وبدأ السلطان المنصور عبد الوهاب بمخاطبة يوسف بن عامر حاثهُ على العودة إلى الطاعة، لكنه رفض ذلك وظل متمسكاً بما أقدم عليه، بل عمل على استمالة المماليك المتواجدين في داخل مدينة زبيد وأمرهم بالخروج خارج المدينة والتهيؤ لمواجهة قوات السلطان القادمة، لكن هؤلاء انقلبوا عليه وانضموا إلى قوات السلطان القادمة.[42]

هذا الأمر لا شك أنه أضعف عزيمة يوسف بن عامر، إلى جانب تمرد الكثير من القبائل عليه داخل مدينة زبيد وأظهرت رغبتها في البقاء على ولائها إلى السلطان المنصور، لذلك نصحه البعض من أتباعه بضرورة الإذعان والمصالحة وعدم الدخول في مواجهة خاسرة مع السلطان المنصور، لذلك كتب له أنه نادم على ما فعله وأبدى اعتذاره للسلطان المنصور [43]، كانت ردة فعل السلطان ايجابية واستقبل

ابن عمه يوسف بن عامر استقبالاً حسناً، وكفل له الاطمئنان وأنزله في مخيم أخيه أحمد بن عامر الذي ظل على ولائه للسلطان المنصور، وفي صباح اليوم التالي 12 جمادي الأولى 883هـ/الموافق 11 آب 1478م دخل الجميع إلى مدينة زبيد وهناك أقبلت وفود القبائل معربة عن ولائها للسلطان فأجزل لهم العطاء[44]، ثم بعد ذلك شهدت المدينة حالة من الاستقرار.

أما يوسف بن عامر فلم يطمئن جانب السلطان المنصور وظل يتوجس منه خيفة أن يغدر به، لذا طلب الأذن بالسماح له بالخروج من مدينة زبيد، وكان السلطان يرفض الطلب، إلا بعد أن تدخل أحمد بن عامر أخ يوسف الذي كان يحظى بمكانة لدى السلطان المنصور وطلب منه السماح لأخيه بالخروج فوافق السلطان على ذلك وخرج من المدينة في جمادي الأولى عام 883هـ الموافق 12 آب 1478م وركب إحدى السفن وكانت وجهته إلى الحجاز فحل لدى الشريف محمد بن بركات أمير مكة طالباً منه المساعدة في إعادة سيطرته على اليمن إلا أن الشريف رفض ذلك.[45]

بقي في مكة لمدة عام كامل ولم يحصل على المساندة المطلوبة، لذا قرّر اللجوء إلى بعض القبائل الزيدية التي كانت على خلاف مع السلطان المنصور، ومنها قبائل بني حفيص الذي رحب شيخها أحمد بن أبي الغيث به وزوّجه بابنته [46].

لا شك أن ما قام به يوسف بن عامر قد أغاض السلطان المنصور، لا سيما أنه توجه إلى أعدائه ومعارضيه لذلك أرسل حملة على قبائل بني حفيص شمالي زبيد بقيادة أحمد بن عامر أخ يوسف ودارت معركة شرسة بين قبائل بني حفيص وقوات السلطان المنصور في ذي القعدة 884هـ/الموافق حزيران 1480م وتمكن بنو حفيص من قتل أحمد بن عامر [47].

أثر حادث مقتل أحمد أبن عامر تأثيراً كثيراً في أخيه يوسف فطلب الانضمام إلى قوات السلطان ليثأر لمقتل أخيه، ودارت رحى معركة قاسية مع قبائل بني حفيص انهزمت على أثرها وعاد يوسف مع المنصور عبد الوهاب إلى مدينة زبيد منها إلى تعز [48].

لكن يظهر أن طموحات يوسف بن عامر ظلت قائمة في الوصول إلى السلطة، الأمر الذي دعا السلطان المنصور بأن يصدر أمر اعتقاله في عام 885هـ/1480م وأودعه السجن في مدينة رادع وبقي فيه حتى وفاته عام 908هـ/1502م[49].

جرت محاولات أخرى من قبل أبناء الظافر للاستيلاء على السلطة منها محاولة إبراهيم بن عامر، إلا أنها فشلت هي الأخرى، وهكذا كانت معظم جهود السلطان المنصور مكرّسة للقضاء على

منافسات خصومه لا سيما من أبناء السلطان عامر الطاهري، فضلاً عن الحركات الداخلية المعادية له واستمرت حتى وفاته في مدينة جبن رادع في اليوم السابع من جمادي الأولى عام 894هـ/نيسان 1489م ودفن فيها بعد حكم دام أحد عشر عاماً قضاها في مواجهة التحديات وحركات المعارضة لحكمه[50]، لكن مع ذلك شهدت البلاد حركة من الإعمار والبناء، فقد عمل على إعادة تنظيم الري في وادي زبيد، كما ساهم في بناء المدارس والمساجد في مختلف المدن اليمنية.[51]

ثانياً: الدولة الطاهرية مرحلة النهوض والارتقاء 904-913هـ/1489-1505م

نظراً لتصاعد حركة المعارضة الأسرية في عهد السلطان المنصور عبد الوهاب، لا سيما من أبناء الظافر عامر الطاهري، أوصى السلطان قبل وفاته بأن تكون السلطة لابنه صلاح الدين عامر، ووجّهه بأن ينقل مركز العاصمة من منطقة جبن رادع إلى المقرانه لكي يكون بعيداً عن المعارضة من جهة ولوجود تحصينات منظمة فيها من جهة ثانية [52].

وبعد وفاته بويع ابنه عامر سلطاناً على البلاد ولقب بالسلطان الظافر[53]، وترد بعض المصادر بأن لقبه (الظافر الثاني) تميزاً له عن السلطان الظافر الأول[54]، وأجريت له مراسيم الولاية والحصول على البيعة، وأخذ بالتجول في البلاد مطلعاً على أحوالها وأوضاعها العامة[55].

كانت البلاد منقسمة على أربعة مراكز قوى في البلاد الأولى وتضم عدن ولحج وآبين وحضرموت والتهائم اليمنية واليمن الأسفل حتى منطقة رادع، والثانية تضم صنعاء ومخاليفها تحت حكم الإمام الزيدي محمد بن ناصر، والثالثة وتضم بلاد الشرق والظواهر وصعده وهي مقسمة بين أولاد المؤيد وأشراف آل منصور والإمام محمد بن علي السراج الوشلي، والرابعة تضم منطقة كوكبان وملحقاتها تحت إدارة أولاد الإمام المطهر محمد بن سليمان [56]، فضلاً عن استمرار مطالبة أبناء الظافر الأول بالسلطة.

في دوامة تلك الفوضى التي مرّت بها البلاد استلم السلطان الظافر الثاني إدارة البلاد وهذا الأمر يوضح كم هي صعبة وشاقة مهمته، فبدأت تحركات أبناء الظافر الأول وهم عمر ومحمد وعبد الله، وأعلنوا تمردهم على السلطان الجديد وقامت جموع أتباعهم بنهب مدينة جبن في بلاد رادع واستولوا على حصنها، ولم يتردد السلطان الظافر الثاني في توجيه حملة كبيرة في جمادي الأولى 894هـ/نيسان 1489م للقضاء على هذا التمرد، وقد بدأ بفرض الحصار على مدينة جبن واستمر قرابة شهرين اضطر الجانبان إلى عقد صلح بينهما والتزم السلطان بإعطاء كل من محمد وعمر إقطاعيات مع مبلغ سنوي قدره (140) ألف دينار [57].

لم يكن هذا الصلح إلا مجرد هدنة مؤقتة وسرعان ما قام أبناء الظافر الأول بنقضه وعدم التمسك بما جاء به من التزام، وأشارت بعض المصادر إلى أن والدة أبناء الظافر الأول هي التي حرضت أبناءها على مواصلة التمرد ضد السلطان الظافر الثاني ودفعتهم إلى الاستمرار في مواصلة الحرب معه لذلك جرت حروب عدة في رادع وبلاد آب ولحج وعدن[58] وغيرها من المدن التي كان لأبناء الظافر الأول نفوذ فيها، ودارت معارك شديدة بين الطرفين لا سيما تلك التي وقعت في رمضان عام 894هـ/آب 1489م والتي أسفرت عن هزيمة أبن عامر ومقتل عدد من أتباعه [59].

اشتدت حركة المعارضة التي كان يدعمها أبناء الظافر الأول في بعض المخاليف العامرية، وكان الشيخ محمد بن عبد الملك أمير عدن الذي عين من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب قد استعد لمواجهة عبد الباقي بن محمد بن الطاهر الذي تقدّم لمواجهته من مدينة يافع وحصلت المواجهة بين الطرفين انتهت بهزيمة قوات عبد الباقي وعاد الشيخ محمد بن عبد الملك إلى عدن [60].

عاد عبد الباقي بن محمد بن طاهر ثانية للهجوم على مدينة عدن وبخطة هجومية جديدة حيث جلب معه مجموعة من السلالم الخشبية ليستخدمها رجاله في اقتحام الأسوار العالية وتجاوزها [61]، إلا أن تلك الخطة واجهت مقاومة عنيفة من قبل قوات الشيخ محمد بن عبد الملك الذي استعان بعدد من التجار وعمال السفن المتواجدين في ميناء المدينة وحثهم على المشاركة في مواجهة الخطر خشية على أموالهم وبضائعهم، لأنه في حال سقوط المدينة ودخول قوات ابن عامر إليها فإن أموالهم تلك ستهدر كلها، وقد نجحت خطته تلك وجرت مقاومة شديدة انسحبت على أثرها قوات ابن عامر المهاجمة بعد أن خسرت عدداً من القتلى والأسرى ولاذ عبد الباقي بن محمد بالفرار ونجا بنفسه [62].

أما قبائل تهامة فاستغلت انشغال السلطان الظافر الثاني بإخماد الحركات المعارضة لا سيما الحركات التي قام بها أفراد الأسرة الطاهرية، فأعلنت تمردها عليه، لذا ألزم السلطان بالتوجه إليهم ومحاولة القضاء على حركاتهم تلك، فأرسل ابن عمه الأمير محمد بن عبد الملك بن داود وشيخ الإسلام يوسف بن يونس الحبابي والأمير جمال الدين محمد بن علي النظاري فدخلوا في مواجهتهم، لا سيما مع قبائل الزرانيق [63]، حتى استقرت الأوضاع في تلك المناطق.

وفي مدينة زبيد حاول أبناء الظافر الأول إثارة الأوضاع ضد حكم السلطان الظافر الثاني الذي كان يتولاها الأمير محمد بن عيسى البعداني وإن معظم هذه المدن التي كانت موالية إلى عبد الله بن عامر، لذلك كانوا يميلون إليه ويخشون من فرصة إنتقامه، واستطاعوا من كسب أحمد بن محمد المعروف بلقب (المقرطس) وهو المسؤول عن دار الضرب في مدينة زبيد وكان البعداني متزوجاً من أخت المقرطس، وبحكم علاقة المصاهرة تلك كان مؤذوناً له بالدخول عليه متى ماشاء، ولذلك استغل المقرطس تلك الفرصة وتآمر على قتله ثم الاستيلاء على مدينة زبيد وإعادتها لسلطة عبد الله بن عامر[64].

شعر الوالي البعداني بخيوط مؤامرة المقرطس تلك فألقى القبض عليه وقتله، ومن ثم أخبر السلطان الظافر الثاني بذلك وطلب منه قوات تعزيزية غير القوات الموجودة لديه، فهو لا يأمن جانبها، وفي الوقت ذاته استعان بأهل مدينة وصاب فأمّدوه بقوة بخمسمائة رجل، ثم جاءت بعد ذلك قوات

السلطان [65]، شكر السلطان موقف أهل مدينة وصاب على وقفتهم وكافأهم وأغدق الهبات عليهم وأعادهم مكرمين إلى بلدهم [66].

لم تتوقف حدة المناوشات والمنازعات ما بين أبناء الظافر الأول والسلطان الظافر الثاني، لا سيما أن عبد الله بن عامر كان من أكثرهم تمرداً ومطالبة بالسلطة، فدارت معركة بين الطرفين في حصن جبن عام 895هـ/كانون الثاني 1490م، أجبر فيها عبد الله بن عامر على الأنسحاب والتراجع.

وفي عام 896هـ/آب 1491م استطاعت قوات الظافر الثاني من إلقاء القبض على محمد بن عامر بعد محاصرته وأودع في سجن رادع واستولى على كل ما كان بيده من الحصون [67].

أما عبد الله بن عامر فقد عرف مكان تواجده في إحدى قرى وادي مكسب بالقرب من مدينة يقرس من أعمال مدينة الحجرية، والقي القبض عليه وأرسل إلى مدينة تعز وأودع السجن في بلدة رادع وظل سجيناً حتى وفاته في شوال عام 907هـ/نيسان عام 1502م وباعتقاله ثم وفاته هدأت الأمور وتنفّس السلطان الظافر الثاني الصعداء وانتظم ولاء أبناء أسرة الظافر الأول إلى الظافر الثاني، وبعد ذلك تفرغ للقضاء على الحركات المعارضة له من بعض القبائل الخارجة على طاعته وأجبرهم على الدخول في طاعته وعند ذاك أجزل العطاء لمن دخل في طاعته وسخّر نفسه لخدمته. [68]

بعد النجاح الذي حقّقه السلطان الظافر الثاني في القضاء على حركات التمرد الداخلية توجه بالتوسع خارج منطقة نفوذه وكان مفتاح ذلك هو السيطرة على مدينة ذمار التي تعد مفتاح البلاد الواقعة تحت نفوذ الأئمة آنذاك فغزاها بنفسه واستولى عليها بعد حصار دام اثني عشر يوماً واشترط على أهلها تهديم الأسوار الخارجية للمدينة. [69]

يظهر أن السلطان الظافر الثاني قد عزم على مهاجمة صنعاء بعد أن شهدت بلاده حالة من الاستقرار الداخلي، وهذا ما حصل فتحرك نحو صنعاء بصفتها العاصمة والقلعة المنيعة ولا يتم فرض سيطرته على المقاطعات الشمالية إلا بالاستيلاء عليها وكانت تحت حكم الإمام السراجي والأمير محمد بن حسين الحمزي [70]، بحملة قوامها مئة وسبعون ألف جندي وثلاثة آلاف من الخيالة [71]، ووصلها في شهر محرم عام 908هـ/1503م، وخيّم عسكره في منطقة أكام الزيب جنوب صنعاء وبدأت المناوشات بين الطرفين بين قوات محمد البعداني وقوات الوشلي بقيادة الحمزي وقد أسفرت عن هزيمة قوات البعداني. [72]

أعاد السلطان هجومه على صنعاء بعد أن حاصرها قرابة ستة أشهر ورماها بالمنجنيقات، حتى ضاق أهلها وانقطع عنهم القوت وخرجوا مستسلمين وفي مقدمتهم اثنان من أولاد الناصر وعبد الله بن المطهر بن سليمان ومحمد بن عيسى شارب الذي خرج حاملاً المصحف على رأسه والكفن على عنقه، أما الإمام الوشلي فقد علم بقدوم السلطان عامر وكان خارج صنعاء وحاول التسلل إليها فتصدت له قوات السلطان وقادته أسيراً وأودع السجن في صنعاء [73].

دخل السلطان الظافر إلى مدينة صنعاء في عام 910هـ/1504م دخول المنتصرين ونقل الإمام المؤيد والأمير عبد الله بن الإمام المطهر ومحمد بن عيسى شارب الهمذاني مع عوائلهم إلى مدينة تعز وفيها حُددت إقامتهم، أما السلطان أقام في صنعاء ليقرّر أوضاعها ويخضع الحصون لإدارته ويولي عليها من قادته [74]، وسارت الأمور فيها بصورة جيدة ثم غادرها في العام التالي إلى مدينة تعز [75]، وفي أعقاب ذلك بدأت مهمة جديدة واجهت حكم السلطان الظافر الثاني هي دخول المماليك طرفاً في معارضته وساندوا من القوى الداخلية المعارضة له.

ثالثاً: مرحلة تدهور الدولة الطاهرية وانحطاطها 911-941هـ/1505-1538م

الطاهريون في مواجهة المماليك الشراكسة [76]

عاد السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري إلى مدينة تعز عام 911هـ/1505م وتهيأ بعد ذلك لمواجهة الإمام شرف الدين إمام الزيدية الذي أعلن تمرده وعصيانه في منطقة جبال حجه [77]، وفي الوقت ذاته أرسل الرُسل والرسائل إلى مختلف القبائل اليمنية ولا سيما في القسم الأعلى من اليمن يدعوهم لمبايعته في حربه ضد الدولة الطاهرية، إلا أنه لم يجد استجابة مرضية على رسائله، الأمر الذي دعاه للتفكير بقوة كبيرة تسانده، فما كانت إلا قوة المماليك الشراكسة التي كانت تتردد على سواحل عدن والبحر الأحمر والمحيط الهندي هدفها الحد من وصول قوات البرتغاليين إلى هذه المناطق [78]، أما دورياتهم فكان لها وصول مستمر إلى بعض المدن والموانئ المهمة في المنطقة ومنها عدن وآبين والمخا وجازان وكمران [79]، و لا شك أن فكرة سيطرتهم على هذه الموانئ لم تكن بعيدة عن حيز تفكيرهم بسبب أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية.

يظهر أن السلطان المملوكي القانصوه الغوري فكّر في كيفية الوصول إلى مناطق الجنوب اليمني لذا كانت الخطوات الأولى عن طريق إرسال وفود وشخصيات نافذة من قبله إلى السلطان عامر الطاهري، فقد قابل كل من الشيخ شهاب بن أحمد القصري والشيخ زين الدين المحتسب والطواشي في عام 916هـ/1510م السلطان الطاهري في منطقة رادع والعرش وأكرم وفادتهم، وفي الوقت ذاته أوفد السلطان الطاهري وفداً إلى مصر عام 920هـ/1514م والتقى بالسلطان الغوري الذي أكرمهم وأحسن استقبالهم [80].

لم تستمر تلك العلاقات بين الطرفين على هذا النحو فسرعان ما تدخل الإمام شرف الدين فأوفد مبعوثه صلاح الدين بن سراج الله إلى جزيرة كمران لمقابلة قوات المماليك الأمير حسين الكردي وسلّمه رسالة الإمام شرف الدين [81]، الذي طلب فيها مساعدته في مواجهة الطاهريين [82]، ولأهمية موضوع ومضمون الرسالة نرد نصها الآتي:-

بسم الله الرحمن الرحيم

((وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم نعمة شملت وسبغت، ومنحة كملت فبلغت من لدن حكيم خبير، على أهل بيته البشير النذير أجراها على يد ملك السيف الامير الهمام الخطير المقدام أمير أمراء الإسلامية مفرج كربة العترة الطاهرية الزكية، القائم بثأر الحسين من الفرقة

الظالمة العامرية، المتحلى من أجل ذلك بكل زين، المتبرئ فيما هنالك إن شاء الله من كل شين بحق اسم سيد الشهداء وسبط المختار الحسين، ذلك الأمير النبيل الجليل حسين (حسين الكردي) حيّاه الله من السلام أسناه ومن الكرم أزكاه والله المسؤول أن يوفقه وإيانا إلى إصابة مراده وهداية عباده وإجراء الأحكام الشرعية في بلاده وتطهيرها من آثار وجور الجائرين وتنويرها من ظلمات جرأته وعناده.

وبعد مكتابنا هذا يشرح للأمير الخطير وفقه الله القدير، بإنا لم نزلْ إلى الله مبتهلين، ولما لديه من الفرج منتظرين وبالتجرد لمنابذة عدو الله الجائر (المقصود السلطان عامر بن عبد الوهاب بآل طاهر) والقيام بالدعاء إلى جهاده ودفاعه مجديين أمتثالاً لأمر الله القوي القادر على عدم المعين وخذلان من أهل الزمان المشؤوم القاهر، وميل في الناس إلى الأطماع الحقيرة، وانخداع من الخلق إلى زخارف الباطل المبيرة حتى تمكن منهم هذا الظالم الغشوم، وأوقعهم من الخزي والوبال والهون في أقصى التخوم، وشمل بشره الغوى والبرى والشجى والخلى، وتتبع بمعظم خيشة وجوره ومكره أعيان بيت النبي، ولم يبق في سلطانه لأهل بيت النبي باقية، ولا أجبت لهم دعوة نافعة واعية، حتى بددهم هذا الظالم في البلاد وفرق بين الآباء والأولاد، ومات أكثرهم في تخوم اليمن مطرودين مبددين مشردين، يتمنى الولد أن يحضر موت أبيه والوالد أن لا يشاهد أحوال بنيه، وقد فعل في أولاد المصطفى ما قد حرمه الله في المسلمين بل في سبي الكفار الخارجين على الدين، وأعانه على ذلك رجل من أهل البيت ادعى ما ليس له بحق، فأنكر عليه الإمام الوشلي (السراجي) ولم يعذرنا أهل زماننا من القيام في مقامه المجلى، ولقد همّ أقراه الله يقصد الحرمين، وإخراج من بها من آل الحسين، فرجعنا مع بذل ما بقى لنا من جهد في الدفاع في الكثير من الحدود التي إلى الله سبحانه وتعالى أمرها، ونحن نسال الله تعالى بتعجيل الفرج، وإطفاء وهج المهج على من هو أهل للمحامد المبرورة والمشاهد المشهورة في حياطة الدين والرعاية لحق الأكرم، والنور المستطيل الأعظم فانصوه أدام الله بما يسر في أهل بيت النبي والنسب الكريم الذي جعله في مصر لنبيه إبراهيم الخليل، وخاتم أنبيائه محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ونرجو أن الله قد وفقكم أيها الغزاة الكرام لمشابهة من قال فيه العلام فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين، يجاهدون في الله ولا يخافون في الله لومه لائم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم.

لقد استرجحنا إرسال هذه الرسالة بيد صاحبنا الفقيه العالم بقية المجاهدين صلاح الدين بن سراج الله كتب الله هدايته وأحسن رعايته، لإنهاء التهنئة بما فتح الله على يدكم من الفتوح الهنيئة، والحث لكم على استدراك هذه البقية من عتره نبيكم الزاهرة الزكية، وبذل المعاونة على استخلاص

سائر البلاد من يد هذا الطاغي وأعوانه وأنصاره، وقد بقيت لنا بلاد مجاورة لبلاده، ونحن نفتقر فيها إلى المعاونة منكم بما أمكن من الرجال والعدة، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم والله خير الناصرين وأكرم القادرين والفقيه صلاح الدين يحقق لكم كل ما لا يتسع له الكتاب ولا تقوم به إلا المشافهة والخطاب وصلى الله وسلم على سيدنا محمد سيد المرسلين وصحبه أجمعين)).[83]

بعد وصول الفقيه صلاح الدين برسالة الإمام شرف الدين إلى الأمير حسين الكردي إلى كمران وقرأ نص الرسالة وأشار إلى كبار معاونيه وطلب آراءهم في الجواب عليها، فأشار عليه بعضهم بأن يطلب من السلطان عامر بن عبد الوهاب آل طاهر المعونة والمدد [84] في مواجهة البرتغاليين فإن قبل الدعوة تلك فكل ما نسبه إليه الإمام في رسالته غير صحيح وقد يأتي من باب المنافسة والحصول على الملك، وإن أحجم وتردد في إجابته على الطلب فإن ذلك يؤكد أن ما جاء به الإمام الزيدي صحيح، وعلى هذا الأساس بعث الأمير حسين الكردي برسالة إلى السلطان عامر الطاهري وطلب منه المساعدة والعون[85] لردع قوات البرتغاليين الغازين للسواحل الإسلامية، وفي الوقت ذاته استشار السلطان الطاهري وزيره علي بن محمد النظاري وعلي بن محمد البعداني، فأشار عليه النظاري بأن يمّد العون للمماليك ويساعدهم على حرب البرتغاليين، لما في ذلك نصرة الدين ودفع المكروه عن الدولة الطاهرية [86]، أما الوزير البعداني فقد خالفه الرأي وأشار إلى عدم التعاون مع المماليك فأخذ السلطان الطاهري برأي الوزير البعداني، وكلّفه بأن يتولى الأمر، فالتقى البعداني بمبعوثي الأمير الكردي وأوضح لهما رفض السلطان الطاهري وكان خطابه يشوبه أسلوب الغلظة والعنف، وعاد المبعوثان إلى الأمير الكردي واخبراه بالرد الذي يمثل وجهة نظر السلطان الطاهري [87]، بعد ذلك أجاب على رسالة الإمام شرف الدين بما أشفى عليه وأطفأ غليله ووعده بتلبية طلبه [88]، ولا شك إن رد السلطان الطاهري قد أعطى المبرر للمماليك من تنفيذ مآربهم وخططهم المعدة سلفاً في السيطرة على اليمن [89].

جهّز الأمير حسين الكردي حملة كبيرة انطلقت من جزيرة كمران بالبحر الأحمر واتجهت إلى ميناء الحديدة أكبر موانئ البحر الأحمر متذرعاً بأن أهلها قطعوا المؤن التي اعتادوا على إرسالها إليه وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب قد أمر نائبه في الحديدة بأن يقطع المؤن عنهم وأن يكون أهل الحديدة جاهزين للدفاع عن مدينتهم [90].

ومن السواحل المواجهة إلى مدينة الحديدة صوّب المماليك نار مدفعيتهم على المدينة، وكانت تلك الأسلحة مفاجئة لأبناء المدينة وقوات الدولة الطاهرية لحداثتها وأسلوب استخدامها، ونظراً لكثافة النيران التي وجهتها اضطرت القوات الطاهرية إلى الانسحاب من مواقعها ودخلت تلك القوات مدينة

الحديدة ونهبوها وخربوا ممتلكاتها وعاثوا فيها الخراب والدمار[91]، فضلاً عن ذلك قيامهم بنقل الكثير من المؤن والعتاد إلى جزيرة كمران، لكنهم سرعان ما تركوها وذهبوا إلى ميناء اللحيه أحد موانئ اليمن المهمة على البحر الأحمر، وعلى أثرها عادت القوات الطاهرية وأهالي الحديدة إلى مدينتهم بعد الخراب الذي عمله المماليك في مدينتهم[92].

دارت سلسلة من المعارك بين القوات الطاهرية وقوات المماليك على الرغم من عدم وجود حالة التكافؤ في السلاح والعدد والعدة، علماً أن بعض القبائل الزيدية وبعض القبائل التهامية وقفت إلى جانب المماليك، إلا أن المقاومة كانت شديدة في بلاد تهامة وتعز ورادع والمقراته وصنعاء [93]، وتراجعت قوات الدولة الطاهرية أمام كثافة النيران والأسلحة الحديثة التي لم يشاهدوها من قبل.

تحرك السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري على رأس قوة من مدينة المقراتة إلى تعز واستقر فيها، ومنها انطلقت حملة كبيرة بقيادة أخيه الأمير عبد الملك بن عبد الوهاب الطاهري إلى تهامة لصد قوات المماليك وحلفائهم من القبائل التهامية والزيدية، أما الأمير حسين الكردي من جانبه فقد عمل على إعادة تنظيم قواته، فضلاً عما أنضم إليه من أهالي جازان يتقدمهم أشراف المدينة برئاسة الشريف عز الدين بن دريب، والتقى الطرفان في بلاد الزيدية وجرت معركة بينهما، ثبتت قوات السلطان الطاهري على الجهاد والدفاع عن بلدهم[94]، إلا أن زخم المعركة قد تواصل إلى جانب المماليك الذي أرغم القوات الطاهرية على الانسحاب إلى مدينة زبيد ولاحقتهم القوات المملوكية وفرضت الحصار عليهم مما جعل الأمير عبد الملك الطاهري يصدر أوامره بالانسحاب إلى مدينة تعز وفي تلك المواجهات أصيب عبد الملك بطلق ناري في المعركة وحمل إلى المدينة للعلاج، وبعد ذلك دخلت القوات المملوكية إلى المدينة في اليوم التاسع والعشرين من شهر جمادي الأولى 922هـ/ الموافق 1516م.[95]

قام الأمير حسين الكردي في زبيد سبعة وعشرين يوماً صادر خلالها الأموال من خزينة الدولة وعبث جنوده بمقدراتها وأملاكها، ثم أناب عنه أحد كبار قادته (برسباي) ثم غادر المدينة إلى ميناء (البقعة) في ساحل زبيد بدعوى الحصول من مراكبه على الأموال والوفاء منها لقواته بما وعدهم عند استيلائهم على زبيد وهو مبلغ مئة دينار ذهباً لكل فرد منهم، وفي الميناء المذكور ركب مع قائد قواته البحرية (سليمان الرومي) وعدد من أفراد عائلته وخاصته وحرسه الخاص وحمّلها بالأموال والنفائس وغادر بها إلى جزيرة زيلع بالقرب من ميناء مصوع، ثم عاد ثانية إلى مكان إقامته في مدينة جدة وأوكل مهمة التوغل داخل اليمن إلى قائده سليمان الرومي[96].

توجه الأمير حسين الكردي بقوته تجاه مدينة عدن، وقد ذكرت بعض المصادر انه كلف قائدة سليمان الرومي بالمهمة ذاتها.[97] ووصلت تلك القوة في رجب عام 922هـ/آب 1516م، وتمكن من فرض سيطرته عليها وانسحب الأمير (مرجان الظافري) وحاميته إلى جبل صيره، وعند ذاك أعاد تنظيم قواته وتهيأ للقيام بهجوم معاكس على قوات المماليك وكبّدهم خسائر جسيمة واستمرت تلك المعركة حتى الصباح، وبذلك أعادت قوات الأمير مرجان الطاهري السيطرة على عدن بعد أن قتلت أعداداً كبيرة من قوات المماليك [98].

وصلت تعزيزات السلطان عامر الطاهري إلى الأمير مرجان الطاهري بحملة قادها الأمير عبد الملك الطاهري بعد تماثله للشفاء، هذا التعزيز لا شك انه قد قطع كل أمل لقوات المماليك من استعادة احتلالها لمدينة عدن [99].

أعادت القوات الطاهرية تنظيمها وعزّزت الحاميات التابعة لها في مدينة عدن [100]، كان الانتصار الذي حققته القوات الطاهرية أثره الكبير على حالة الجند ورفع معنوياتهم وجعلهم أكثر إصراراً على مواصلة الصمود والحرب ساندهم في ذلك دعم أهالي عدن وقبائلها، لذلك رفضوا الصلح الذي تقدم به المماليك عن طريق القاضي صفي الدين أحمد بن عمر بن أحمد المزجد الذي يقضي بتوقفهم على ما حصلوا عليه من مناطق ولا سيما في تهامة، إلا أن الطاهريين عدّوا ذلك خدعة ولا يمكن أن تنطلي عليهم.[101]

هدأت ساحة المواجهات بين الطرفين المملوكي والدولة الطاهرية، ولكن يبدو أنها كانت فرصة لاستعادة كل طرف لقواه ومن ثم العودة إلى المواجهة ثانية، وهذا ما حصل عندما قاد السلطان عامر بن عبد الوهاب حملة من المقراتة على رأس قوة لمنازلة المماليك ولذلك عسكر في منطقة (التريبة) قرب زبيد، وبالوقت نفسه تحركت قوة المماليك بقيادة (برسباي الغوري) ودارت معركة شديدة استمرت قرابة ثلاثة أيام انسحب على أثرها السلطان الطاهري الى مدينة تعز[102].

أعاد المماليك تنظيم قواتهم في مدينة زبيد وقاموا بعد ذلك بالهجوم المعاكس على القوات الطاهرية في صفر عام 923هـ شباط 1517م واستولوا على حصون بالغة الأهمية، أجبرت بعد ذلك السلطان الطاهري على الانسحاب إلى مدينة آب[103]، ودخل المماليك مدينة المقراتة وعاثوا فيها الخراب والدمار سلباً ونهباً كعادتهم وأوكلت مهمة قيادة قواتهم فيها إلى اسكندر محمد [104] الذي قام بدوره في مواصله الهجمات بين الطرفين أشرت في بعض جوانبها تفوق القوات الطاهرية [105].

على الرغم من كل المواجهات التي قام بها الطاهريون سواء مع قوات المماليك أو القبائل الزيدية الساندة لهم، إلا أنهم لم يترددوا في حقيقة الأمر عن مواجهة القوات البرتغالية على الرغم من محدودية إمكاناتهم العسكرية من جهة وما فرضه البرتغاليون أنفسهم من حصار على طرق التجارة ولا سيما في ميناء عدن [106]. وبذلك فأنهم فقدوا الكثير من المعوقات الرئيسة في استمرار المواجهة مع البرتغاليين، ومع ذلك فأن السلطان عامر الطاهري جهّز حملة بحرية لمواجهة القوات البرتغالية في الهند، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة لتعبّر عن حقيقة ظروف السلطان وإمكاناته المحدودة، كما تؤشر حالة اندفاعه غير محسوب النتائج عند مواجهة قوة كبيرة مسنودة بالخبرة العسكرية والتجربة السابقة التي يتمتع بها البرتغاليون، ومع ذلك أبحرت الحملة من ميناء عدن في 915 هـ/الموافق 11 آذار 1507م، إلا أنها كانت فريسة سهلة للبرتغاليين وإن النتيجة كانت محسومة مسبقاً، لذلك عجز السلطان الطاهري على إرسال حملة أخرى أو على الأقل الدفاع عن سواحل عدن أمام هجمات القوات البرتغالية.[107]

لكن أبناء مدن عدن وآبين ودثينة وغيرها من المدن الأخرى سجّلوا مواقفاً وطنية في حجمها وردة فعلها إزاء مقاومة القوات البرتغالية، لذلك عمل الصيادون والأهالي في الجبال المحاذية للبحر وعلى مراقبة حركة السفن والبواخر في البحر فضلاً عن دور أبراج المراقبة التي كانت تقدم اشارات التنويه بإشعال النيران على طول الطريق ما بين مدينة آبين وعدن كي تجري الاستعدادات لمجابهة الخطر القادم، وهذا بلا شك يمثل أنموذج الروح الوطنية في الجنوب وكيف أن أبناء اليمن يتحّدون أمام التهديدات الخارجية التي تمثلها قوات الغزو البرتغالية.[108]

وبالعودة إلى تطور مسار المواجهات بين القوات الطاهرية وقوات المماليك بقيادة اسكندر محمد الذي قرّر سحب قواته باتجاه مدينة صنعاء، وفي إثناء عودتهم تعرضوا إلى كمين نصبه لهم أبناء بلاد عمار كبّدهم خسائر كبيرة ولا شك أن هذه الفعالية قد زادت وعزّزت من طموحات السلطان عامر الطاهري في ملاحقتهم. إلا أن أخاه الأمير عبد الملك الطاهري كان له رأي آخر وهو عدم ملاحقتهم إلى صنعاء خشية من وقوع قواتهم بين عدوين في آن واحد المماليك والزيدية [109] إلا أن السلطان عامر الطاهري أصر على مواصلة الزحف وتعقبهم إلى مدينة صنعاء، ولكن المماليك باغتوه بهجوم قبل دخوله صنعاء وقبل أن يأخذ جيشه أهبته للقتال وأسفرت المعركة التي جرت على أبواب صنعاء في منطقة الصافيه عام 923هـ/15 مايس 1517 م عن مقتل أخيه عبد الملك بن عبد الوهاب في 22 ربيع الآخر 923هـ/حزيران 1517 م[110] الذي قدم بقوات تعزيزية من مدينة عدن [111].

كان لحادث مقتل عبد الملك بن عبد الوهاب الطاهري أثره على السلطان الطاهري الذي فقد واحداً من كبار قادته وشعر أن لا قدرة له على مواجهة قوات المماليك فانسحب من المواجهة، إلا أن قادة المماليك الاسكندر محمد وحسين الكردي ظلوا يلاحقونه ودمروا مواقعه وحصونه جميعها حتى وقع في الأسر قرب حصن ذي مّرمَر على يد أحد زعماء قبائل سعدان بن زلابيا [112] فأوصلوه إلى الاسكندر محمد الذي أمر بقتله في ربيع الاول 923هـ/1517م وعلق رأسه على رمح إلى جانب عدد من رجاله وقادة جيشه[113]. وبمقتله انهارت الدولة الطاهرية وبدأت تسير بخطوات سريعة نحو السقوط النهائي والتلاشي، استمرت مدة حكمه واحداً وثلاثين عاماً[114].

عُدّت شخصية السلطان عامر الطاهري من الشخصيات اليمنية التي كتبت تاريخها بدمها وكافح ببسالة وبطولة نادرتين ضد الغزاة والطامعين وحاول جاهداً توحيد أبناء اليمن وقد نجح إلى حد ما في ذلك باستثناء خروج بعض المناطق عن سلطته.[115] وقد رثاه المؤرخ اليمني عبد الرحمن بن الدبيع بقصيدة جاء في مطلعها:-[116]

أخلايّ ضاع الدين من بعد عامر

وبعد أخيه اعدل الناس بالناس

فمذ فقدا والله إننا

على الصبر والسلوان في غاية اليأس

تهدم من ركن الصلاح مشيدة

وقوض من بنيانه كل عامر

فما من صلاح فيه بعد صلاحه

ولا عامر والله من بعد عامر

- نهاية الدولة الطاهرية وسقوطها

تدهورت أحوال البلاد وازدادت سوءاً بعد مقتل السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب الطاهري(117)، فقد نشط الأئمة الزيدية وتواصلوا في هجماتهم المتكررة على حدودهم، واستقرار المماليك الشراكسة في اليمن بعد أن أعلن قائدهم ولاءه للسلطان سليم الأول (1512-1520م)، الذي أجهز على دولة المماليك واستولى على الشام ومصر وعند ذاك دخلت الحجاز في طاعته.(118)

تولى أحمد بن السلطان الظافر الثاني إدارة الدولة المنهارة في حدود مدينة المقراتة في بلاد رادع، والأمير مرجان بن عبد الله الظافري لإدارة الأمور في عدن وألقى الخطبة باسمه، إلا أن الأمر لم يستمر طويلاً حتى أعلن عن وفاة أحمد بن سلطان في 924هـ/كانون الثاني 1518م، وبذلك تراكمت الكوارث والتي حلت بالدولة الطاهرية (119).

اجتمع أهل الحل والعقد ووقع الاختيار على عامر بن عبد الملك بن داود الطاهري، وأعلنت **الخطبة باسمه في** كل المناطق التي ظلت خاضعة لحكم الدولة الطاهرية ومنها المقراتة ورادع وآب وذي جبلة **فضلاً عن** عدن (120)، ولم يستمر عامر بن عبد الملك طويلاً وقتل مسموماً في أواخر شهر رمضان 925هـ/ايلول1519م.

جاء الاتفاق بعد ذلك على تولي أحمد بن محمد بن عامر بن طاهر شؤون السلطنة، ولم ينل تأييد ومبايعة والي عدن مرجان الظافري وكان على خلاف معه، إلا أنه حاول مجاراته خشية أن لا تخرج عدن من سيطرته، ولكنه بدأ باختلاق المشكلات للسلطان محمد بن عامر دون يظهر ذلك، ومنها أغرائه بمجاراة القوات المملوكية ومهاجمتها في مدينة تعز واظهر استعداده لإرسال قوات له من عدن، أقتنع أحمد بن محمد بذلك وهاجم قوات المماليك بعد أن شاركت فرقة من قوات مرجان الظافري وكاد أحمد بن محمد أن يحقق الظفر، إلا أن مرجان سرعان ما عادت قواته وأصبح السلطان الظافري في موقف حرج وتكبّد خسائر جسيمة ولاذ بهزيمة منكرة.(121)

لم يكتف مرجان الظافري بذلك بل عمل على تحريك القبائل الموالية لأحمد بن محمد والتمرد عليه عن طريق دفع الأموال إليهم وقد نجح في ذلك، ثم عمل على إثارة الفرقة داخل الأسرة الطاهرية فتقرّب إلى عبد الملك بن محمد بن عبد الملك ودار لقاء معه خارج مدينة عدن 926هـ/1520م، ووعده بان يبايعه في السلطة ووعده بالدخول إلى عدن في حالة إعلان حربه على أحمد بن محمد بن عامر والتخلص منه.(122)

حاول عبد الملك بن محمد مجابهة عزيمة أحمد بن محمد بن عامر، وعند ذاك سمح له مرجان الظافري بالدخول إلى عدن ولكن كان ذلك تحت مراقبة رجال مرجان الظافري وعيونهم، الذي رصد كل تحركاته في المدينة، ومع كل تلك المراقبة إلا أن عبد الملك بن محمد تحرك على بعض قطعات العسكر، واستمالة بعض زعماء قبائل يافع، لا شك أن هذا التصرف أغضب الأمير مرجان الظافري، فطالبه بالخروج من عدن لمواجهة أحمد بن محمد، إلا أن عبد الملك اعتذر بحجة قلة الإمكانات المالية وعدم الاستعداد والتهيؤ الكافيين لمواجهته، ويبدو أن عبد الملك استهدف من ذلك أن مرجان الظافري هو الذي سيسانده في المال والجنود.[123]

شعر مرجان الظافري بالندم لما اتخذه من موقف تجاه عبد الملك بن محمد وسمح له بالدخول إلى عدن، وبعد ذلك بدأ يخطط في كيفية التخلص منه أو اغتياله، إلا أن تلك المحاولات فشلت بسبب أن عبد الملك قد اكتشف ما كان يُخطط له الأمير مرجان الظافري، وجاءت وفاة الأمير مرجان الظافري عام 927هـ/1521م فرصة مناسبة لعبد الملك بن محمد من أن يُعيد سيطرته على عدن، وأعقبه السلطان عامر بن داود الطاهري آخر سلاطين هذه الدولة.[124]

استطاع السلطان عامر بن داود الطاهري أن يحتفظ لنفسه بمركز نفوذ في بلاد رادع وفي عدن ولحج وآبين والشحر وحضرموت وأجزاء من مناطق اليمن الأسفل [125]، إلا أن مصادر تهديد حكمه ظلت قائمة وفي مقدمتها أشراف الأئمة الزيدية، حيث أمر الإمام شرف الدين ولده المطهر بغزو بلاد رادع وبعض المناطق الشرقية التي ما زالت تحت نفوذ الأسرة الطاهرية، فتحرك المطهر بقواته من بلاد برط إلى منطقة موكل لمواجهة قوات السلطان عامر بن داود، ودارت معركة بين الطرفين (قوات المطهر وقوات يحيى السراجى) وانتهت بهزيمة القوات الطاهرية [126].

واصل المطهر متابعة وزير آل طاهر علي بن محمد البعداني إلى حصن دارم في بلاد الشعيب من المنطقة الشرقية حيث لجأ إليه أثر موقعة موكل، وقد خرج البعداني ومن معه من الحصن المذكور وقاتلوا حتى وقع البعداني أسيراً في أيدي قوات المطهر وجيء به إليه فأمر بضرب عنقه [127]، أما السلطان عامر بن داود الطاهري فانسحب إلى حصن التعكر لإعادة تنظيم مواجهة المطهر فيما بعد.

واصل المطهر حملته لإنهاء مقاومة الدولة الطاهرية فجهّز حملة في عام 942هـ/1536م، ونزل بها إلى لحج ومن ثم هاجم مدينة عدن، إلا أنها استعصت عليه ولم يتمكن من دخولها وانسحب منها [128]، إلا أنه عاد هجومه ثانية على المدينة واستطاعت قواته من أسر الأمير أحمد الطاهري في قاهرة تعز وسلم إلى المطهر الذي أرسله بدوره أسيراً إلى والده الإمام شرف الدين[129].

خرج السلطان عامر بن داود الطاهري لملاقاة جيش المطهر، وحصلت المعركة في منطقة أم قريش يوم الأحد العاشر من شهر رجب عام 943هـ/1537م، ولم تستطع القوات الطاهرية المواجهة وانسحبت إلى لحج ومن ثم إلى عدن [130]، وعادت حالة التفوق ثانية لقوات المطهر.

لم يكن أمام السلطان عامر بن داود الطاهري من سبيل في مواجهة قوات الإمام الزيدي، وعليه فتح باب الاتصال مع القوة الجديدة القادمة المتمثلة بالعثمانيين الذين وصلت إلى جزيرة كمران ومنها أرسلت زوارق إلى عدن وسواحل زبيد تحمل رسلاً لإخبار حكامها بأن يكونوا على استعداد لتمويل القوات العثمانية بما تحتاجه ومن ثم إظهار ولائهم للسلطان العثماني سليم القانوني (1520-1566م)، ويظهر أن أهداف الحملة العثمانية استهدفت بعض الأمور منها، احتلال عدن وضمها إلى الإمبراطورية العثمانية، ودعم الجيش العثماني ومساندته في اليمن بعد القضاء على نفوذ الإمام الزيدي شرف الدين، ومن ثم التهيؤ لمواجهة البرتغاليين الذين كانوا يعترضون السفن التجارية في البحر الأحمر والمحيط الهندي، ثم القضاء على المستعمرة البرتغالية في الهند (جوا) التي كانت مركز تموين السفن البرتغالية.[131]

وصلت الحملة العثمانية إلى عدن في الثالث من آب عام 944هـ/1538م، فأظهر عامر بن داود الطاهري مظاهر حُسن الأستقبال وقد فتح أمام قادتها أبواب المدينة حتى يحصل الجنود على ما يشاؤون من طعام ومؤن بناءً على طلب قائد الحملة سليمان باشا الأرناؤوطي [132]، الملقب بالخادم الذي أمر جنوده سراً في التسلل الى المدينة واحتلالها من غير علم السلطان عامر بن داود الطاهري [132]، إما السلطان عامر بن داود فقد توجه إلى الباخرة التي كانت تحمل قيادة الحملة وعلى رأسها سليمان باشا لاستقباله، إلا أن الذي حصل أن سليمان باشا تنصل عن مواقفه تجاه السلطان عامر بن داود والقى القبض عليه وعلى رفاقه الستة [133]، ومن ثم أمر بقتلهم جميعاً وتعليق جثثهم لمدة ثلاثة أيام بعد أن استبيحت مدينة عدن[134]، وبهذه الواقعة تكون قد تلاشت آخر محطة في تاريخ الدولة الطاهرية في اليمن.

ولّدت حادثة مقتل السلطان عامر بن داود الطاهري البشعة ردود فعل غاضبة لدى سكان عدن والقبائل المجاورة لها واستنكرت تصرف القائد العثماني سليمان باشا وجنوده لما عملوه في مدينتهم من تخريب ودمار الأمر الذي زاد من حنق القائد العثماني على المدينة، حيث أمر بتعيين سليمان البدوي صاحب خنفر لإدارة المدينة المعروف بقسوته وجبروته وفرض سيطرته عليها [135]، وهكذا تم استيلاء العثمانيين على مدينة عدن وتوابعها بعد خمسة أيام من وصولهم إليها في 12 ربيع الأول عام 945هـ/الموافق آب 1538م، بقوة قوامها ثمانين سفينة بحرية وفرض سيطرتهم عليها، وكان قد قُدر

لهُ فرض سيطرته على عدن وأجزاء من اليمن، فإنه لم يتمكن من منازلة البرتغاليين في المياه الهندية بسبب تجميع قواتهم وحشدها لملاقاته[136].

على كل حال اصدر القائد العثماني سليمان باشا الخادم أوامره بقتل كل من تبقى من أسرة آل طاهر سواء في عدن أو في المناطق التابعة لها ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم وذلك بحجة أنهم حاولوا تسليم عدن إلى البرتغاليين، وقد أنكر الكثير من المؤرخين هذه التهمة[137]، وبهذه النهاية المأساوية تلاشت الدولة الطاهرية وانتهى نفوذها في اليمن بعد أن حكمت قرابة ثمانية وسبعين عاماً من (858-945هـ) (1454-1538م).[138]

رابعاً: النشاط الاقتصادي والتراث الحضاري للدولة الطاهرية في اليمن

فرض آل طاهر سيطرتهم بصورة مباشر على مدينة عدن ذات الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية، إذ إنهم وظّفوا مواردها المالية والتجارية لخدمتهم وبسببها توسعوا في مناطق البلاد الأخرى، لذلك صمدوا بوجه التحديات الخارجية التي مثّلتها قوات البرتغاليين والمماليك وعبّرت عن أطماعها في عدن بشكل خاص والجنوب اليمني بشكل عام.[139]

تأثرت حرمة التجارة في الدولة الطاهرية بسبب الإجراءات البرتغالية في احتكار التجارة الشرقية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من إفريقيا إلى الهند، فقلت موارد الدولة وضعفت حركة الأسواق التجارية، سواء كان ذلك في الموانئ أو عموم المدن الأخرى، واستغل المماليك ذلك وساعدهم على الوصول إلى المنطقة وفرض وجودهم فيها [140].

وعلى الرغم من كل تلك التحديات إلا أن سلاطين آل طاهر عملوا على تنشيط الحركة التجارية في عدن وكل المناطق التابعة لها، إذ قاموا ببناء المنشآت المتعددة وسهّلوا حركة السفن القادمة والخارجة من عدن، فضلاً عن اهتمامهم بالخدمات المقدمة لحركة الملاحة [141]، لذا شهدت عدن حركة ملاحية واسعة فقدمت إليها البواخر والسفن من مناطق مختلفة من العالم لا سيما من ساحل إفريقيا الشرقي مثل زيلع وبربره وسفالا وكيلوه، ومن موانئ سواحل الهند الغربية مثل ديو وقاليقوط، ومن موانئ جزر الهند الشرقية حتى ملقا[142].

شجّع سلاطين الدولة الطاهرية الزراعة، وعملوا على استثمار مقوماتها المتوفرة في اليمن من التربة الصالحة ووفرة المياه من مصادر متعددة وفي الوقت ذاته شجّعوا الفلاحين على الاستثمار وعرفت سياستهم بالعدل ورفع الظلم عن كاهل المزارعين، وقلة الضرائب والفوائد، إلا أن المشكلة الرئيسة التي واجهت النشاط الزراعي هي استمرار الخلافات بين القبائل التي قادت إلى مصادمات مستمرة بينها، وعلى أثرها اضطربت الأوضاع وأصبح الأمن متخلخلاً لذلك حصلت الكثير من حوادث السلب والنهب بين صفوف المزارعين[143]، كانت الزراعة هي المصدر الرئيس إلى جانب التجارة والنشاط الحر في كلها، تزدهر هذه النشاطات تشهد البلاد حالة من الهدوء والاستقرار.

اهتم سلاطين الدولة الطاهرية ولا سيما عامر عبد الوهاب بحفر الآبار وشق القنوات وتعبيد الطرق وتأمينها، فضلاً عن بناء عدد من الصهاريج ولعل الصهريج الموجود في عدن (صهريج القبه) يعُد من أقدم الصهاريج وأجودها في المدن اليمنية.[144]

وفي إطار تنشيط العمل الزراعي أقام السلطان عامر بن عبد الوهاب في وادي زبيد سداً ترابياً لحماية الأرض الزراعية من السيول الجارفة، وكان لهذا الإنجاز أثره في تطور النشاط الزراعي [145] كما أظهر اهتمامه بحدائق المدن ومناظرها الجمالية [146]، وهكذا عُرف عن معظم سلاطين الدولة الطاهرية ومنهم عبد الملك الطاهري الذي وصفه المؤرخ اليمني ابن الديبع بأنه ذو سيرة محمودة.[147]

وفي ميدان النشاط العمراني عُرف سلاطين الدولة الطاهرية باهتمامهم بهذا الجانب، حيث شهدت مدة حكمهم أعمال ونشاطات وإصلاحات ظلت الكثير من معالمها شاخصة إلى اليوم، مثل المدارس والمساجد وفي مناطق مختلفة من البلاد مثل عدن وتعز وحبيس وزبيد ورادع وجبن والمقراتة[148].

شيّد السلطان الظافر علي بن طاهر العديد من المباني الرائعة، ففي مدينة رادع هناك جامع العامرية المشهور المكون من طابقين الأول لأداء الفرائض والعبادة، والثاني خصص للدراسة وإيواء طلبة العلم وأماكن سكن المعلمين والمدرسين وهو في غاية الرتابة والجمال وعلى طراز هندسي رائع وقد أمر بناءه السلطان الظافر الثاني عامر بن عبد الوهاب، وقد اشترك في بنائه عدد من الفنيين والصناع والحرفيين المهرة من داخل اليمن وخارجها، وبذلك اعُد رمزاً حضاريا شامخاً من رموز التراث الإسلامي في اليمن [149].

شهدت المدن اليمنية حركة إعمار واسعة لا سيما في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري، فقد شيّد المساجد الكبيرة في منطقة عامرية رادع وعامرية جبن ومسجد المشنه في سفح جبل بعدان بمدينة آب ومسجد الجلالية في المدينة ذاتها[150].

وأما الجانبان العلمي والثقافي فإن الدولة الطاهرية لاشك أنها ورثت الدولة الرسولية المعروفة بهذا الاتجاه فقد تأثروا بنهجهم وأولوا الجانبين الثقافي والحضاري كل الاهتمام لا سيما في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي عمل على تنشيط الحياة الثقافية والعلمية من خلال اهتمامه ببناء المدارس وتقريب العلماء، وقد عُرف عنه الاهتمام بمؤلفي الكتب واقتناء مؤلفاتهم ومتابعة وإدامة المكتبات ورفدها بالإصدارات الجديدة وشجّع على إعمار المكتبات في المساجد والجوامع، حتى تكون تلك الكتب سهلة في متناول طلبة العلم والعلماء (ولعل المكتبة الموجودة حالياً في جامع زبيد شاهد حضاري على ذلك)، فضلاً عن تكريمه العلماء والكتاب وإغداقه عليهم بالهبات والأموال تقديراً لنشاطهم ودأبهم العلمي المتواصل[151].

شهدت حركة التعليم والمدارس نهوضاً ملموساً في عهد الدولة الطاهرية لا سيما أن تلك الحركة قد استندت على أسس رصينة منذ أيام حكم الدولة الرسولية كما تمت الإشارة إلى ذلك، فكانت معظم العلوم تُدرس في هذه المدارس ومنها علوم الشريعة وعلوم اللغة العربية وآدابها، ولاشك أن انتشار هذه العلوم كان بسبب ارتباطها بالدين من جهة وبحياة الناس من جهة ثانية، وقد وُصف التعليم ومناهجه في الدولة الطاهرية بأنه كان تعليم مفتوح ولا يُقيد الطالب بمنهج واحد أو بمدة محددة، وقد اختلفت على وفق ذلك طرائق التدريس ووسائله، وعُرف عن المعلمين والمدرسين حرصهم على مواصلة التعليم وبذل الجهود من أجل إيصال الأفكار والمعلومات إلى طلبتهم وحثهم على متابعة كل ما هو جديد ومفيد، وكان المسجد هو الموقع الأساس في ميدان التعليم، ثم بنيت بعد ذلك المؤسسات والمدارس والمنشآت المتخصصة وهي موزعة على المدن المختلفة، لا سيما تلك المدن التي كانت تحت نفوذ سلاطين الدولة الطاهرية مباشرة [152].

أما التركيبة الاجتماعية، فأجد في الحقيقة أنها لا تختلف في ظروفها ومسارات أنشطتها الاجتماعية عما كانت عليه البلاد إبان حكم الدولة الرسولية، إذ إن تركيبة المجتمع اليمني تتألف من فئات، أرفعها العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء ورجال الدين وفئات أخرى من المهنيين والتجار وبقية شرائح المجتمع الأخرى من الفلاحين والكسبة موزعين في مناطق عديدة كل بحسب طبائعه وعاداته وتقاليده ومجال عمله اليومي.[153]

أما شؤون المرأة وقضاياها فقد نالت مكانة اجتماعية طيبة، مرتبطة بطبيعة الدور الذي تقوم سواء أكان ذلك في مجال أسرتها من حيث التربية والحث على التعليم، أو المشاركة الفعلية في العمل اليومي الذي يتناسب مع طبيعة عطائها ومجهودها البدني الذي تقوم به وهو لاشك يكون مختلفاً ما بين مجتمع المدينة ومجتمع القرية والريف وظلت المرأة محافظة على الكثير من العادات والتقاليد التي توارثتها جيل من بعد جيل.

هوامش الفصل الثالث ومصادره

(1) ينظر نسب ملوك الدولة الطاهرية في منتديات الحجاجي متاح على الرابط الآتي: http:hajeji.blogsot.com وملحق رقم (6) سلاطين الدولة الطاهرية.

(2) من هولاء المؤرخين، عبد الله الثور، هذه هي اليمن، ص307، وكذلك كتابه اليمن الأرض والإنسان، ص128، والمؤرخ عبد الله عبد الكريم الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، القاهرة، 1951، ص82.

(3) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص246.

(4) المصدر نفسه، ص246.

(5) راجع الفصل الثاني من الكتاب، موقف سلاطين بني رسول من حركات المعارضة التي قامت بها القبائل القرشية.

(6) المصدر نفسه، ص247.

(7) منتديات الحجاجي على الرابط الآتي:http:hajeji.blogsot.com

(8) أبو مخرمه، تاريخ ثغر عدن، ج1، ص12.

(9) الجرافي، المقتطف، ص82.

(10) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص563.

(11) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص249.

(12) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص89.

(13) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص255.

(14) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، دار الهنا للطباعة، القاهرة، 1976، ص297.

(15) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص256.

(16) المصدر نفسه، ص258.

(17) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص308.

(18) ينظر موقع المهرة على الرابط الآتي:http:// www.almahrah.net

(19) المصدر نفسه.

(20) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص264.

(21) المصدر نفسه، ص265؛ صلاح البكري اليافعي، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1967، ص116.

(22) محمد يحيى حداد، المصدر السابق، ص299.

(23) صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية الحديث، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان، الأردن، 2009، ص ص106، 107.

(24) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص266.

(25) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص299.

(26) صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص107.

(27) ينظر منتديات موقع أحمد الظرافي على الرابط الآتي:
ahmedaldhurafi.makoobblog.com

(28) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص299.

(29) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص267.

(30) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص312.

(31) ينظر منتديات نهر الحب، الدولة الطاهرية في اليمن على الرابط الآتي:
www.ub.n4hr.com

(32) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص ص267، 268.

(33) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص300.

(34) حمزة علي لقمان، تاريخ عدن، ص112.

(35) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص300.

(36) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص90.

(37) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص269.

(38) صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص107.

(39) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص270.

(40) المصدر نفسه، ص270.

(41) عبد الله أحمد الثور، المصدر السابق، ص312.

(42) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص610.

(43) المصدر نفسه، ص610.

(44) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص272.

(45) المصدر نفسه، ص272.

(46) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص611.

(47) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص273.

(48) المصدر نفسه، ص273.

(49) المصدر نفسه، ص274.

(50) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص301.

(51) صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص107.

(52) ينظر حقائق مثيرة من تاريخ الدولة الطاهرية على موقع المؤتمر نت على الرابط الآتي:
www.almotamar.net

(53) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، ص112.

(54) لُقب باسم (الظافر الثاني) وهذه التسمية سيعتمدها المؤلف فيما بعد.

(55) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص615.

(56) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، ص112.

(57) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص275.

(58) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص302.

(59) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص276.

(60) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص91.

(61) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص276.

(62) بعد أن هُزم عبد الباقي في تلك المواجهات شعر بعدم الأمان، لذلك دخل إلى مناطق ساحل إفريقيا الشرقي في شعبان عام 897هـ/حزيران 1492م، ولما علم السلطان الظافر الثاني أرسل إلى المجاهد بن سعد الدين أحد أمراء ممالك الطراز الإسلامي طالباً منه التحفظ على عبد الباقي ومن ثم إعادته، فقبض عليه، وحدث في أثناء وجوده هناك أن أغار صاحب الحبشة على ابن سعد الدين، فاشترك عبد الباقي في هذه المواجهة وقام بدور فعال ومساندة شجاعة إلى قوات ابن سعد فأكرمه لموقفه ولم يتعرض له بسوء وسمح له بالعودة إلى اليمن ولجأ إلى قبائل يافع واستقر عندهم، ينظر هامش رقم (1) المصدر نفسه، ص277.

(63) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص302؛ الثور، المصدر السابق، ص314.

(64) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص278.

(65) المصدر نفسه، ص278.

(66) المصدر نفسه، ص279.

(67) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ص619.

(68) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص281.

(69) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص303.

(70) عبد الله الثور، المصدر السابق، ص314.

(71) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص303.

(72) عبد الله الثور، المصدر السابق، ص314.

(73) المصدر نفسه، ص ص314، 315.

(74) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص303.

(75) المركز الوطني للمعلومات رئاسة الجمهورية اليمنية على الرابط الآتي:- www.yemen-nic.info

(76) المماليك الشراكسة (البرجية) تعود أصولهم إلى مناطق آسيا الوسطى، وقد نزحوا جنوباً واستقروا في مصر والشام خلال القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ومن أبرز سلاطينهم برقوق وبرسباي والقانصوه الغوري وطومان باي، حصل المماليك على المساندة

لامتلاكهم الأراضي في نجد والحجاز واستضافتهم للخلفاء العباسيين في القاهرة ما بعد عام 1260م، ينظر قادر إسحاق ناتجو، تاريخ الشركس، ترجمة محمد ازوقه، دار ورد للتوزيع والنشر، ط1، عمان، 2009، الموسوعة الحرة الويكيبديا، www.ar wikipedia.org

(77) صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص107.

(78) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص304.

(79) جزيرة كَمران تُعد من أهم الجزر الملاحية في جنوب البحر الأحمر وكانت محط أنظار القوى الاستعمارية لاستخدامها قاعدة انطلاق إلى بقية جزر البحر الأحمر والدول المتشاطئة، لمزيد من التفاصيل ينظر عبد الله محمد علي نجاد، الأهمية الإستراتيجية للجزر اليمنية في البحر الأحمر وخليج عدن 1945-1973، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ والتراث العلمي العربي، بغداد، 2000، ص19.

(80) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص304.

(81) المركز الوطني للمعلومات رئاسة الجمهورية اليمنية على الرابط الآتي:- www.yemen-nic.info

(82) د. صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص108.

(83) نص الرسالة أوردها محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص ص304، 306.

(84) ينظر قبيلة مذحج القحطانية في الأحواز على الرابط الآتي: www.madhaj-hais.blogfa.com

(85) منتديات نهر الحب، الدولة الطاهرية في اليمن على الرابط الآتي: www.ub.n۴hr.com

(86) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، اليمن الحديث، ج4، منشورات المدينة، بيروت، 1986، ص10.

(87) عبد الرحمن صالح حيدره، تكوين الجنوب العربي وثورة السلطنات ضد حكم الأئمة 1466-1733، ط1، د.ط، 2008، ص26؛محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ص10.

(88) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ص10.

(89) المركز الوطني للمعلومات على الرابط الآتي:- www.yemen-nic.info

(90) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص306.

(91) المصدر نفسه، ص306.

(92) الموسوعة الحرة الويكيبدياء، على الرابط الآتي: www.ar wikipedia.org

(93) المركز الوطني للمعلومات على الرابط الآتي:- www.yemen-nic.info

(94) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص307.

(95) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص12.

(96) المصدر نفسه، ص13.

(97) سيد مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن1538-1653، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1969، ص81.

(98) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص14.

(99) المصدر نفسه، ص14.

(100) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص93.

(101) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص14.

(102) المصدر نفسه، ص15.

(103) المصدر نفسه، ص15؛ منتدى ونيس للإبداع، أهم الأحداث التاريخية في العصر الإسلامي في اليمن على الرابط الآتي:-www.wanees.com

(104) عبد الرحمن بن علي الديبع، الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلتت، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، 1983، ص55.

(105) القبائل اليمنية على الموقع:www.q۴emen.com

(106) د. صباح رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص108.

(107) المصدر نفسه، ص109.

(108) المصدر نفسه، ص109.

(109) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص16.

(110) المصدر نفسه، ص12؛ عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي، اليمن الإنسان والحضارة، ط3، منشورات المدينة، بيروت، 1985، ص150.

(111) عبد الرحمن صالح حيدره، المصدر السابق، ص26.

(112) منتدى ونيس للإبداع، على الرابط الآتي:-www.wanees.mamg.com

(113) أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين، ط2، مطبعة السُنة المحمدية، القاهرة، 1964، ص238؛عبد الله الثور، المصدر السابق، ص318.

(114) حسين بن علي الويسي، اليمن الكبرى، ج1، ط2، مكتبة الإرشاد، صنعاء، 1991، ص279؛ابن الديبع، الفضل المزيد، ص372.

(115) شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص238؛ميرنا إبراهيم، اليمن القسم الأول، وعُمان وقطر في موسوعة تاريخ الحضارة العربية، ج15-16، د.ط، 1999، ص49.

(116) أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص239؛قطب الدين محمد بن أحمد النهروالي المكي، البرق اليماني في الفتح العثماني، تاريخ اليمن من القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الشراكسة 917-999هـ والعثمانيين، أشرف على طبعه الشيخ محمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، ط1، 1967، ص31.

(117) أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص233.

(118) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص282.

(119) المصدر نفسه، ص283.

(120) المصدر نفسه، ص283.

(121) المصدر نفسه، ص284.

(122) المصدر نفسه، ص285.

(123) المصدر نفسه، ص286.

(124) عبد الله عبد الوهاب المجاهد الشماحي، اليمن الإنسان والحضارة، ص150.

(125) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، ص127.

(126) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص313.

(127) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص95؛ محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص314.

(128) محمد يحيى حداد، تاريخ اليمن السياسي، ص314.

(129) المصدر نفسه، ص314.

(130) أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، ص95.

(131) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، ص129.

(132) تولى سليمان باشا الارناؤطي إدارة مصر لمدة عشر سنوات ثم عزل منها، وأعيد حتى أعيد قائد الجيش الذي توجه إلى الهند لمواجهة القوات البرتغالية، ثم دخل إلى عدن وقتل السلطان عامر بن داود الطاهري ظلماً، ينظر أحمد فضل العبدلي، هدية الزمن، هامش (1) ص96.

(133) قطب الدين النهروالي، البرق اليماني في الفتح العثماني، ص80.

(134) فاروق عثمان اباظه، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976، ص51.

(135) ملتقى حضرموت للحوار العربي على الرابط الآتي:- Htt:llwww.hdrmut.net.

(136) أباظه، المصدر السابق، ص52؛

serjeant,R.B. the portugese of the south Arabian coast,oxford,1954,p.95.

(137) أحمد حسين شرف الدين، اليمن عبر التاريخ، ص262.

(138) حمزة علي إبراهيم لقمان، تاريخ عدن، ص132.

(139) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص20.

(140) المصدر نفسه، ص20.

(141) د. صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، ص109.

(142) علوي عبد الله ظاهر، عدن التاريخ والازدهار من عهد الزريعيين الى عهد الاشتراكيين، جامعة عدن، د.ط، ص33.

(143) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص21.

(144) المصدر نفسه، ص21.

(145) المصدر نفسه، ص22.

(146) عبد الله، المصدر السابق، ص319.

(147) ابن الديبع، الفضل المزيد، ص373.

(148) عبد الله، المصدر السابق، ص319.

(149) المصدر نفسه، ص320.

(150) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص21.

(151) المصدر نفسه، ص22.

(152) ينظر، رياض سعيد المشرقي، التعليم في عهد الدولة الطاهرية 858-923هـ/1454-1519، متاح على موقع واتا على الرابط الآتي:-.www.wata.cc/ forums

(153) محمد يحيى حداد، التاريخ العام لليمن، ج4، ص22.

الفصل الرابع

الحياة السياسية في الحجاز-مكة- المدينة

أولا: الحجاز التسمية والمقومات الجغرافية.

ثانيا: الأحوال السياسية في مكة من القرن السابع حتى العاشر الهجري الثالث عشر- السادس عشر الميلادي.

- مكة نهايات العصر الفاطمي والعهد الأيوبي.
- مكة في خضم الصراع الأيوبي الرسولي.
- عودة الأشراف الحسنيين الى مكة وإثارة النزاع الداخلي.
- تدهور حكم الأشراف في مكة وتداعيات نظام الشراكة حتى مجيء العثمانيين 701-923 هـ/ 1301-1517 م.
- مكة خلال حكم الأمير حسن بن عجلان 798-829 هـ/ 1395-1426م وما بعده حتى سقوط الدولة المملوكية 923هـ/1517 م.

ثالثا: الأحوال السياسية في المدينة المنورة من القرن السابع حتى العاشر الهجري/ الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي.

- إمارة بني مهنا في المدينة وموقف الحكم الأيوبي منها.
- أمراء المدينة في ظل حكم الدولة المملوكية حتى قيام السيطرة العثمانية 648-923 هـ/ 1250-1517 م.

أولا: الحجاز التسمية والمقومات الجغرافية

الحجاز هي المنطقة المتمثلة بسلسلة جبال السروات المعروفة بشدة ارتفاعها، الذي يصل إلى أكثر من (9000) قدم، تتألف من سلسلة شعيب وغامد في الشمال وزارع في الجنوب، وتشكّل هذه السلاسل الجبلية نطاقا واسعا يفصل بين الحجاز واليمن ونجد وتكون قاعدتها مدينة أبها[1]، تبدأ هذه السلسلة من اليمن جنوبا حتى الشام شمالا، سميت بسلسلة جبال الحجاز لأنها تشكّل حاجزا طبيعيا بين تهامة والغور عن نجد[2].

تحد الحجاز من الشمال شرق الأردن وأطراف العقبة ومن الشرق نجد ومن الجنوب منطقة عسير ويسمى القسم الأوسط منها الحجاز الأصل، والقسم الساحلي تهامة أو بلاد العرب الصخرية[3]، ومن الشرق جبل حضن، الذي يشكّل ظاهرة طبيعية بارزة وكانت للعرب القدامى مقولتهم المشهورة ((من رأى حضنا فقد أنجد)) أي من كان متجها من مكة المشرفة شرقا ورأى جبل حضن فإنه دخل إلى نجد[4].

تشكّل سلسلة جبال السرواة ظاهرة طبيعية قسمت المنطقة على ثلاثة أقسام، الأول: المنطقة الساحلية الغربية التي تمتد من أقصى الجنوب إلى تهامة فتصبح الهضبة في الشمال وتسمى تهامة الحجاز[5]، وتتسع هذه المنطقة أحيانا وتضيق أحيانا أخرى، ويصل أقصى اتساع لها عند ميناء رابغ الواقع إلى الشمال من ميناء جده، وتضيق في اماكن أخرى عندما تتلاصق بسلسلة جبال الحجاز مع ساحل البحر الأحمر شمال ميناء ينبع[6]، والثاني: هي منطقة الهضاب والنجود وتمتد بموازاة المنطقة الساحلية، إذ يبلغ أقصى أرتفاع لها 60 م وعرضها 40 ميل[7]، والثالث: المناطق الجبلية الواقعة في القسم الشمالي من الحجاز ويقال عنها أرض مديّن وسميت نسبة الى الجبال المسماة بهذا الاسم[8].

أما طبيعة مناخ الحجاز فهو متباين تبعا لتنوع مظاهر السطح فيها، لذلك تميزت مناطق الشرق والغرب بشدة الحرارة في الصيف مع مصاحبتها برطوبة عالية، أما المناطق المرتفعة عن سطح البحر ولا سيما سلسلة جبال الحجاز فتكون ذات حرارة معتدلة، مع ارتفاع ملحوظ في النهار والاعتدال في الليل، وفي فصل الشتاء تتأثر بهبوب الرياح الرطبة التي تتسبب في سقوط أمطار غزيرة، وفي فصل الخريف تتأثر بعض مناطق الحجاز بالرياح الموسمية فتسبب هي الأخرى سقوط أمطار فيها ولكن بكميات محدودة[9].

وعلى حد هذا التوصيف المناخي تكون مكة المكرمة ذات درجات حرارة مرتفعة لاحاطتها بسلسلة جبال عالية، في حين كان مناخ المدينة المنورة والطائف ذا حرارة معتدلة، يعتمد الحجاز بالدرجة الأساس على مياه الآبار والينابيع في ممارسة النشاط الزراعي لا سيما في المدينة المنورة وخيبر ووادي فاطمة[10].

ومن الناحية الإدارية يقسم الحجاز من الشمال إلى الجنوب على ثمانية عشرة إمارة موزعة على مجموعة من القرى والمدن وفيها عشائر من قبائل مختلفة وهي على النحو الآتي:

1- إمارات قريات الملح في طرف وادي السرحان من الشمال الغربي، ومن أهم قراها كاف وعثرة والصعيدي ومنوه.

2- إمارة الجوف أو وادي سرحان الأدنى وقد كانت من قبل مرتبطة بإمارة جبل شمر، ثم فصلت عنها وجعلت من حيث الإدارة والمالية تحت حكم أشراف مكة، ومن أهم مناطقها دومة الجندل وسكاكة[11].

3- إمارة تبوك ومركزها بلدة تبوك وتشمل قرى وقبائل بني عطية والحويطات.

4- إمارة العلا ومركزها بلدة العلا وتتبعها قرى هيتيم وولد علي وبعض قبائل حرب.

5- إمارة ضبا على ساحل البحر الأحمر وتشمل مناطق تهامة كافة حتى نهاية حدودها مع شرق الأردن ومن قراها المويلح والخريبه والحقل وتتبعها قبائل الطقيقات وحويطات التهم.

6- إمارة الوجه ومركزها بلدة الوجه على ساحل البحر الأحمر وتتبعها قبائل بلى.

7- إمارة أملج بين الوجه وينبع وتتبعها أقسام جهينة.

8- إمارة ينبع وتتبعها قبائل جهينة وفيها قبائل الأحامدة ومن مناطقها ينبع النخل وبدر.

9- إمارة المدينة المنورة وهي أوسع الأمارات وأعظمها مكانة وشأنا في البلاد وتتبعها أكثر القبائل من بني حرب والأحامدة وذي عبد الله من مطير وفيها الحرم المدني وأماكن الشهداء(12).

10- إمارة رابغ ومركزها بلدة رابغ ذات المرفأ الطبيعي وتتبعها أكثر قبائل مسروح من آل حرب الحجاز.

11- إمارة القضيمة الواقعة بين رابغ وجدة ولا تعد من الأمارات الكبيرة، وكانت إدارتها موزعة ما بين رابغ أحيانا وجدة أحيانا أخرى.

12- إمارة جدة وتمتد من القضيمة شمالا حتى طريق جبل السعدية جنوبا وإلى الهضاب الساحلية شرقا وجدة مرفأ الحجاز الأكبر ذات الأهمية الكبيرة في حركة التجارة من الحجاز وإليه.

13- إمارة مكة المكرمة، التي تمتد من حدود قضيمة إلى جبل السعدية في الجنوب والى الشرق حتى سلسلة كرى ويتبعها وادي فاطمة المعروف بخيراته والمساكن الذي عرف قديما ببطن مرمر الظهران[13].

14- إمارة الطائف ومقرها بلدة الطائف وتمتد من صرة البس وسهل ركبة الى أواسط جبال الحجاز الجنوبية، وتتبع لها غامد وزهران، الا أنهما انفصلا عنها فيما بعد.

15- إمارة غامد وزهران في أواسط سلسلة جبال الحجاز وهي محاذية إلى منطقة الليث شرقا ومركزها بلدة الباحة والظفير.

16- إمارة بني شهر ومركزها بلدة النماص.

17- إمارة الليث ومركزها بلدة الليث على سواحل البحر الأحمر وتتبعها بلاد ديرة وذوي حسن.

18- إمارة القنفذة ومركزها بلدة القنفذة وهي ثغر عسير السراة وتعد مركزاً تجارياً هاماً[14].

شهدت الحجاز تجاذبات عديدة بين قوى مختلفة، بسبب أهمية مكانتها الدينية وقيادتها للعالم الإسلامي، فقد حاول العلويون جاهدين بعد وفاة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وأله وسلم)، الوصول الى الحكم واعتلاء الخلافة، الا أنهم فشلوا في ذلك طوال العصر الأموي، لكنهم حقّقوا نجاحات في العصر العباسي فقد انتزعوا جزءاً من المغرب ومصر والشام، ونتج عن ذلك أن أصبح العالم الاسلامي ثلاث مرجعيات للخلافة هي العباسية في بغداد والأموية في الأندلس والفاطمية في مصر[15].

في عام 470-569 هـ 1078-1174 م قامت حكومات علوية في اليمن، كما قامت حكومتان علويتان في الحجاز مستقلة كل واحدة عن الأخرى عام 456 هـ/1064 م، واحدة في مكة وينبع وأخرى في المدينة، وكل منهما كانت تعلق ولاءها وطاعتها لحكام مصر الفاطميين أحياناً أو لحكام اليمن أو لخلفاء بني العباس أحياناً أخرى[16]، ولغرض تحديد معرفة الأحوال السياسية لكل واحدة منهما يتم

عرضها بصورة مستقلة وعلى النحو الآتي:

ثانيا: الأحوال السياسية في مكة من القرن السابع حتى العاشر الهجري الثالث عشر حتى السادس عشر الميلادي

- مكة نهايات العصر الفاطمي والعهد الأيوبي

عرفت مكة بأسماء ومسميات عديدة[17]، تقع في منطقة محاطة بتلال قاحلة جرداء، ترتفع عن مستوى سطح البحر 360 م وتبعد عن ميناء جدة على ساحل البحر الأحمر بحدود 73 كم، وبذلك يكون موقعها ضمن سهل تهامة الساحلي الممتد على طول ساحل البحر الأحمر من أقصى شماله عند خليج العقبة حتى نهايته الجنوبية عند باب المندب، ويحد سهل تهامة من الشرق جبال الحجاز، عرفت مكة بشدة حرارتها وركود رياحها وأرضها رملية وحصوية ذات تربة ملحية، لكن لا تخلو من بعض المناطق ذات الترسبات التي جرفتها السيول في بعض الأودية وهذه المناطق تزرع فيها بعض المحاصيل الزراعية المحدودة[18].

تتمتع مكة بموقع جغرافي متميز إذ إنها تصل المسافة بين الخليج العربي والبحر الأحمر وتحكمت بحركة القوافل التجارية القادمة من شبه الجزيرة العربية إلى موانيء الخليج العربي[19]، فضلا عن إشرافها على الطريق الممتد على طول خط الاستقرار الموازي لجبال السراة بين اليمن والشام ويمر هذا الطريق بكل من نجران والطائف ومكة ومن ثم إلى المدينة ومدائن صالح بتبوك ثم إلى الشام، والطريق الآخر الممتد من مكة نحو الشمال في وادي الرمة إلى رأس الخليج العربي، ولأهمية هذا الموقع من الناحية التجارية حيث يتحكم بحركتها في مناطق الاستقرار المحيطة ببلاد فارس واليمن وما ورائها من أرض الحبشة جنوباً، لهذا عُدّت حلقة الوصل ما بين الحضارات الشمالية والجنوبية ولم تكن عزلة جغرافية[20].

نظراً لما تمتعت به مكة من خصائص ومقومات جغرافية تمت الإشارة إليها، فقد مرت بأدوار حكم مختلفة ما بعد وفاة الرسول الاكرم (صلى الله عليه اله وصحبه وسلم) ثم الخلافة الراشدة والخلافتين الأموية والعباسية ومن ثم الدولة الفاطمية في مصر وبعد ذلك تولى الأشراف[21] والسادة[22] إدارة الحجاز في مكة والمدينة.

نشأت الشرافة في مكة أوائل القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي على يد أحد الأشراف الحسنيين أبو محمد جعفر الموسوي، مؤسس العائلة الشريفية الأولى التي تولت حكم إمارة مكة.

تتوافر روايتان عن كيفية وصوله إلى حكم مكة الأولى: إنه كان في المدينة زمن الاخشيديين فلما ضعف أمرهم بعد موت كافور[23] هجم على مكة واستولى عليها، والرواية الثانية إنه حينما تولى العبيديون حكم مصر أرسله الخليفة الفاطمي لتسليم حكم مكة نيابة عنه وتخليصها من حكم القرامطة وأتباعهم، وكان جعفر أحد قادة الجيش الفاطمي فاستولى على مكة باسم الفاطميين[24].

شهدت مدة حكمه حروباً وأضطرابات عديدة، واستمرت في عهد خليفته أبو الفتوح، الذي دخل في نزاعات مع أمراء المدينة من السادة الحسينيين وحكام اليمن كذلك، وكان من أشد المنازعين لأبي الفتوح وولده محمد شكر، وهو فرع آخر من الاشراف الحسنيين يسمى الفاتكي الذي كان شديد الوطأة على أمراء مكة، وقد استعان بأحد الأشراف ذوي السلطة في اليمن وقد استولى على منصب الشرافة[25].

اختلف أبو الفتوح مع الحاكم بأمر لله الفاطمي، الأمر الذي دعاه أن يقطع صلته به ثم تحول في ولائه إلى الخلفاء العباسيين في بغداد وخطب لهم في مكة، وخلال غياب أبي الفتوح عن مكة قام بأمر الشرافة الأمير الفاتكي الذي مكّن الأسرة الحسنية من إعادة السيطرة ثانية[26].

- مكة بين حكم الهواشم والنفوذ الأيوبي

الهواشم[27] في مكة هم فرع من الأسرة الحسنية الذين ظهروا منتصف القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وكان زعيمهم محد بن جعفر بن أبي هاشم[28]، الذي دخل في صراعات عديدة مع السليمانيين وطردهم من الحجاز ورحلوا إلى اليمن، وانفرد بحكم مكة وأقام الخطبة للخليفة الفاطمي المستنصر بالله، غير أنه سرعان ما قطع خطبه وأمر بأن تكون الخطبة للخليفة العباسي القائم بأمر الله[29]، الأمر الذي دعا المستنصر بالله الفاطمي أن يوجه داعيته في اليمن علي بن محمد الصليحي إلى التوجه بجيش إلى مكة ويعيد ولاءها للفاطميين وقد نجح في ذلك وأعاد الخطبة للحاكم الفاطمي في عام 455 هـ / 1063 م، وبعد ذلك عادت حالة الهدوء والاستقرار الى مكة[30].

هذه الأحداث وما رافقتها من متغيرات أتاحت الفرصة ثانية لعودة السليمانيين وعلى رأسهم حمزة بن وهاس، الذي دخل في حروب مع محمد بن جعفر استمرت قرابة سبع سنين وكانت نتيجتها أن استقرت الأمور لصالح محمد بن جعفر[31]، الذي ظل متأرجحاً في مواقفه ما بين الفاطميين والخلافة العباسية فتارة يعلن الخطبة بإسم المستنصر بالله الفاطمي، وتارة أخرى بإسم الخليفة العباسي في بغداد حسب طبيعة المتغيرات التي شهدتها ظروف حكمه في مكة[32].

توفى محمد بن جعفر في عام 487 هـ/ 1094 م وخلفه في أمرة مكة أبنه القاسم الذي دخل في صراع مع أحد قادة تركمان الشام أصبهيد سارتسكين الذي دخل مكة عنوة وأجبر القاسم على الخروج منها الى عسفان الواقعة بين مكة والمدينة، وهناك أعاد تنظيم قواته ثم تقدم لمواجهة أصبهيد سارتسكين وهزمه ودخل مكة ثانية في شوال عام 487هـ/ 1094م[33].

إن النصر الذي حقّقه القاسم بن محمد جعله يفكر في كيفية الاستفادة من الموانىء الموجودة على البحر الأحمر وفي المقدمة منها ميناء عيذاب الذي كان يستقبل السفن والمراكب القادمة الى مصر من عدن، لذلك جهّز حملة لمهاجمة الميناء المذكور بهدف الاستيلاء عليه في عام 512 هـ/1118 م، وتحركت قواته تلك ودخل جنوده الميناء ونهبوه واستولوا على السفن الراسية فيه، أثار هذا العمل الحكومة الفاطمية في مصر، وقد اتخذت من جانبها إجراءات عدة منها منع الميرة عن مكة كما منع الحجاج من السفر إليها إلى أن يرد القاسم جميع ما أخذه من أموال التجار في الميناء، وكانت لهذه المقاطعة آثارها على الوضع الاقتصادي في مكة، حيث ارتفعت الأسعار وتدهورت الأوضاع الاقتصادية، مما اضطر الأمير القاسم بن محمد الرضوخ لمطالب الفاطميين ورد أموال التجار المسروقة في عام 515 هـ/1121م[34].

أظهر الأمير قاسم بن محمد ولاءه للعباسيين فأقام الخطبة لكل من الخليفة المستظهر وابنه المسترشد، وظل على ذلك الخط حتى وفاته عام 518هـ/1124م، وجاء من بعده ابنه فليته بن قاسم بن جعفر عام 518هـ/1125م، الذي كان مواليا للعباسيين كسيرة والده وظل كذلك حتى وفاته عام 527هـ/1132م[35]، ثم تولى من بعده الحكم أبنه هاشم الذي هدأت الأحوال في عهده ودام حكمه أكثر من ثلاثين عاما توفي عام 549 هـ/ 1155م[36]، ثم آلت إمارة مكة إلى قاسم بن هاشم عام 549 هـ/ 1155م[37]، الذي أظهر حرصه على ذكر اسم الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله وابنه المستنجد في الخطبة، ونقش اسم الخليفة المقتفي على باب الكعبة، وفي الوقت ذاته حاول قاسم بن هاشم التقرب من الدولة الفاطمية ومحاولة إصلاح ما سبق أن وعد به من خدمة الحجاج القادمين من مصر والشام، ولكن مع ذلك فإن ولاءه ظل مرتبطاً بالخلافة العباسية[38].

في عام 556هـ/1161م قدم أمير الحاج العراقي أرغبن التركي إلى مكة في أثناء موسم الحج، الذي أمر بعزل الأمير قاسم بن هاشم وذلك لمصادرته أحوال المجاورين في مكة وعين ابن عمه عيسى بن فليته بن قاسم مكانه، واستقرت الأوضاع في مكة، إلا أن قاسم بن هاشم عاد ثانية إلى مكة مع مجموعة من الأعراب الذين أغراهم بالمال والهبات، إلا أنه خلف معهم ولم يف بوعوده فأنقلبوا عليه، أما الأمير عيسى فقد عاد إلى مكة وسيطر على مجريات الأوضاع فيها وأخرج قاسم بن هاشم ومن تبقى من أتباعه خارج المدينة[39]، وتوجه إلى جبل أبي قبيس، فسقط من فرسه، والقى فرسان الأمير عيسى القبض عليه وقتلوه، إلا أن الأمير عيسى قدم على قتله وأخذه وغسله ودفنه بمنطقة المعلاة عند قبر أبيه فليته[40].

عرف عن الأمير عيسى بأنه كريم النفس واسع الصدر كثير العلم ولم يطالب الحجاج بالمال أو انه عمد على نهب أو مصادرة أموال أهل مكة، ومع ذلك لم تنعم إمارته بالاستقرار بسبب الصراع الذي دار بينه وبين أخيه مالك عام 565هـ/1170م، والذي انتهى بهزيمة أخيه مالك[41]، توفي الأمير عيسى عام 570هـ/1175م وتولى ابنه داود بن عيسى مقاليد الحكم في شهر شعبان من العام نفسه[42]، لم يَنل الأمير داود رضا الخليفة المستضيء على الرغم من صلاحه وعدله، وقد حرّض الخليفة بعض الخارجين عليه للإطاحة به ونجح في طرده من مكة بعد عام واحد فقط من توليه الحكم عام 571 هـ/1176 م الذي لجأ الى وادي نخلة ونودي بأخيه مكثر بن عيسى أميرا على مكة، قد تبنى الأخير سياسة مختلفة عما سبقه حيث عمل على تكوين جيش قوي مجهز بأسلحة جيدة، كما بنى حصن له على جبل أبي قبيس ليلجأ إليه إذا احتاج الأمر إلى ذلك، كي لا يحدث له ما حدث لأخيه، وحتى لا يستطيع أمير الركب العراقي الوصول إليه إذا ما فكّر في مهاجمته أو عزله عن الإمارة، وفي الوقت ذاته

احتفظ بعلاقات طيبة مع الدولة الأيوبية والعباسيين وخطب لهم على المنابر، وبعد ذلك عقد الأمير شمس الدولة توران شاه صلح ما بين الأخوين داود ومكثر[43].

لا شك أن الإجراءات التي قام بها الأمير مكثر بن عيسى من تقوية الجيش وبناء الحصون، قد أغضبت الخليفة العباسي المستضيء الذي عدّ ذلك تحديا له، لذلك قرّر الخليفة عزله وتهديم الحصن، وأسند أمر ذلك إلى الأمير طاشتيكن[44]، الذي جهّز حملة كبيرة مجهزة بالسلاح والمنجنيقات وعدد من النفاطين وسارت الحملة بأتجاه مكة لإعادة الأمن والاستقرار إليها بعد أن عمّ الخراب فيها، وقد أيقن الأمير مكثر بن عيسى عدم قدرته على مواجهة تلك الحملة التي قادها أمير الركب العراقي لذا التجأ إلى الحصن الذي بناه والده فوق الجبل (أبي قبيس) وتحصن فيه، فحاصره طاشتيكن وعند ذلك اضطر الأمير مكثر ترك الحصن ومن ثم الهروب من مكة[45]، فدخلت قوات طاشتيكن إلى الحصن بعد أن هدّمت أسواره واستولت على ما فيه[46].

ولى طاشتيكن قاسم بن مهنا الحسيني وهو أمير في المدينة أمور إدارة مكة الذي رافق حملة طاشتيكن وبقي أميراً على مكة لمدة ثلاثة أيام فقط وعلم أنه لا يستطيع الحفاظ على موقعه بعد رحيل الحجاج، لذا طلب إعفاءه من مسؤولية الإدارة، لذلك أعاد طاشتيكن الأمير داود بن عيسى أميراً على مكة بعد أن اشترط عليه إسقاط المكوس[47].

اشتد النزاع الداخلي بين الأخوين داود ومكثر مرة اخرى، لا سيما بعد رحيل الحجاج، فعزل مكثر داود عام 572 هـ/ 1176 م، وتولى أمرة مكة بدلا عنه، إلا أن داود استعاد الامرة بعد ذلك بوقت قصير، ثم ما لبث أن عزل منها قبل شهر رمضان عام 579 هـ/ 1184 م، عندما دخل مكة السلطان طغتيكن ابن أيوب وهو في طريقه إلى اليمن وقد استقبله الأمير مكثر مستسلما وإن طغتيكن قد خلع عليه خلعتين قبل سفره الى اليمن، لذا خطب باسم الخليفة العباسي الناصر لدين الله ولصلاح الدين الأيوبي[48]، ثم ضربت العملة من الدنانير والدراهم باسم السلطان صلاح الدين، كما ألغيت المكوس وعوضه عنها صلاح الدين[49].

رحل طغتيكن عن مكة عام 587 هـ/1191 م وعادت حالة عدم الاستقرار من جديد واشتد النزاع بين داود والأمير مكثر، لذلك اضطر طغتيكن العودة ثانية الى مكة في شهر رمضان عام 581هـ/1185م، وعمل على إشاعة الأمن إلى الحجاج وتجديد الولاء إلى حكم أخيه صلاح الدين إلا أنه لم يستهدف طغتيكن تغير نظام الحكم[50].

شهدت العلاقة بين أمراء مكة والدولة الأيوبية تطورا هاما عام 587هـ/1191م، وذلك عندما لقب صلاح الدين الأيوبي بلقب خادم الحرمين الشريفين، وقد أصبح هذا اللقب فيما بعد من جملة الألقاب السلطانية في الدولة المملوكية[51].

استطاع سيف الإسلام طغتيكن من عودة الأمن والهدوء إلى ربوع مكة، ثم عاد إلى اليمن في العام نفسه، ثم عاود داود بن عيسى الحسني تولي الأمور عام 587هـ/1191م وقد استولى على أموال الكعبة وانتزع طوقا من الفضة كان موضوعاً على دائرة الحجر الأسود[52]، وقد اخبر الحجاج السلطان صلاح الدين الايوبي بما فعله داود بن عيسى الحسني، لذا أصدر أمره إلى أمير الحاج المصري أن يعزل داود عن إمارة مكة ويولي اخاه مكثر بدلا عنه وقد هرب داود وتجنب ملاقاة الركب المصري وبقى خارج مكة حتى وفاته عام 589 هـ/ 1193 م[53].

انفرد الأمير مكثر بإمارة مكة وإدارتها وشهدت المدينة حالة الاستقرار بعد وفاة أخيه داود واستمر كذلك حتى تم عزله على يد الأمير قتادة بن إدريس الحسني عام 597 هـ/1200 م، وبذلك زالت دولة الهواشم بمكة.

وهنا يمكن الاشارة إلى أن سبب زوال دولتهم هو طبيعة الصراع المستمر حول وراثة الإمارة والذي ظهر لأول مرة عام 557 هـ/1162 م، وادى ذلك النزاع إلى الإخلال بأوضاع الامن في مكة، وظهور بعض العناصر التي كانت تستغل تلك الظروف غير المستقرة فتعمل على نهب الحجاج والتجار القادمين الى مكة، لذلك فإن النتيجة الحتمية لذلك أن تدّخل أمراء الحجاج في شؤون مكة الداخلية[54] فعمدوا إلى عزل شريف وإقامة شريف بدلاً عنه، ثم أدى ذلك أيضا الى التدخل الخارجي وقد تمثل بالتدخل الأيوبي، وهذه العوامل بمجملها جعلت من إمارة مكة مضطربة طوال القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، مما مهّد السبيل إلى ظهور شخصية قوية من الأسرة الحسنية تمكنت من إزالة دولة الهواشم من مكة وتأسيس دولة شريفية جديدة[55].

- مكة في عهد الأمير قتادة[56] بن إدريس الحسني 597-611هـ/1200-1214م

في النصف الثاني من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ظهرت مجموعة من الحبشيين في الحجاز بزعامة قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم[57]، الذي يلتقي نسبه بنسب الجعافرة والهواشم في جدهم محمد الثائر بن موسى الثاني، وكانوا يقيمون في منطقة نهر العلقمية من وادي ينبع في أواخر عهد الهواشم في مكة[58]، انتهى أمر الرئاسة إليه في قومه من الأشراف فعمل على توحيدهم وأركبهم الخيل وستكثر من الجند والمماليك الأتراك، وبدأ العمل على توسيع رقعة إمارته فضم وادي الصفراء اليه بعد أن أخرج منه بني يحيى من الاشراف الحسنيين ثم حارب جماعة أخرى من أشراف بني الحسن القاطنين في منطقة ينبع مثل بني حراب وبني أحمد بن ابراهيم واستطاع من هزيمتهم وإخضاعهم إلى سلطته، وبذلك فرض سيطرته على كل منطقة ينبع التي كانت خاضعة لسيادة اشراف الهواشم الحسنيين[59].

لا شك أن هذا التقدم الذي حقّقه قتادة جعله يفكر في الاستيلاء على مكة وإخراج الهواشم منها مستغلا حالة الاضطراب وعدم الاستقرار التي كانت تعيشها مكة حيث انعدم الأمن لا سيما أيام الحج، إذ أصبح الحجاج لا يباتون في مزدلفة خوفا من الأعراب الشيبين الذين كانوا يقطعون الطرق عليهم، ولم يباتوا في منى كذلك سوى يومين، ويعجلون في النزول إلى مكة بسبب ضعف حكامها الذين لم يهتموا إلا بملذاتهم وأصبحت مكة تحت رحمة أولئك الاعراب، وفي الوقت ذاته نشط قطاع الطرق لا سيما تلك الطرق المؤدية الى مكة، ولم يسلموا منهم إلا إذا دفعوا لهم الإتاوة مقابل ذلك[60].

إن هذا التردي الأمني وعدم الاستقرار الذي شهدته مكة في أواخر حكم اسرة الهواشم، دفع قتادة للتوجه إلى مكة والاستيلاء عليها، لا سيما أنه وجد العزم والتشجيع من أتباعه ورجال قبائله، فضلا عن خططه في كيفية الاستفادة من اطراف المعارضة لأمراء مكة وفي المقدمة ضم البعض من قادة مكثر بن عيسى الحسني الذين كانوا متذمرين وتنتابهم حالة غضب من سوء معاملته لهم وهم أفراد من حاشيته، وأخبرهم برغبته في الاستيلاء على مكة، وطلب منهم العون والمساعدة وكانت إجابتهم بالموافقة والتأييد، ولا شك أن هذا الموقف هو الذي يسّر دخول قتادة إلى مكة من غير مقاومة[61]، في الوقت الذي كان فيه الأمير مكثر يؤدي عمرة الاكمة في التنعيم، أعلن عن سقوط حكم مكثر ونصب قتادة أمير على مكة، أما الأمير مكثر فقصد حرب إلى وادي نخله، وتوفي هناك عام 600 هـ/1204م [62].

جرت محاولة لاسترجاع مكة قام بها محمد بن مكثر بعد وفاة والده عندما جمع بعض أشراف بني هاشم وبعض أتباعه وسار بهم إلى مكة فتصدى لهم الأمير حنضله بن قتادة عند المنظم والبعض الآخر يقول عند منطقة المتكا، وجرى القتال بين الطرفين، فانهزم بن مكثر وعاد الى النخلة، ومن ثم استتبت الأمور بعد تلك الواقعة الى قتادة ولم تقم لبني مكثر والهاشمين بعد ذلك قائمة[63].

نظم الأمير قتادة الأوضاع الإدارية في مكة فأنشأ الوزارة وعيّن ابن الريحاني المكي وزيراً له[64]، ثم خطب للخليفة العباسي الناصر لدين الله، ليضمن مساندته من جهة وليضفي على حكمه صفة شرعية من جهة أخرى، فأتته الخلع والأموال من بغداد اعترافاً به وتأييداً له، وفي الوقت ذاته خطب لملك العادل ابن أيوب بعد الخليفة الناصر[65].

بعد أن استتبت الأوضاع في مكة والمدينة للأمير قتادة عمل على توسيع حدود ملكه وكان ذلك على حساب جيرانه، فقد استولى على البعض من أطراف اليمن وتحديداً بعض مناطق عسير وبعض من أعمال المدينة المنورة وبلاد نجد[66]، ويرى بعض الباحثين أن في ذلك مبالغة فإن حدود توسعه لم تكن خارج حدود الحجاز في مكة وينبع والطائف.

بعد أن استقرت أوضاع إدارته وشعر بأنه مأمون الجانب من الخلافة العباسية، شن هجوما على المدينة عام 601هـ/1204م وأخرج الأمير سالم بن قاسم الحسيني وحاصر المدينة لأيام عدة في الوقت الذي عمل فيه سالم بن قاسم على استمالة بعض قادة قتادة، فخذله بعضهم الأمر الذي تسبب بخسارة قتادة لهذا الهجوم، وقرّر بعد ذلك العودة إلى مكة فتعقبه سالم بن قاسم وحاصره في مكة، وقال له في كتاب بعثه إليه: «يا ابن كسرة بكسرة وأسام حصار بمثلها والبادي أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب في القايل»[67].

بعد ذلك عقد الصلح بينهما وعاد سالم بن قاسم الى المدينة، وسارت حالة الهدوء ودامت قرابة عشر سنوات من عام 601- 611هـ/ 1205- 1215م وقد انشغل الأمير قتادة بشؤونه الداخلية من جهة وبأحداث اليمن التي شهدت حالة الاضطراب في عهد حكم الملك الناصر أيوب بن طغتكين من جهة ثانية[68].

عاد الأمير قتادة بالتفكير بالاستيلاء على الطائف بعد فشل حملته على المدينة، فجهّز جيشاً عام 613هـ/1217م لمقاتلة قبائل بني ثقيق في الطائف فهرب زعماؤها وتحصنوا ببعض الحصون، فاستدعاهم قتادة للحضور وآمنهم ووعدهم بالقتل إذا لم يحضروا، وحصل الإجماع بين الزعماء على الذهاب إليه، وهذا ما حصل إلا أن قتادة انقض عليهم وقتلهم جميعاً، واستخلف على إدارة

الطائف نواباً عنه وأمرهم بعدد من العبيد الأشداء يساندوهم ويشدون من أزرهم ويحفظون لهم الأمن والاستقرار[70].

عزّزت سيطرة الأمير قتادة على الطائف سلطته لا سيما في الجانب الاقتصادي، حيث عرفت بأنها غنية بمواردها لا سيما الانتاج الزراعي، لذلك تعزّزت قوته المالية والعسكرية على حد سواء، ولكن يظهر ان أهل الطائف ظلوا يحملون الضغائن والحقد في نفوسهم تجاه ما قام به قتادة من عمل ضدهم، لذلك وضعوا خطة مخادعة لنواب الامير قتادة في الطائف واستدراجهم والتظاهر بأنهم كانوا يريدون حضور اجتماع لمناقشة كتاب ورد اليهم من الأمير قتادة على أن حضورهم يكون من غير سلاح لمكان الاجتماع وحضروا لذلك، وما أن عقد الاجتماع المزعوم حتى خرج رجال القبائل من الطائف وهجموا على نواب قتادة وقتلوهم جميعاً ولم يسلم منهم إلا واحد فقط الذي استطاع الهروب والذهاب إلى مكة وأخبر الأمير قتادة بما حصل[71].

لا شك أن الحادث أغضب قتادة وأمر بإعداد حملة ثانية على الطائف لاستعادة سيطرته عليها، إلا أن قتادة اضطر لسحب قواته من الطائف بعد أن تجددت محاولات أمير المدينة قاسم بن جماز الذي سار بجنده للسيطرة على مكة[72]، فحاول عام 613هـ/1216م الاغارة على جده وكان هدفه من ذلك التأثير في اقتصاد مكة ويمنع الاتصال بينها وبين مينائها على البحر الأحمر، فجهّز قتادة عسكراً ونازل جيش المدينة بمنطقة الحمية في يوم عيد الأضحى من تلك السنة وتمكن من إلحاق الهزيمة به[73].

استطاع أمير المدينة قاسم بن جماز من السيطرة على بعض المواقع التابعة إلى الأمير قتادة في منطقة الحجاز ومنها النخلة[74]، عزو ذلك التراجع الذي حصل في قوات الأمير قتادة وهزيمة قواته في وادي الصفراء عام 612هـ/ 1215م[75]، إلا أنه أعاد تنظيم قواته وقاد حملة جديدة على المدينة عام 615هـ/ 1219م لمحاربة أشرافها، فغار على موقع (عمق) الواقع على مسافة أربعة فراسخ[79] (24كم) من المدينة وأحرق الزرع والنخيل فيها، ثم توجه بعد ذلك الى المدينة في عام 617هـ/ 1220م وقد شارف على التسعين من عمره، فأصابه مرض شديد وهو في الطريق، فلما بلغ وادي الفرع نزل به وأمر أخاه على السكر ثم عاد الأمير قتادة إلى مكة[77].

حصل خلاف بين أخ قتادة وابنه حتى قتل الابن الحسن عمه فغضب قتادة على هذا الفعل وأقسم بأن يقتله، لذلك أرسل إليه بعض رجاله لتنفيذ مهمة قتل ولده، إلا أن الابن سبق والده وذهب إلى مكة وهدفه التخلص من أبيه، وعندما وصل إلى الدار الذي يرقد فيه والده وجد حشداً من الناس فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم ودخل على أبيه الذي ما إن رآه حتى بادر بشتمه وتوبيخه وأخذ يهدّده بالقتل، فما كان من الابن العاق الحسن الا أن يثب على أبيه ويخنقه بمساعدة غلام عبد وجارية، فقتلهما بعد أن نفذ جريمته، مدعياً أنهما قتلا أبيه، وما هي إلا خدعة أمام الناس ليبرّر ما فعله[78]، ويخفي جريمته.

بعد أن قتل والده ذهب الى الحرم وجمع الأشراف وقال لهم: «إن أبي قد مرض وقد أمركم أن تحلفوا لي أن أكون أميركم فحلفوا»[79]، واستطاع الملك المسعود بن الكامل الأيوبي أن يكشف السر الذي كان الحسن قد مرّره على الناس بعد أن أمر بنبش قبر قتادة فوجده فارغاً، وعند ذاك علم الجميع أن الحسن قد قتل والده ودفنه في مكان آخر عام 617هـ/1220م بعد حكم مكة دام عشرين عاماً[80].

- مكة في عهد الأمير الحسن بن قتادة والموقف الأيوبي منه

لم تستقر الأوضاع في مكة بعهده بسبب معارضة أخيه الأمير راجح الذي كان يقيم في بادية مكة ونازعه على شؤون الإمارة بحجة أنه هو الأكبر، وهو صاحب الحق في وراثة حكم أبيه، لذلك قام بأعمال منها قطع طريق الحج بين مكة وعرفات، وكان أمير الحج العراقي ذاك العام هو أقباش بن عبد الله الناصري وهو مملوك الخليفة العباسي الناصر لدين الله وقد أرسل معه تقليداً للحسن بن قتادة بولاية مكة معرض الأمير راجح على أقباش الناصري بمساندته بالمال إذا ما تعاون معه في مواجهة أخيه الحسن[81]، ولكن لم يحصل على إجابة الناصري بشأن طلبه.

شعر الأمير الحسن بن قتادة بما دار بين أخيه وأمير الحاج العراقي أقباش الناصري فعمل على استمالة الناصري بعد إغرائه بالمال، وحاول أقباش من جانبه إصلاح ما بين الآخرين، إلا أنه لم ينجح، ودارت معركة شرسة بينهما قتل فيها أمير الحاج أقباش الناصري وهرب راجح إلى اليمن والتحق بقوات الملك المسعود الأيوبي[82]، وبعد ذلك بعث الحسن مندوباً عنه إلى دار الخلافة في بغداد لطلب العفو من الخليفة العباسي الناصر لدين الله.

استطاع راجح بن قتادة من اقناع الملك المسعود الايوبي بمهاجمة مكة التي كانت تحت إدارة أخيه الحسن وأخبره بانه هو أحق من أخيه بإدارة مكة، لذا فهو يطلب المساعدة في عزل أخيه ومن ثم تولي ولايتها، في المقابل إن موقف الأشراف كان ضعيفاً بسبب تفرقهم من جهة وضعف إسناد أهل مكة لهم بسبب سوء معاملتهم لهم من جهة ثانية، وحصلت المواجهة بين جيش المسعود الأيوبي وبين جيش الحسن بن قتادة انتهت بهزيمة الحسن بن قتادة ودخول قوات المسعود مكة التي أشاعت الخراب والدمار والنهب فيها، لذلك أعلن الملك المسعود أوامره بتحريم تلك الأعمال، ثم قام بسلسلة من الاجراءات هدفها استمالة أهل مكة فأمر بإعادة كل ما سرق ونهب من المدينة وتعامل مع السكان بسياسة مرنة، وعند ذاك سادت حالة الأمن وتحسنت أوضاعها الاقتصادية[83].

ظل السلطان الملك المسعود الأيوبي على إمرة مكة حتى انتهاء موسم الحج وقد خطب لوالده السلطان الملك الكامل الأيوبي، كما ضرب الدراهم المسعودية التي تنسب اليه، وصارت مكة تتبع الى الإدارة الأيوبية[84]، أما راجح بن قتادة فلم يحصل على ما كان قد خطّط له بتولي أمرة مكة، وعرض الملك المسعود أدراة مكة على الامراء الذين رافقوه من اليمن وقَبِل بها القائد عمر بن علي بن رسول[85]، الذي وافق على البقاء في مكة ومقاومته الأشراف بعد أن ترك له السلطان المسعود حامية مؤلفة من ثلثمائة فارس ثم عاد إلى اليمن[86].

واجه عمر بن علي بن رسول هجمات عديدة قام بها الحسن بن قتادة الذي استغل فرصة عودة الملك المسعود إلى اليمن، وحصلت مواجهة بين قواته وقوات عمر بن رسول، إذ استطاع الأخير إيقاع الهزيمة بقوات الحسن واجبره على الرحيل إلى الشام ومنها إلى الجزيرة العربية حتى وصوله إلى العراق واستقر فيها حتى توفى عام 622هـ/1225م ودفن بمشهد الإمام موسى الكاظم (ع) [87].

- مكة في خضم الصراع الأيوبي الرسولي

في أعقاب وفاة الملك المسعود اشتد النزاع بين الأيوبيين وبني الرسول وتوالت الحملات من كلا الجانبين ودارت معارك تناوب فيها الطرفان في تحقيق الانتصار لكل منهما على الآخر، وظلت مكة تحت حكم أمراء ضعفاء من كلا الطرفين واستمرت على ذلك الحال مدة طويلة انتهت بسيطرة نور الدين عمر بن رسول على مكة[88]، وهذا يلزم الاشارة إلى أهم الأسباب والدوافع التي أدت بالدولة الرسولية فرض سيطرتها على مكة والحجاز وهي:

أولاً: إن امتلاك بني الرسول الأماكن المقدسة سوف يتيح لهم مركزاً مرموقاً بين المسلمين كما يؤدي الى تثبيت أقدامهم في بلاد اليمن التي اغتصبوا ملكها من الأيوبيين.

ثانياً: كانت مكة من أملاك المسعود الأيوبي الذي سعى نور الدين إلى السيطرة عليها وأدعى **أن المسعود** أوصاه بالحفاظ عليها إذا ما توفي ولا يمكن لأحد من الأيوبيين من السيطرة على شيء **منها**[89].

ثالثاً: إن الحملات التي سيرها الأيوبيين الى اليمن من مصر كانت جميعها تفد إلى تلك البلاد عن طريق الحجاز، لذلك فإن سيطرة الرسولين على الحجاز هو من قبيل تأمين بلادهم وعدم الزحف لتلك الحملات على اليمن.

هكذا يظهر أن نور الدين عمر بن رسول عمل على ضمان سلامة حكمه في اليمن وذلك عن طريق تأمين بلاده من المخاطر الخارجية التي تكون قادمة من الحجاز إذا ما تعرض لانتقام الملك الكامل الأيوبي لذلك فإن بعده الاستراتيجي العسكري هو حصول الصدام خارج مركز حكمه، ولهذا شنّ سلسلة من الحملات العسكرية على مكة واستطاع بموجبها أبعاد النفوذ الأيوبي من مكة[90].

خشي الملك الكامل على نفوذ الدولة الأيوبية في مكة والحجاز بعد الاجراءات التي اتخذها نور الدين عمر الرسولي في مقاومته، ثم تعيين طغتكين بن عبد الله الكامل عليها وأمّده بجيش لمساندته فتقدم إلى مكة واجتمع بأعيانها وأنفق عليهم أموالاً طائلة واخذ منهم العهود والمواثيق وبناء البمارستانات (المستشفيات) لمعالجتهم[91].

في عام 629هـ/1231م وصلت الحملة الرسولية بقيادة ابن عبيدان إلى مكة وفي بعض المصادر ورد باسم ابن عبدان[92]، ورافقه راجح بن قتادة، أما طغتكين فقام بدوره في أستمالة أعيان مكة

وأهاليها، لكنه فشل في الوقت الذي أستطاع راجح بن قتادة أن يكسب أعيان مكة وأهاليها وذكّرهم بأحسان نور الدين عمر الرسولي في أثناء ولايته لهم نيابة عن الملك المسعود عام 620هـ/1223م، وفي الوقت ذاته أنفق راجح بن قتادة أموالاً كبيرة على أهالي مكة، لذلك نجح في مواجهة قوات طغتكين وأجبره على الانسحاب إلى ينبع، ومن هناك خاطب الملك الكامل وأخبره بأحداث مكة وطلب مساعدته، فأرسل له الملك الكامل عسكراً من مصر بقيادة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، وأمر الشريف أبا سعد الحسن بن علي بن قتادة صاحب ينبع والشريف شيحة أمير المدينة مؤازرة العسكر الأيوبي[93].

دارت رحى مواجهة شديدة بين القوات الأيوبية وقوات راجح بن قتادة وابن عبدان انتهت بهزيمة راجح بن قتادة وابن عبدان ودخلت القوات التابعة إلى طغتكين مكة واستباحتها لمدة ثلاثة أيام انتقاماً من أهلها وشاعت أعمال النهب والسلب والقتل فيها حتى وصلت تلك الأخبار المؤسفة إلى الملك الكامل الذي استنكر هذا العمل وأمر بعزل طغتكين[94].

يظهر أن طموحات نور الدين الرسولي ومساندة راجح بن قتادة لم تتوقف بشأن إعادة السيطرة على مكة والحفاظ عليها، لذا قاموا بحملة جديدة في عام 631هـ/1233م وتحقّق انتصارهم على القوات الأيوبية التي كانت بإمرة علاء الدين سنقر الزاهدي الذي ترك أميراً له يدعى ابن مجلس في مواجهة مع القوات الرسولية الهاجمة[95].

شهدت مكة حالة من التأزم السياسي بسبب افتراق كلمة الأشراف الحسنيين وتنازعهم حول ما تبقى لهم من نفوذ بمكة في ظل تفاقم الصراع الرسولي الأيوبي، ففي أوائل عام 632هـ/1234م اختلف الشريف راجح بن قتادة مع نائب الملك المنصور الرسولي بمكة مع أخويه قاسم وعلي اللذان أخذا مكة منه قهراً ومكثا فيها خمسة أشهر واستولا على قناديل الكعبة وحليتها وأستعانا بها لمحاربة أخيهم راجح إذ سرعان ما ثار من العلاقة بينه وبين المنصور نورالدين الرسولي بعد أن علم أنه يساند أخواه ضده وبذلك يكون المنصور الرسولي قد فقد مساندة راجح بن قتادة[96].

أما الملك الكامل فقد أرسل من جانبه قوة كبيرة لاستعادة السيطرة الأيوبية على مكة بقوة تقدر بخمسمائة فارس يتقدمهم الأمير أسد الدين (جفريل) الذي دخل مكة من غير مقاومة بعد قرار الشريف راجح بن قتادة وابن البصري ومن كان معهما من العسكر إلى اليمن[97]، وبذلك عاد حكم مكة مرة أخرى تحت سيطرة القوات الأيوبية، ثم تولى الأمير أسعد الدين (جفريل) مهمة نائب الملك الكامل في مكة لكنه تصدى للعديد من محاولات بني الرسولي لاسترداد مكة إلا أنها فشلت[98]، ولم يتغلغل اليأس إلى القوات الرسولية في أن يستعيدوا المدينة المنورة، ففي عام 635هـ/1237م قاد

السلطان نور الدين حملة بنفسه قُدرت بألف فارس وانضمت إليه قوات الشريف راجح بن قتادة المكونة من ثلثمائة فارس، فوصلت أنباء هذه الحملة الكبيرة إلى الأمير جفريل عن طريق عيونه المنتشرة للاستطلاع، وعرف بحجم الحملة واستعداداتها وقوتها من جهة وضعف قواته وعدم إسناد أهل مكة له، لذا فإن المواجهة محسومة للحملة الرسولية، لذا قرّر الانسحاب من المدينة قبل يومين من وصولها[99].

دخلت قوات نور الدين الرسولي الى مكة وأدى العمرة في رجب من عام 635هـ/1237م وقد تصدق فيها بأموال كثيرة وجعل الشريف راجح بن قتادة الحسني نائباً عنه فيها، ثم عاد الى اليمن في عام 636هـ/1238م، بعد أن ترك حامية من الجند لمساعدته مكونة من مئة وخمسين فارساً وجعل عليها اثنين من قادته هما ابن الوليدي وابن التغري وقد ذكر راجح في خطبته الخليفة العباسي وابن رسول[100].

لم تشهد مكة حالة الاستقرار السياسي وظلت في سجال ما بين الأيوبيين والرسوليين من عام 637هـ/1239م حتى عام 639هـ/1243م عندما استطاعت القوات الرسولية أن تحكم سيطرتها على المدينة، حين أقام فيها الملك المنصور الرسولي مدة طويلة وقد اتخذ سلسلة من الاجراءات منها إبطال سائر المكوس والجبايات والمظالم، وأمر بهدم قلعة ينبع حتى لا تكون قاعدة للأيوبيين في بلاد الحجاز، وأعاد توزيع قواته العسكرية، وعيّن الشريف أبا سعد نائباً عنه في وادي مر يساعده العسكر بمكة مع القادة الآخرين فخر الدين بن شلاح وابن فيروز، وبعد ذلك قرّر المنصور مغادرة مكة وعاد إلى اليمن عام 646هـ/1249[101].

ظل الأمير فخر الدين شلاح والياً على مكة ممثلاً لآل الرسول فيها حتى عام 646هـ/1249م، حيث عزله السلطان نور الدين في تلك السنة وولى مكة بدلاً عنه ابن المسيب الذي تعهد بدفع مال يؤديه عن الحجاز من نفقات الجند وإرسال مئة فارس كل سنة واستمر ابن المسيب نائباً عن السلطان نور الدين لمدة سنة وسرعان ما استبد في إدارته وأعاد المكوس والجبايات على أهل مكة، وخلع الرقعة التي كتبها السلطان نور الدين بجوار الحجر الاسود واستولى على أموال الصدقة التي كانت تأتي إلى مكة من اليمن وبغداد وغيرها من البلدان العربية الأخرى، لذا فإن سلوكه هذا قد أغضب الجند وكذلك أهالي مكة[102]، الأمر الذي دعا القائد أبا سعد علي بن قتادة الحسني أن يلقي القبض عليه ويقيّده ويستولي على ما كان معه من أموال وسلاح وخيول وخاطب أهل مكة بقوله: «إني تحققت أنه يريد أن يهرب بمال السلطان إلى العراق وأن غلام مولانا السلطان والمال عندي محفوظ والخيل والعدد إلى أن يصل مرسوم السلطان فيه»، حتى وردت الأخبار بعد أيام قليلة بوفاة السلطان فاستقر الحكم في مكة إلى أبي سعد عام 647هـ/1249م واستمر مقيماً على ولايته حتى سقطت الدولة الأيوبية في مصر[103].

- عودة حكم الأشراف الحسنيين الى مكة وإثارة النزاع الداخلي.

استأثر الشريف أبو سعد حسن بن علي بن قتادة بعد اعتقال ابن المسيب ووصول أخبار مقتل نور الدين بن رسول بشؤون إمارة مكة والاستقلال فيها، في الوقت الذي سيطر فيه الأشراف الحسينيون على المدينة وعلى الجزء الشمالي من الحجاز[104].

بدأت المنافسات الداخلية بين أبناء أسرة قتادة في مكة، فقد توجه الشريف جماز بن حسن بن قتادة إلى الملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر صاحب دمشق وحلب، وطلب مساعدته ضد خصومه مقابل ذلك يذكر اسمه في الخطبة، فأمده الملك الناصر بحملة تمكن بموجبها من الاستيلاء على مكة[105]، في شوال من عام 651هـ تشرين الثاني 1253م وقتل فيها الشريف أبي سعد، إلا أن الشريف جماز بن حسن لم يف بعهده إلى صاحب دمشق وحلب ولم يذكر الخطبة باسمه ومع ذلك لم تستمر مدة حكمه في مكة سوى مدة قليلة وعادت سيطرتها من جديد الى الشريف راجح بن قتادة حليف بني رسول[106].

تعرض الشريف راجح بن قتادة إلى مؤامرة قادها ولده غانم بن راجح بتحريض من الشريف إدريس بن قتادة وأبي نمي بن أبي سعد بن علي وأخرج والده في مكة واستولى عليها في ربيع الأول عام 652هـ/ نيسان 1254م ولكن غانم بن راجح سرعان ما نحي بتأمر إدريس وأبي نمي وعند ذلك اشتركا في إدارة مكة[107].

في شعبان من عام 652هـ/1254م أرسل الملك المظفر يوسف حملة بقيادة الأمير مبارز الدين بن برطاس لمهاجمة مكة وتصدى له أمير مكة إدريس وأبو نمي الذين حضيا بمساندة أمير المدينة الشريف جماز بن شيحة، إلا أن ابن برطاس أوقع الهزيمة بهم وأستولى على مكة، لكن الأشراف أعادوا تجميع قواهم وشنوا هجوماً على مكة في أوائل عام 653هـ/ 1255م واستطاعوا أن يوقعوا الهزيمة بالجيش الرسولي وأجبروا ابن برطاس على العودة إلى اليمن بعد أن دفع جزية مقدارها خمسة آلاف دينار، ومن ثم عادت مكة تحت حكم أدريس وأبي نمي مرة أخرى[108].

شهدت مكة حالة من الأضطراب السياسي ولم تستقر في ظل الحكم الثنائي بين إدريس وأبي نمي لا سيما أن بوادر الانفراد بالحكم قد ظهرت لدى أبا نمي من جهة وظهور معارضة أولاد الحسن بن قتادة الذين شاركوا في تدبير مؤامرة قتل والد الشريف أبي نمي فكانت لهم طموحاتهم في الاستيلاء على مكة، لكن سرعان ما عادت حالة التفاهم بين إدريس وأبي نمي واستمر الحكم المشترك بينهما[109]، لا سيما أن الظروف أملت عليهما مثل هذا التوجه بعد سقوط الخلافة العباسية في بغداد 656هـ/1258م.

تولى المظفر يوسف في عام 657هـ/1259م أمر الحرم الشريف وعمارته وإقامة منائره وخدمته ومن ثم الإنفاق على متطلباته[110]، وفي عام 659هـ/1261م توجه السلطان لأداء فريضة الحج في حشد كبير من أهل اليمن وأعيانها ولما اقترب من مكة هرب كل من الشريف إدريس وأبي نمي خشية منه فدخلها حاسر الرأس معتمراً في الرابع من ذي الحجة/ 3 تشرين الأول من العام نفسه ونزل في المدرسة المنصورية التي شيّدها والده وفي أثناء وجوده هناك قام بأعمال البر والإحسان[111]، وغسل الكعبة وأكساها ويعد هو أول من أكساها بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد[112]، ثم عاد وأكساها عام 666هـ/1268م وأرسل أموالاً كبيرة للإنفاق على تحلية باب الكعبة وتزينها بصفائح من الفضة المطلية بالذهب[113].

أظهر السلطان الظاهر بيبرس المملوكي أهتمامه بمكة بعد أن قلّده الخليفة العباسي المستنصر بالله البلاد الحجازية وأطلق عليه لقب خادم الحرمين الشريفين وذكرت الخطبة باسمه في مكة عام 662هـ/1264م، وسلّم مفاتيح الكعبة إلى الصدر جمال لدين بن الموصولي وكان هو نائب السلطان في مكة[114]، ومن هنا بدأ الصراع الرسولي المملوكي حول فرض السيطرة على أشراف مكة والفوز بشرف حماية الحرم المكي الشريف ورعاية مصالح الحجاج.

انعكس التنافس هذا على موقف أميري مكة نجم الدين أبو نمي وبهاء الدين إدريس وذكرت حوادث عام 667هـ/1268م، أن أبا نمي أخرج عمه إدريس من مكة وحصل على تأييد السلطان الملك الظاهر بيبرس ودعمه بالسلاح والمال مقابل شروط منها قيام أمير مكة برعاية مصالح الحجاج وسماحه للزائرين بدخول مكة ليلا ونهارا وعدم التعرض للتجار وإلغاء سائر المكوس في مكة وإقامة الخطبة للظاهر بيبرس وضرب السكة باسمه، فوافق أبو نمي على تلك الشروط عند ذاك بعث الظاهر بيبرس تقليده بمفرده[115].

توّثقت العلاقات بين أمراء مكة ودولة المماليك بسبب المصالح المشتركة بينهما، الأمر الذي حقّق السلطان الملك الظاهر مكانة كبيرة في العالم الإسلامي وحضيت مكة باهتمامه ورعايته ثم علّق الكسوة التي أحضرها معه من مصر على الكعبة الشريفة وعلقها بيده[116]، ثم عاد السلطان الملك الظاهر وعين نائبا عنه الأمير شمس الدين مروان في مكة غير أنه لم يستطع مجاراة أبي نمي وإدريس فأخرجاه من مكة عام 668 هـ/1269 م، ولم يعترض الملك الظاهر بيبرس على ذلك، وعاد النزاع قائما بين إدريس وأبي نمي للانفراد بحكم مكة واستطاع أبو نمي من قتل إدريس والتخلص منه، وعند ذاك انفرد بالحكم في مكة، وسرعان ما دخل في صراع ونزاع مع أشراف المدينة استمر من عام 670 هـ/1271 م حتى عام 675 هـ/ 1276 م[117].

شهدت المدة الواقعة ما بين عام 676هـ/1277م وعام 681هـ/1282م اضطراب الدولة المملوكية في مصر في أعقاب وفاة الملك الظاهر بيبرس وتولى السلطان قلاون السلطة الذي كان مشغولا بإعادة ترتيب إدارته، عمل الشريف أبو نمي على التقرب من الملك المظفر الرسولي، إلا أن السلطان قلاون شعر بهذا التقارب فأسرع الى مخاطبة أبي نمي وأخذ منه العهود والمواثيق بالاستمرار في ولائه لدولة المماليك وقدّم أبو نمي تعهداً بذلك هذا نصه:-

« أخلصت يقيني وأحقبت طويتي وساويت بين باطني وظاهري في طاعة مولانا السلطان المنصور وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما ووارثي ملكهما لا أضمر لهم سوءاً ولا غدرا في نفسي ولا مالاً ولا سلطنة وأني عدو لمن عاداهم وصديق لمن صادقهم حرب لمن حاربهم سلم لمن سالمهم وأني لا يخرجني عن طاعتهم أحد غيرهما ولا أتفق إلى جهة غير جهتهما ولا أفعل أمرا مخالفا لما استقر من هذا الأمر ولا أشرك في تحكيمها علي ولا على مكة المشرفة وحرمها وموقف حلها زيدا ولا عمرا»[118]، وبعد هذا التعهد أرسل السلطان قلاون الهبات والهدايا إلى أبي نمي، لكن يظهر أن الأخير لم يلتزم بما تعهد به وخالف أموراً كثيرة لا سيما فرض المكوس والجبايات، الأمر الذي أغضب السلطان قلاون الذي أرسل له حملة من ثلاثمائة فارس في عام 683 هـ/1284 م بقيادة علم الدين سنجر الباشقردي ولم يستطع أبو نمي مقاومتها فدخلت الى مكة، وقام قاضي القضاة الصاحب برهان الدين السنجاري المصالحة الباشقردي مع أبي نمي[119].

أما السلطان قلاون فقد اهتزت ثقته بأبي نمي لعدم التمسك بما تعهّد به، وفي الوقت ذاته أن أبا نمي من جانبه عمل على ما تحقق في استقلاليته في إدارة مكة من غير التدخل المباشر من السلطة المملوكية في مصر، هذا الأمر لا شك خلق علاقة متوترة بين الطرفين، الأمر الذي جعل ابا نمي يقطع ذكر إسم السلطان في الخطبة في عام 691 هـ/1292 م[120]، وأقامها الملك المظفر صاحب اليمن ولم يستمر على ذلك إلا مدة عام واحد ثم عاد الخطبة بإسم الملك السلطان قلاون واستمرت العلاقات هادئة بين الجانبين حتى عام 696 هـ/1297 م، على الرغم من قتل السلطان قلاون عام 693 هـ/1293 م وتولي السلطان كتبغا مقاليد حكم الدولة المملوكية الذي عزّز صلاته بأبي نمي وكذلك الحال مع السلطان لاجين[121]، إلا أن أبا نمي قطع الخطبة بإسم السلطان وأقامها إلى الملك المؤيد داود الرسولي الذي اجزل العطاء على أبي نمي من الهبات والهدايا والخلع النفيسة فضلا عن مبلغ من المال قدر بثمانين ألف درهم[122].

توفي الأمير أبو نمي في عام 701 هـ/ 1301 م، بعد أن تولى إدارة مكة قرابة خمسين عاماً[123]، وقد وصفه الخزرجي بأنه كان أميرا كبيرا له حظ وافر من الأمرية راغبا في الأدب وسماعه وله إجازات للشعراء الوافدين عليه من أطراف الخيال[124]، وكانت له خمس خصال هي العز والحكم والكرم والشجاعة والشعر، خلف من بعده خلفا من واحد وعشرين ذكرا[125]، واثنتا عشرة أنثى[126].

تدهور حكم الأشراف في مكة وتداعيات نظام الشراكة حتى مجيء العثمانيين 701 -923 هـ/ 1301-1517 م

أمر أبو نمي قبيل وفاته بمدة قصيرة جدا ومن على قبة زمزم في أول جمعة من شهر صفر عام 701 هـ/ 1301 م بأن يكون أمر حكم مكة شراكة بين الاخوين رميثه وحميضه، وكان كذلك بعد وفاته واستمر قرابة عشرة أشهر كانت معظمها في نزاع مع محمد ابن إدريس بن قتاده من جهة وأخويهما أبي الغيث وعطيفة الذين أمضيا مدة من الاعتقال حتى حل موسم الحج واجتمعا مع السلاطين المماليك وأقنعوهم بضرورة عزل أخويهما رميثه وحميضه وتوليهما إدارة مكة بدلا عنهما، وقد حصل ذلك بالفعل بعد مقاومة قصيرة من جانبهما والقبض عليهما ومن ثم تسفيرهما إلى مصر[127].

لم تتمتع مكة بالاستقرار في عهدهما ولذلك شكى الأمير برلغي الأشرفي بعد عودته إلى القاهرة من الحجاز في شهر محرم عام 703 هـ/ 1303 م إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون من عدم سيطرتهما على زمام الأمور بها، لذلك بدأ السلطان بالتفكير في عزلهما وتولية غيرهما لذلك أفرج عن أخويهما السجينين في مصر حميضه ورميثه والتقى بهما وأكرمهما وخصّص لهما رواتب، ويظهر أن سبب هذا التحول من قبل السلطان هو لكسب ودهما والتحضير لعودتهما إلى مكة ومن ثم ضمان ولائهما[128].

أصدر السلطان محمد بن قلاون مرسوما في شوال عام 704 هـ/ 1305 م يقضي بعزل كل من أبي الغيث وعطيفه من مهام إدارة مكة بسبب تراجع وضع المدينة وعدم الاستقرار فيها ومن ثم إعادة أخويهما، واعترضا على ذلك، إلا أن بيبرس الجاشنكير ألقى القبض عليهما وأرسلهما الى القاهرة ومن ثم تولى الأخوان رميثه وحميضه شؤون الحكم[129]، واستمرا في إدارة المدينة حتى عام 713هـ/1314م، ولكن يبدو أنهما لم يستطيعا ضبط الأمور في مكة، وإن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون كانت تصله أخبار تداعيات فشلهم في إدارة المدينة، ففي عام 712هـ/1313م، قرّر السلطان أداء فريضة الحج وهنا أشتدت مخاوف الأخوين لا سيما حميضه الذي اضطرب اضطرابا شديدا وقال: «أنا لا اقابل السلطان وأي وقت حضرنا عنده يقبض علينا لذنوب سلفت منا في حقه وحق الناس»، لذلك اتفقا على ترك مكة، ومما يشار اليه أن أبا الغيث قد قدم مع السلطان من مصر بهدف أن يوليه أمر مكة وهو العارف بسلوك أخويه والمواقع التي لا يمكن أن يلجؤوا إليها إذا ما حصلت المواجهة معهما، ودارت المواجهات بين الطرفين قوات الأخوين رميثه وحميضه والجيش المملوكي، ولم تستطيع قوات الأخوين من مجاراة القوات المملوكية فأرسل الشريف حميضه رسالة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاون يطلب فيها العفو عنه والرضا عليه وانه سيكون أمينا ومحافظا على شؤون الحجاج وسائر شؤون التجار والقادمين الى المدينة، فرد عليه السلطان محمد بن قلاون بالقول: «إن

مالي غرض في أخذ مكة ولا في أخذ المال وأنا ما أطلب إلا أمن الحجاج والتجار والمترددين إلى مكة»، وعند ذاك أقر الشريفان حميضه ورميثه في إمرة مكة على عهدهما السابق ما داما يحافظان على حقوق البيت ورعايته وزواره[130].

في أعقاب هذه الأحداث التي شهدتها مكة قرّر الأخوان رميثه وحميضه بأن يعمل كل منهما بمفرده، وهكذا عمل الشريف حميضه الذي تولى إدارة مكة في صفر عام 714 هـ/1315 م، ولم يشرك أخاه رميثه وعمل فوق هذا على قطع علاقاته بالسلطان المملوكي محمد قلاون وخطب بدلا من ذلك للملك المؤيد بن سلطان الرسولي(132)، لذلك شغل هذا التحول الخطير أخاه رميثه في علاقات أخيه وتوجه إلى القاهرة طالبا عون السلطان المملوكي ضد أخيه الذي سلبه حقه في مشاركته له في إمارة مكة، فلم يتردد المماليك في دعمه واستطاع من طرد أخيه حميضه وانتزاع إمارة مكة منه فحكمها بمفرده حتى عام 718هـ/ 1318م[133].

عزل رميثه أخاه عطيفه الذي حكم لمدة عام واحد[134]، وما لبث المماليك أن أشركوا أخاه رميثه عام 720هـ/1320م على أن يكون له نصف المستحصل من إيرادات مكة ويكون النصف الآخر لأخيه عطيفه إذ لم تظهر حالة الانسجام والتوافق بينهما، حتى انفرد رميثه بالحكم مرة أخرى عام 731هـ/1330م وبقي حتى عام 734 هـ/1333 م[135].

عاد عطيفه لمشاركة أخيه في إمرة مكة وكانت هذه المشاركة هي الأخيرة بين الأخوين ولم تؤد إلى نبذ الشقاق والخلاف بينهما[136].

ففي عام 736 هـ/1335 م أقام عطيفه ومماليكه في مكة بينما غادرها أخوه رميثه وسكن بوادي مر، وتجددت المواجهات بينهما حتى حل عام 737هـ/1336م، الذي شهدت فيه مكة تطورات وتحالفات جديدة إذ كان الشريف رميثة قد حصل على تأييد عدد كبير من الأشراف الحسنيين بينما ساند القواد العمرة[137]، وهي أكبر مجموعة من القواد وأقواها في مكة، الذين يعدون طبقة متميزة في المجتمع المكي الشريف عطيفه[138].

في النصف الأول من عام 737 هـ/ 1337م تصالح الأخوان رميثه وعطيفه واتفقا على المشاركة في إمرة مكة، لكن هذا الوفاق في الحقيقة لم يستمر أكثر من بضعة أشهر وبعدها قرّرا اعتزال الحياة السياسية وترك شؤون أمرة مكة إلى ولديهما، فعين عطيفه ابنه مباركا أميراً على مكة وأقام رميثه ولده مغامس بالحديد بوادي مر، ثم توجه عطيفه ورميثه إلى الواديين باليمن وأقاما هناك[139].

لم تنجح شراكة أبناء الفرعين مبارك ومغامس إذ ما لبثت أن انفصلت عراها بسبب ما نشب بين ابني العم من نزاع أدى إلى استئثار مبارك بالأمر من غير مغامس فتدخل الآباء رميثه وعطيفه مرة أخرى الذي انتهى بتدخل السلاطين المماليك لصالح رميثه فحكم الاخير مكة بصورة منفردة من عام 737 - 744 هـ/ 1337-1343م[140].

ونظرا لكبر السن وشيخوخة رميثه الذي شعر بضعفه وعدم قدرته على إدارة مقاليد حكم مكة تنازل في عام 744 هـ/1343م الى ولديه عجلان وثقبة الذين عوضا والديهما بمبلغ ستين ألف درهم وربما إن مثل هذا التنازل لا يعجب السلطان المملوكي الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاون الذي أعاد الحكم إلى والدهم رميثه في نهاية هذا العام، بعد أن اعتقل ثقبة وأرسله الى مصر وهرب عجلان الى اليمن[141]، استطاع عجلان أن يعود إلى مكة ويتولى إدارتها منفردا، وفي اثناء إدارته توفي والده في ذي القعدة من عام 746 هـ/1345م[142].

استقرت إمرة مكة الى الأمير عجلان في عام 747 هـ/1346م[143]، وتحاشيا للاصطدام مع أخوته شاركهم في ايرادات مكة ولم يشاركهم في الحكم الذي حصره بيده فقط، بحيث أمر لأخيه سند بثلث ما يحصل عليه أمير مكة من الجبايات والرسوم دون أن يسمح له بنقش اسمه على السكة أو بذكر الخطبة، وفي الوقت نفسه منح أخويه مغامسا ومباركا إيرادات ميناء السريت[144]، وهكذا استخدم عجلان سياسة التقرب والنفوذ مع أخوته ثقبة وسند ومغامس وابن عمه محمد بن عطيفه وتجنب الدخول معهم في منازعات حتى ذكر أنه تنازل في عام 748 هـ/1347م عن نصف واردات الإمارة لهم[145].

جدير بالاشارة إلى أن مكة شهدت حالة عودة الاضطرابات وعدم الاستقرار فيما بعد عودة بني رميثه اليها ولم تجد سياسة النزعة السلمية التي سلكها الأمير عجلان نفعا وظلت الحالة على ما هي عليها حتى نهاية القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، مع ملاحظة أن النفوذ المملوكي أخذ بالتزايد على الرغم من الضعف الذي تعرضت له بسبب صغر سن السلاطين وتنازع كبار الامراء على السلطة فأصبح معارضو شريف مكة يلجؤون إلى السلطان بالقاهرة فيولي ويعزل من يشاء، مما ترتب عليه فقدان الأشراف الحسنيين سلطتهم في إمارة مكة ودخول هذه الإمارة في نطاق الدولة المملوكية[146].

بدأ النزاع بين الأمير عجلان واخيه ثقبه في عام 750 هـ/1349م الذي انتهى بخروج عجلان إلى القاهرة وانفرد ثقبة بالحكم الذي قطع الدعاء لأخيه في قبة زمزم وعمل جاهدا لاستمالة السلطة

المملوكية في مصر، إلا أن هذه الاجراءات لم تمنع من عودة عجلان ثانية إلى مكة وأخرج أخوته ثقبه وسند ومغامس، وتوجهوا إلى اليمن وانفرد هو بحكم مكة وظل حتى عام 752 هـ/1351م، ولكن جرت وساطات عديدة اضطرته لقبول مشاركة أخيه ثقبه في الحكم فيما بعد[147]، ويظهر أن ذلك قد حصل بضغوط من السلطة المملوكية في مصر.

لم تدم حالة الوفاق بين الأخوين عجلان وثقبه أكثر من عام واحد، ففي عام 753هـ/1353م توجه عجلان إلى جدة لجباية المكوس من السفن التجارية ورفض تسليم الاموال إلى الشريف ثقبه، الأمر الذي دعا الأمير ثقبه إلى مهاجمة أخيه عجلان والقاء القبض عليه وتركه مع بعض الحراس وذهب هو إلى وادي نخلة القريب من وادي مر، لكن عجلان استطاع الهروب والذهاب إلى منطقة جبال بني شعبه بعد أن علم بقدوم وفد الحجاج المصري إلى مكة[148]، وبذلك أتيحت الفرصة بأن يستقل ثقبه بن رميثه بإدارة مكة في عام 753 هـ/1353م[149]، حتى قبض عليه أمير الركب المصري عمر شاه[150]، وعاد أخوه عجلان الى إدارة مكة وسئل في موضوع الصلح مع أخيه وإشراكه في الامرة فلم يوافق، وحمل إلى مصر فقام بها معتقلا حتى هرب منها ومعه أخوته سند ومغامس ومحمد بن عطيفه وكانوا قد اعتقلوا معه فوصلوا إلى النخلة عام 756 هـ/1356 م[151]، وفي العام التالي عقد الصلح بين الأخوين عجلان وثقبه، حيث أدى هذا الصلح إلى التجديد بموضوع الشراكة في الحكم بينهما وبمحض إرادتهما، ولكن يبدو أن هذا الصلح لم يكن على صفاء، إذ ما لبث أن عادت البغضاء بينهما سيرتها الأولى[152].

لا شك أن عدم الاستقرار في مكة قد أثار السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون الذي أمر بعزل عجلان وثقبه في عام 761هـ/1359م وإحلال كل من سند بن رميثه ومحمد بن عطيفة محلهما وكان لهما حكم مكة بالشراكة[153]، إلا أن حكمهما لم يستمر بسبب تعصبهم القبلي والأسري الذي غلب على المصلحة العامة الأمر الذي أتاح الفرصة لعجلان من العودة ثانية لحكم مكة في عام 762هـ/1361م فقد قام بمبادرة جديدة نحو مصالحة أخويه، حيث أشرك معه أخاه ثقبه في الحكم إلا أن الأخير قد توفى بعد ذلك بأيام قليلة[154].

انفرد الأمير عجلان بأمرة مكة بعد وفاة أخيه ودعم مركزه السياسي بأن جعل لابنه أحمد ربع المتحصل لأمير مكة يصرفه في خاصة نفسه وكان يهدف من وراء ذلك اشراك ابنه في الأمر وقد أمره في عام 762هـ/1361م أن يعزّز صلاته بأخواله من القواد وذوي عمر ليدعموه فنجح الابن في مسعاه وبذلك قوّى الشريف عجلان مركزه السياسي في مواجهة أخوته لا سيما الشريف سند الذي انتقل بعد هذه التطورات إلى وادي نخله ثم إلى الطائف والمدينة وبعدها توجه إلى ينبع[155].

في عام 763هـ/1362م توفى أخوه الثاني سند وبذلك تخلص الأمير عجلان من منافس آخر وبذلك خلصت إمارة مكة له و إلى ولده أحمد دون منازع[156].

أما الأشراف الحسنيون من أتباع سند بن رميثه لم يظهروا ولاءهم إلى عجلان، بل حاولوا التقرب من ولده أحمد فحرّضوه على المطالبة بزيادة حصته من واردات مكة، وهدفهم من ذلك إثارة المشكلات أمام عجلان، ولكن تصرف عجلان كان متوازناً ولبى طلب ولده حرصاً منه على عدم إثارة المشكلات من جهة وكسب ود بني الحسن ومصالحتهم من جهة أخرى[157].

استمر الحكم الثنائي بين الأمير عجلان وولده أحمد حتى عام 774هـ/ 1373م، فقرّر الأمير عجلان اعتزال الحكم وطلب من ابنه مبلغ ثلثمائة ألف درهم ويكون جزء منه تعويضاً عن نصف الإمارة والجزء الآخر ثمناً لخيل وغلة باعها له الأمير عجلان لعدم حاجته إليها فضلا عن ذلك اشترط عجلان على ابنه تسليمه المال الذي يرسل الى أمير مكة من قبل سلطان المماليك بمصر سنوياً مقابل إسقاط بعض المكوس بمكة واستمر ذكر اسمه في الخطبة والدعاء له فوق قبة زمزم مدى حياته، فقد التزم أحمد بهذه الشروط جميعها و دفع المطلوب[158]، وبذلك أصبح الأمير أحمد بن عجلان هو الأمير بلا منازع في مكة وقد أرسل له الملك الأشرف شعبان بن حسين تقليداً بأمرة مكة، وخلعاً وهدايا متعددة وقرأ التقليد بالمسجد الحرام وتعهد الشريف بترك الظلم والجباية وحفظ الحجاج وطاعة أوامر السلطان وكف الظلم عن أهل مكة والقيام بما يضمنه نص التقليد[159].

في أواخر عام 777هـ/1375 توفى الأمير عجلان وانفرد أحمد بإدارة مكة كما مرّ ذكره، ففي عام 780هـ/1378م أشرك ولده محمد في الحكم وقد طلب من السلطان المملوكي الظاهر برقوق الموافقة على هذه المشاركة التي لقيت الاستجابة من السلطان الذي أرسل التقليد لمحمد في عام 785هـ/1384م، على الرغم من المحاولات التي بذلها بنو حسن بزعامة عدنان بن مغامس بن رميثه وحسن بن ثقبه نحو النيل من سلطة أمير مكة أحمد بن عجلان وابنه الذي شاركه في الحكم، واستمرت هذه الشراكة حتى وفاة الأمير أحمد بن عجلان في عام 788هـ/1386م[160].

تولى الأمير أحمد بن محمد عجلان ولاية مكة وحصل مرسوم الاعتراف من قبل السلطان برقوق في شوال من عام 788هـ/1386م، وجدير بالاشارة إلى أن الأمير الجديد كان يستشير عمه كبش بن عجلان فيما تعرض عليه من أمور ولذلك تدخل الأخير بكل شيء وأصبح هو الآمر الناهي بكل صغيرة وكبيرة[161].

وقع الأمير محمد ضحية مؤامرة اشترك فيها المماليك وعنان بن مغامس بن رميثه انتهت بمقتله في شهر ذي الحجة عام 788هـ/1386، وتولى عنان بن مغامس شؤون إدارة مكة، إذ واجه صعوبات عديدة في مقدمتها الضائقة المالية التي كانت تمرّ بها إدارته من جهة ومقاومة آل عجلان الذين ثاروا لمقتل محمد بن أحمد عجلان وسيطروا على جده من جهة ثانية وبذلك حدّدوا سلطات عنان بمكة، ولكي يجاريهم ويكسب ودهم عمل على شراكة عقيل بن مبارك بن رميثه وأحمد بن ثقبه وعلي بن مبارك بن رميثه وبذلك أصبحت مكة تحكم من قبل أربعة أشخاص ودعي لهم جميعاً فوق قبة زمزم في المسجد الحرام وبقى اسم عنان فقط في خطبة المسجد[162].

لا شك أن مكة في ظل هذا الأمر عاشت مدة من الاضطراب والفوضى فاتخذ سلطان المماليك برقوق قراراً بعزل الأمير عنان عام 789هـ/1387م وتولى علي بن عجلان بدلاً عنه مقاليد الأمور، إلا إن تمسك عنان بحقه في الإمارة وعزمه على المقاومة المسلحة اضطرت القوات المملوكية إلى الإعتراف به شريكا إلى علي بن عجلان، لكن يظهر أن عنان عملياً لم يستطيع مشاركة علي بسبب تصدي الأخير له ومنعه الدخول إلى مكة وألحق الهزيمة به فأسف عنان وثبّت حكم الأمير علي بن عجلان[163]، وبقى منفرداً بحكم مكة حتى عام 792هـ/1390م[164].

توسط السلطان برقوق لفض النزاع بين علي بن عجلان وعنان وأوجد تفاهم بينهما لموضوع الشراكة في الحكم وأستمر التوقف لمدة سنة واحدة 794هـ/1395م وسرعان ما عاد الأمير علي بن عجلان للانفراد بأمر الحكم ثانية[165].

شهدت مكة حالة من الاضطراب وكانت ذروتها في شهر شوال من عام 797هـ/1395م إذ قامت الحرب بين القواد العمرة والأشراف الحسنيين ببطن مر[166]، وأسفر القتال عن مقتل أمير مكة الشريف علي بن عجلان على يد أحد الحسنيين واستيلاء القواد على مكة، ثم ولي محمد بن عجلان المكحول أمر مكة من غير تقليد واستمر حتى شهر ربيع الآخر عام 798هـ/ 1396م حيث قدم الى مكة أخوه الشريف حسن متولياً الأمره بتخويل من السلطان الظاهر برقوق[167].

- مكة خلال حكم الأمير حسن بن عجلان 798-829هـ/1395-1426م وما بعده حتى سقوط الدولة المملوكية 923هـ/1517م

تولى الأمير حسن بن عجلان حكم مكة بصورة منفردة عام 798هـ/1396م وبقى كذلك حتى عام 810هـ/1408م[168]، عند ذاك طالب السلطان برقوق بمشاركة ولده بركات في شؤون إدارة الحكم كما أشرك أخاه أحمد في الحكم واحتفظ الأمير حسن بلقب نائب السلطنة في الحجاز وهذا اللقب أطلق لأول مرة على شريف من أشراف مكة[169].

إن هذا الموقع الجديد الذي تبوءه الأمير حسن بن عجلان بنيابة السلطنة على البلدان الحجازية قد أضاف له الكثير من الهيبة إذ وثقت الصلات ما بين أمراء مكة بصورة خاصة والحجاز بصفة عامة من جهة والدولة المملوكية من جهة ثانية، وأصبح نائب الحجاز فيما بعد صفة وظيفية في الدولة[170].

أتيحت الفرصة للأمير حسن بن عجلان بصفته نائب السلطنة المملوكية في الحجاز بأن يمارس سلطته على المدينة بعد أن عزل السلطان برقوق جماز بن هبه وعند ذاك سار الخطيب بالمسجد النبوي يدعو للسلطان فرج بن برقوق ومن ثم للشريف حسن بن عجلان والشريف عجلان بن نعير[171].

أما في مكة فقد استمرت الإدارة المشتركة بين الاخوين بركات وأحمد حتى عام 818هـ/1416م، بعدها تم عزلهما من قبل السلطان برقوق وكلّف الشريف رميثه بن محمد بن عجلان بإدارة مكة، إلا أن السلطان برقوق لم يكن راضياً عن أدائه فعاد الشريف حسن بن عجلان مرة أخرى لإدارة مكة وقد أشرك ابنه بركات في الإدارة ويظهر أن هذه الخطوة كانت ممهدة لتولي بركات ابن الأمير حسن شؤون الإدارة في مكة بصورة منفردة وذلك عام 820هـ/1417م، ولم تمض سنة واحدة على هذه المشاركة حتى أبدى الشريف حسن رغبته بالتخلي عن الحكم لولده بركات عام 821هـ/1418م وقد أقسم أتباعه يمين الولاء [172].

توفى السلطان برقوق في صفر عام 824هـ/1421م وقرّر إجراء تعديل على طبيعة النظام الإداري في الحكم وكان فحوى هذا التعديل مشاركة أخيه إبراهيم في إدارة مكة وإعطاء كل واحد منهما ثلث ما يحصل عليه أمير مكة من الدخل السنوي على أن يكون الثلث الأخير له كما تضمن إبطال الرسوم التي كان يتقاضاها الاشراف الحسنيون والقواد كل عام وإن تقدم الأشراف بخدمة إبراهيم والقواد بخدمة بركات، إلا أن هذا المشروع لم ينفذ بسبب معارضة القواد الشديدة وذلك لأسباب إقصادية[173].

كان إبراهيم حسن بن عجلان مقيماً في اليمن مع بعض أنصاره من الأشراف في أثناء هذه التطورات والأحداث، ولما قدم الى مكة ولم يرضه انفراد أخيه بركات بمشاركة أبيه في الحكم وأعقب ذلك حدوث اشتباكات بين بركات وإبراهيم فمنع أنصار بركات من دخول إبراهيم الى مكة، الأمر الذي دعا والدهم الأمير حسن بن عجلان أن يطلب من السلطان المملوكي الملك الظاهر ططر بإشراك إبراهيم معه ومع أخيه بركات في الحكم وكان جواب السلطان بأن يترك الأمر له والعمل بما يراه مناسباً[174].

أثار إبراهيم متاعب عديدة لإدارة والده وأخيه بركات في حكم مكة وعلى أثرها توفي الأمير حسن بن عجلان في عام 829هـ/1426م، وآلت الأمور إلى ولده الشريف بركات الذي تولى المهمة في زمن والده قرابة خمس سنوات وفي بقيتها شاركه أخوه أبراهيم أيضاً[175]، وحصل على مرسوم الولاية (الأمر السلطاني) من قبل السلطان برسباي الذي طلب فيه تولي شؤون أمرة مكة ثم دعاه بالحضور إلى مصر[176].

توطدت علاقة الشريف بركات بالسلطان المملوكي، وكان ذلك عاملا من العوامل المساعدة في استمرار حكمه حتى عام 845 هـ/ 1441م، فيما أصدر السلطان جقمق مرسوم عزله وأسند أمر إدارة مكة الى أخيه الشريف علي بن حسن بن عجلان، ثم عزل هو الآخر بعد عام واحد، وتولى أخوه أبو القاسم بن حسن بن عجلان الحكم ولم يثبت الأخير نجاحه فعزل هو الآخر في عام 850 هـ/1446 م، ثم أعيد بركات لإدارة مكة ثانية، وعندما شعر بأنه غير قادر على إدارة مكة بسبب تقدم العمر وشعوره بالتعب طلب من السلطان مشاركة ولده محمد، فوصل المرسوم السلطاني الذي تضمن تعيين محمد بن بركات أميرا على مكة[177].

في التاسع عشر من شهر شعبان عام 859 هـ/1455م توفي الشريف بركات وتولى ولده محمد بن بركات إدارة مكة فدعي له على قبة زمزم بعد صلاة المغرب، بعد أن وصل مرسومان من السلطان المملوكي الأول يقضي بتعيين محمد بن بركات أميراً على مكة والثاني الخاص بتعيين القضاة والاعيان المجاورين لولاية مكة[178].

ونظراً لصغر سن الشريف محمد بن بركات قام القائد بديد بمعظم أعباء الحكم في الإمارة، وهذا القائد من عتقاء الشريف حسن بن عجلان وقد قرّبه الشريف لما عرف عنه من الأمانة والصدق والمروءة والعقل والأدب وقد أزداد شأنه بعد وفاة الشريف بركات ولقب (بالوزير)، إلا أن هذه العلاقة سرعان ما تدهورت في عام 864 هـ/1460م حينما خرج عن طاعة الشريف محمد بن بركات بعد أن علم بقرار الشريف في القاء القبض عليه وقتله[179].

أثار بديد المشكلات الداخلية بعد أن انضم اليه جماعة من الأشراف من ذوي أبي نمي والقواد من ذوي عجلان وذوي حميضه وطائفة أخرى من الأعراب، ثم أرسل أخاه الشريف أبا سعد بن بركات بن حسن بن عجلان ووعده بأن يسعى له في ولاية أمرة مكة لدى سلطان المماليك بمصر والعمل على نصرته إلا أن أبا سعد رفض مواجهة أخيه بل عرض نص رسالة بديد على أخيه الشريف محمد بن بركات[180]، إلا أن الشريف محمد بن بركات استطاع ان يفشل مخططات بديد ويقضي على تحركاته عام 864 هـ/1460م، وبعد ذلك بدأ يوثق صلاته مع أمراء المدينة وبقية المدن الحجازية الاخرى، ففي عام 865 هـ/1461م توجه لزيارة المدينة المنورة مع أهله وعسكره في قافلة عظيمة فيها قاضي القضاة برهان بن طرة والقاضي الحنبلي وجماعة من التجار، ولم تشهد المدينة مثل هذا الوفد وبهذا الحجم[181].

توجه محمد بن بركات لإخماد حركات العصيان التي قامت بها بعض القبائل البدوية في الحجاز، ففي جمادي الآخرة عام 869 هـ/1465م توجه الى مدينة حلي بن يعقوب في اليمن وعيّن محمد بن دريب على أمرتها نيابة عنه، ثم واصل سياسته تجاه القبائل الحجازية وإخماد حركات تمردها وعصيانها لحكمه حتى عام 876 هـ/1472م[182].

ونظراً لهذه المواقف التي أبداها الشريف محمد بن بركات التي حظيت بتقدير السلطان المملوكي واحترامه تجاه القبائل المتمردة وخدمته للحجاج خير قيام ومن ثم توفير الأمن لهم، لذلك قدّم له السلطان قايتباي الخلع والهدايا له والى الاعيان من أهل الحرم[183]، وظلت الصلات وثيقة بين الشريف محمد بن بركات والسلطان المملوكي حتى عام 878 هـ/1474م عندما طلب سلطان مصر المملوكي قايتباي من الشريف محمد إشراك ولده بركات في إدارة مكة[184].

أثبت الأمير بركات بن محمد قدرة فائقة في الحكم والإدارة وعرف بأنه أجّل بني أبيه وأقربهم الى خلافته، كما عدّ أنه قسيم والده وشريكه في السلطة بحيث لم يعترض على قرار تعيينه أحد من أفراد الأسرة الحاكمة في حياة والده[185].

تواصلت العلاقات الايجابية بين السلطان المملوكي والشريف محمد بن بركات من عام 878هـ/1474م حتى عام 888هـ/1483م حينما أصدر السلطان المملوكي مرسوماً خوّل فيه أمير مكة الشريف محمد بن بركات بتولي أمر جميع مناطق الحجاز وعند ذلك أطلق عليه الشريف محمد بن بركات لقب سلطان مكة وسلطان الحجاز ثم لقب باسم نائب السلطنة بالأقطار الحجازية حيث لم يطلق مثل هذا اللقب على أشراف مكة منذ عام 819هـ/1416م[186].

حصل الشريف محمد بن بركات على موافقة السلطان المملوكي قايتباي على أخماد حركات المعارضة كافة في الحجاز وذلك بموجب مرسوم أرسله له في عام 891هـ/1486م مفاده صلاحية القضاء وعلى أهل البغي والفساد وقمعهم وبذلك انهى تمرد العديد من القبائل في شرق الحجاز مثل بني إبراهيم وعرب ينبع وقبائل بني لام[187]، واستمر في مواجهة القبائل المتمردة ولا سيما قبيلة بني لام[187]، التي ظلت على خلاف معه حتى ألحق بهم الهزيمة القاسية عام 900هـ/1495م وبعد ذلك دخلت الكثير من القبائل في طاعته والتزموا بتقديم ما عليهم من التزامات مالية ومنها إرسال مبلغ ثلاثة آلاف دينار سنوياً الى مكة[188].

توفى الشريف محمد بن بركات في الحادي والعشرين من شهر محرم الحرام عام 903هـ/1497م، وقيل في شهر ربيع الاول من العام ذاته، وقد وصف بأنه كان رئيساً حشماً سعة المال كفوءاً في إدراة مكة[189]، وبعد وفاته آل أمر مكة تلقائياً إلى ولده بركات، وقد حصل على تفويض السلطان قايتباي له بولاية مكة وإدارتها فضلا عن جميع الاقطار الحجازية، فواجه مشكلة منازعة أخويه هزاع وجزان على السلطة في مكة ومنع إشراكهم في الحكم(190)، باستثناء أخيه قايتباي بن محمد عام 910هـ/1504م[191] الذي أشركه لمدة محدودة.

استطاع الشريف بركات بن محمد أن يفشل العديد من المحاولات التي قام بها أخواه هزاع وجازان وانتزاع امر إدارة مكة منه طوال المدة من عام 903هـ/1497م حتى عام 909هـ/1504م[192]، وأشرك الشريف بركات ابنه علي مع قايتباي في الأمرة وجعل له نصف نصيب أمير مكة من موارد دخل الإمارة إلا أن ولده علي لم يبق بهذا الموقع سوى ثلاث سنوات وتوفى في عام 913هـ/1507م[193]، وعند ذاك أشرك ولده الثاني محمد أبي نمي شريكاً لأخيه قايتباي في الأمرة[194].

استمرت هذه المشاركة التي تحكمها المودة والصداقة حتى توفى قايتباي في صفر من عام 918هـ/1512م، ومما يجدر ذكره أن الشريف بركات أرسل ابنه أبي نمي وهو في عمر ثمان سنوات الى مصر لمقابلة السلطان الغوري سلطان المماليك الذي أعجب بنباهته، وأمر السلطان بإشراكه مع والده الشريف بركات في نصف ولاية مكة فصار يخطب له مع أبيه من على منابر الحرمين الشريفين[195]، وبعد ذلك أزدادت قدرته ومكانته في إدارة مكة وما جاورها في جدة وينبع وسائر البلاد الحجازية، الأمر الذي زاد من أعجاب السلطان الغوري بقدرته، ولهذا عد من أبرز أشراف مكة قاطبة وأشهرهم [196].

في شهر ربيع الاول عام 921هـ/1515م توجّه الشريف بركات إلى القاهرة والتقى السلطان الغوري وجدّد له يمين الولاء والطاعة، وفي الوقت ذاته خوّله السلطان المملوكي بالتصرف في إدارة مكة وجده وينبع، كما تعهّد الشريف بركات بالاستمرار في تقديم المبالغ والأموال السنوية الى الخزينة السلطانية[197]، ثم عاد بعد ذلك الى الحجاز.

في شهر محرم الحرام من عام 923هـ/1517م دخلت مصر تحت نفوذ سلطة الدولة العثمانية وفتحها السلطان سليم الأول[198] (1512–1520) وقد ساورته فكرة أرسال حملة كبيرة إلى الحجاز لضمها إلى دولته، وفي الوقت ذاته فإن قاضي قضاة مكة الشافعي صلاح الدين بن ظهيرة[199]، متواجد في القاهرة وقتذاك فالتقى بالسلطان العثماني وبين له أن الشريف بركات يتمتع بقوة وإدارة وحنكة في مكة والحجاز وأشعره بأنه لا يمانع من الدخول في طاعته إذا ما أقره السلطان سليم الاول في منصبه فأقتنع السلطان بما طرحه قاضي القضاة، وعند ذاك تريث في موضوع إرسال الحملة العسكرية إلى الحجاز، ثم أرسل مرسوماً إلى الشريف بركات يعلمه بفتح مصر ثم طلب استدعاء ابنه أبي نمي للقدوم الى القاهرة للتعبير عن الطاعة والقبول بالحكم الجديد[200].

وصل مرسوم السلطان العثماني الى الشريف بركات وعبّر الأخير عن رغبته في تقديم الطاعة للسلطان سليم وأرسل ولده أبي نمي الى مصر فوصلها في جمادي الأول 923هـ/1517م ليقدّم فروض الطاعة له[201]، فأكرم السلطان العثماني وفادته وأقر بأمرة والده على مكة[202]، ومن ثم استمر أبو نمي شريكاً لوالده الذي توفي في ذي القعدة عام 931هـ/1525م ثم بعد ذلك استقل أبو نمي بشؤون إمارة مكة[203]، وهكذا تكون مكة قد دخلت في حقبة تاريخية وسياسية جديدة ارتبط ولاتها وشؤون إدارتها مع السلطة العثمانية التي بدأت بمسارات جديدة في منطقة الخليج والجزيرة العربية.

ثالثا: الأحوال السياسية في المدينة المنورة من القرن السابع إلى العاشر الهجري/ الثالث عشر الى السادس عشر الميلادي

- إمارة بني مهنا في المدينة وموقف الحكم الأيوبي منها

يرجع نسب أسرة آل مهنا إلى الإمام علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه[204]، وتعد بدايات وجودهم في المدينة المنورة بتاريخ وصول جدهم طاهر بن مسلم بن محمد بن عبد الله[205]، وقد جاءت ظروف تواجدهم في المدينة المرتبطة بما آلت إليه الأوضاع السياسية للدولة الفاطمية في مصر، التي واجهت الضعف والانهيار، حتى تطلع الهواشم ومنهم الحسنيون للانتشار بحكم المدينة مستغلين الدعم المعنوي والمادي الذي اسبغه عليهم الفاطميون، فأعلن طاهر بن مسلم الحسيني السيطرة على المدينة عام 366هـ/976م[206]، وجاء من بعده أولاده من ذريته حتى تولى الأمير قاسم بن مهنا الذي كان على علاقة طيبة بالسلطان صلاح الدين الأيوبي[207]، استمر يحكم المدينة حتى قيام الدولة الأيوبية في مصر والشام، فعمل على التقارب مع الأيوبيين وبالذات مع السلطان صلاح الدين الذي تزعم حركة الجهاد الاسلامي بعد نور الدين ضد الصليبيين[208]، فاشترك الأمير قاسم بن مهنا معه في العديد من تلك الحروب ومنها موقعة حطين الشهيرة[209].

عزّز الأمير قاسم بن مهنا علاقاته مع الخلفاء العباسيين، كما كانت هي مع الأيوبيين، إذ كان يخطب لهم على منابر المدينة فنال عطاياهم وإكرامهم، ويقول على الخليفة العباسي بأنه ابن عمه على الرغم مما حصل من اختلاف في المذهب، وبالمقابل فأن الخليفة العباسي أكرمه وفضّله على الكثير من رجال حكمه ودولته[210].

أظهر السلطان صلاح الدين الأيوبي اهتمامه بالمسجد النبوي الذي ضم رفاة النبي الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم)، فقد عيّن مجموعة من الخدام برئاسة بدر الدين الأسدي الذي أصبح مسؤولا عن شؤون الخدمة في الحرم، كما وثق صلاته بالأمراء الحسينيين وأجزل عليهم العطاء والهبات والهدايا[211]، ويظهر أن اهتمام السلطان صلاح الدين بمجموعة خدام المسجد لأهداف منها أن يكون هؤلاء عيونا له في المدينة ثم يراقبون بصورة غير مباشرة تحركات الأشراف وتصرفاتهم حتى يضمن ولاءهم ولا يفكروا بالانشقاق عليه ومن ثم ضمان ولاء المدينة له[212].

توفي الأمير قاسم بن مهنا عام 588هـ/1192م بعد حكم دام خمسة وعشرين عاما ليخلفه في الأمرة ابنه سالم بن قاسم[213]، الذي واصل نهج سياسة والده في علاقاته مع العباسيين والأيوبيين فمدوا له كل العون والمساعدة، ودخل في صراع مع شريف مكة قتادة بن إدريس بن مطاعن، الذي حاول

فرض سيطرته على الحجاز، وفي الوقت ذاته رد أمراء المدينة وعلى رأسهم هاشم بن قاسم أخ الأمير سالم هجمات قبيلة زغيف عام 590هـ/1194م[214].

حضي الأمير سالم بمكانة طيبة لدى السلطان صلاح الدين الأيوبي، وبما أن تلك المكانة والاحترام قد فاقت مكانة أبيه بسبب أن الشريف سالم قد شارك في حروب ومعارك عديدة ضد الصليبيين، ومن ثم فإن السلطان صلاح الدين كان يستشيره في كثير من الأحيان وفي العديد من الأمور السياسية والعسكرية، ويأخذ بالكثير من آرائه وعدّ ذلك بمثابة المستشار للسلطان، وبقي كذلك في إدارة شؤون المدينة حتى وفاته عام 612هـ/1216م[215].

تولى إمارة المدينة ابن أخيه جماز بن قاسم الحسيني، وقد حفلت مدة حكمه بحوادث عديدة لاسيما فيما يتصل بعلاقاته مع أمراء مكة[216]، وقد خالف نهج سياسة أسلافه مع الأيوبيين، اذ قلب تلك السياسة رأسا على عقب وناصب الأيوبيين العداء، لا سيما ما حصل في مكة في أعقاب سيطرة الملك المسعود عليها وما قام فيها من أعمال مشينة لا تتوافق مع حرمة الحرم المكي، لذا قاد حملة وتوجّه بها الى مكة بهدف استرجاعها وإعادة سيطرة أبناء عمومته من أبناء قتادة عليها، على الرغم من طبيعة الخلاف معهم في عام 622هـ/1225م، حيث دارت معركة ضروس مع قوات نور الدين بن عمر بن رسول وقد قتل الأمير جماز بن قاسم في تلك المواجهة[217].

تولى أمرة المدينة شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا[218] ، وهو ابن عم قاسم بن جماز جد الإشراف الجمامزة، وقد خالف سياسة ابن عمه في مسار علاقاته مع الأيوبيين، إذ عزم على إعادة علاقاته الحسنة معهم، ولكن في الوقت ذاته عادت حدة المواجهات مع أشراف مكة من بني قتادة، لذلك شارك الجيش المصري الذي أرسله الملك الصالح نجم الدين أيوب لطرد الأمير راجح بن قتادة من مكة، لذا استطاع الأمير شيحة من الدخول الى مكة والاستيلاء عليها وأسّر الوزير ابن التغري، لكنه اضطر الى الانسحاب منها والعودة الى المدينة على أثر قدوم الجيش اليمني اليها[219].

عاد الأمير شيحة الى المدينة، وأصبح في مواجهة جديدة مع أحد أبناء أسرة الأشراف عمير بن قاسم بن جماز الذي جمع أعداداً كبيرة من القبائل عام639هـ/1242م وهاجم المدينة، وتغلب على قوات الأمير شيحه الذي ترك المدينة وذهب الى منطقة الجبال وتحصّن فيها، بعدها أستطاع من إعادة تنظيم قواته وكرّر الهجوم على المدينة وعندها نجح في طرد قوات عمير بن جماز خارج المدينة، وعادت الامور فيها على ما كانت عليه وأستمرت حالة الاستقرار حتى قتل عام 647هـ/1249م على يد قبيلة بني لام حينما كان متوجها الى العراق في ذلك العام[220].

تولى عيسى بن شيحة إمارة المدينة بعد أن قتل والده، ولكنه لم يستمر فيها طويلا، إذ لم يلبث أن نازعه عليها أخوه جماز بن شيحه الذي القى القبض عليه، وحصل على الأمرة محله عام 649هـ/1251م، وحكم المدينة قرابة عامين فقط، وأصبح بعد ذلك جماز بن شيحة أميراً على المدينة بعد أن عزل أخاه عيسى، وبذلك هدأت الأمور في عهده وعهد أخيه عيسى من قبله وبين ابناء عمومته في مكة إذ لم تقم بينهما أية مشاحنات أو حروب، وفي أثناء حكمهما سقطت الدولة الأيوبية في مصر وقامت على أثرها الدولة المملوكية، التي دخلت في صراع مع بقايا الأيوبيين في الشام[221].

- أمراء المدينة في ظل حكم الدولة المملوكية حتى قيام السيطرة العثمانية 648-923هـ/1250-1517م

شهدت المدينة فترات متباينة ما بين الاستقرار والاضطراب، لذلك فإن طبيعة الحياة فيها كانت تسير على تيارين الاول يمثل العلم والعبادة وأعمال الكسب اليومية، والثاني الصراع السياسي والعسكري بين أبناء الأسرة الواحدة على شؤون الإمارة، وهذا الأمر بدوره انعكس على علاقة أمراء المدينة بالسلطة المملوكية في مصر، التي كرّست نفوذها في الإمارة بموجب اتجاهين سياسي ومالي[222].

اضطربت أحوال المدينة بسبب الصراعات الداخلية بين أبناء الأسرة الحاكمة واستمرت من عام 648هـ/1250م حين تولى أبو الحسين منيف بن شيحه الإمرة بمساعدة أخوه جماز عام 659هـ/1260م، وبعد وفاة منيف أخلفه أخوه عز الدين بن جماز[223]، غير أن الصراع ما لبث أن نشب بينه وبين ابن أخيه مالك بن منيف وتمكن مالك من انتزاع الإمرة من عمه ومن ثم تنازل له طواعية عن الإمارة إلى جماز بن شيحه بن هاشم بن قاسم بن مهنا الذي تولى إدارة شؤون المدينة في عام 665هـ/1266م وبقي في إدارتها حتى عام 700هـ/1300م[224].

وخلال هذه المدة ما بين عام 648-700هـ/1250-1300م، شهدت المدينة أحداثاً متميزة أهمها البركان الذي انفجر في مرة واقم (الحرة الشرقية) في رجب عام 654هـ/1362م وحدوث بعض السيول والزلازل، وانتشار الأوبئة وإحراق المسجد النبوي مرتين، فضلا عن الصراع على الإمارة لذلك التجأ أهل المدينة الى المسجد النبوي باكين متضرعين الى الله سبحانه وتعالى لكشف الغمة[225]، وفي رمضان من العام نفسه تعرّض المسجد النبوي لحادث حريق عندما كان أحد الخدام يحمل سراجا يضيء به مخزنا من مخازن المسجد فاشتعلت النار في المسجد ثم امتدت الى أرجاء المسجد الأخرى فأحترق السقف وسقط الكثير من أجزائه باستثناء الحجرة الشريفة، وأنتشر الخبر في ارجاء العالم الإسلامي، فأرسل الخليفة العباسي والسلاطين الآخرون أموالا وهبات لإعادة بناء المسجد وترميمه، وفي عام 672هـ/1273م أرسل السلطان المملوكي قلاون أموالا لبناء قبة فوق مبنى الحجرة الشريفة وذلك لأول مرة[226].

شكّلت حقبة حكم الأمير جماز بن شيحه البالغة ربع قرن تقريبا، حلقة صراع كبيرة على النفوذ والسلطة بينه وبين أبناء عمومته حكام مكة الاشراف الحسنيين، حيث أجهز بحملة على مكة لمساعدة غانم بن أدريس ضد أبي نمي فأخرجه منها وأحتل مكة لمدة أربعين يوما إلا أن الأمير أبل نمي كرّر الهجوم عليه واجبره على الخروج منها، ولكن يظهر إن جماز بن شيحه عاد هجومه على مكة ثانية عام 673هـ/1274م، ولكن انتهى أمر هذه الحملة بعقد الصلح مع ابي نمي مقابل مبلغ من المال[227].

أسس الأمير جماز بن شيحه علاقات حسنة مع أمير مكة من جهة والسلطان المملوكي قلاون من جهة ثانية، وقد أستطاع بذلك التصرف أشاعة الاستقرار والأمن في المدينة حتى عام 704هـ/1304م[228]، وتولى ولده المنصور أبر اولاده الإمارة بعد وفاة والده في ضل صراع وظروف محتدمة على السلطة بينه وبين أخوته الذين حسدوه بسبب تفضيل أبيه له عليهم[229]، وقد استلم السلطة بصورة غير مباشرة عام 700هـ/1300م[230].

استمرت حالة الهدوء والاستقرار في المدينة قرابة تسع سنوات من بداية حكمه، ثم تلتها أضطرابات بسبب طمع أحفاد أخيه طفيل، فذهب إلى القاهرة وحصل على مرسوم شراكة في الحكم وعاد إلى المدينة في الوقت الذي كان فيه المنصور غائباً عنها، فشن هجوماً عليها إلا أن مقاومة رجال كبيش بن منصور أفشلت مخططه، بعد أن قتل كبيش وطفيل في تلك المواجهات[231].

تحرك ماجد بن طفيل للثأر لأبيه طفيل واستعان بأمير ينبع فأمده بالمال والرجال وهاجم المدينة مرات عدة من غير جدوى حتى عام 717هـ/1317م حيث دارت رحى معركة شرسة عند جبل سلع قتل فيها ماجد وعند ذاك شهدت المدينة حالة من الهدوء النسبي، إلا أن أبناء أسرته حاولوا إثارة الفتن من جديد حتى أتيحت لهم فرصة الثأر له بقتل الأمير منصور في عام 725هـ/1325م[232].

تولى الإمارة من بعده ابنه كبيش بن منصور وقد شهده عهده صراعاً على الإمارة مع عمه ودّي عام 727هـ/1326م، وخرج على أثرها كبيش من المدينة، غير أنه لم يلبث أن عاد إلى الإمارة بأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن قلاون بعد أن ألقي القبض على ودّي[233]، ولكن لم يستمر الأخير في إدارة المدينة حتى قتل ثاراً لمقبل[234].

صدر المرسوم المملوكي من الناصر محمد بن قلاون في 11 شوال عام 728هـ/1327م بتولي طفيل بن منصور إمارة المدينة فدخل في صراع مع ودّي وأبناء عمه مقبل بن جماز انتهى بتنازل طفيل عن الإمارة لعمه أبي مزوع ودّي بن جماز عام 737هـ/1335م وحبس طفيلاً نحو أربعين يوماً ثم أفرج عنه من قبل السلطان المملوكي ومنح أقطاعاً في منطقة حوران في سوريا[235].

انفرد ودّي حاكماً على المدينة عام 743هـ/1342م حتى وفاته عام 745هـ/1344م، وشهدت المدينة من بعده موجه من الاضطرابات والنزاع الداخلي أعاد الفرصة الى الأمير طفيل بالعودة ثانية إلى إدارة المدينة حتى عام 750هـ/1349م، وسادت المدينة حالة من الارتباك والضغوط بسبب عدم قدرة طفيل في السيطرة على وزرائه، وأصبح قاضي القضاة المعيّن من قبل السلطان المملوكي هو الأساس في إدارة شؤون المدينة، فصدرت بعد ذلك الإدارة السلطانية بعزل طفيل وتعيين الشريف

سعد بن ثابت بن جماز بدلاً عنه[236]، الا أن طفيل رفض قرار عزله مما أدى إلى تجدد الصراع بين الطرفين فقد استعان سعد بأمراء الركب الشامي غير أنهم لم ينجدوه، ولكن مع ذلك دخل المدينة في 22 ذي الحجة عام 750هـ/1349م، وعلى الرغم من قصر مدة حكم سعد بن ثابت بن جماز، إلا أنه قام بأعمال عمرانية جليلة في المدينة منها حفر خندق حول سوار المدينة كواجهة دفاعية لها وتعديل بعض الأنظمة القضائية، ولا سيما عقود النكاح والرعية وأصبح العمل القضائي معقوداً على أهل السنة في المدينة[237]، توفي سعد بن ثابت على أثر جرح أصيب به في معركة سابقة مع منافسيه في 18ربيع الآخر عام 752هـ/1351م[238].

عصفت بالمدينة سلسلة من الاضطرابات السياسية بسبب شدة النزاع بين أبناء الأسرة الحاكمة فتدخلت على أثرها أطراف داخلية وخارجية التي ازدادت من حدة تلك الخلافات حتى وصول جماز بن منصور بن جماز بن شيحه الى أمرة المدينة عام 759هـ/1357م وقد عرف عنه أنه كان شجاعاً شهماً وافر الكرامة عظيم الهيبة ظاهر الجبروت[239]، إلا أنه لم ينجح في بعض الجوانب الإدارية لاسيما في تعامله مع القضاة الذين شكوه الى السلطان المملوكي الذي تعامل معه بقسوة وخطّط لاغتياله في ذي القعدة عام 759هـ/1357م ونفّذ ذلك فسادت المدينة حالات الاضطرابات والفوضى حتى مجيء الأمير عطية بن منصور وكلف بإدارة المدينة في عام 760هـ/1358[240].

وصف بأنه أمير كبير وعادل وورع وزاهد وقد وصف بزين العابدين، وتم الاتفاق عليه بعد قتل أخيه جماز بن منصور وذلك بإجماع رؤساء القبائل[241]، وشهدت المدينة حالة من الأمن والاستقرار وقد وصف بعض المؤرخين كرم أخلاقه وزهده في المكاسب الدنيوية واهتمامه بشؤون الناس وقد أسقط الضرائب التي فرضها أسلافه على أهل المدينة والوافدين اليها والتجار والمزارعين، لذلك طلب معونة من السلطان المملوكي لتغطية نفقات الإمارة فاستجاب له السلطان واهتم بدروس العلم في المسجد النبوي ومنها دروس المذاهب الأربعة وأجرى للمدرسين والتلاميذ رواتب مناسبة، وأعطى الفقراء ما كان يرد لهم وعاش هو وأسرته حياة الزهد والتقشف فينفق عليهم من ماله الخاص، كما أهتم بإصلاح أقاربه ومساعديه في الحكم، وبذلك نعم أهل المدينة بالأمن والعدل والخصب[242].

عزل الأمير عطية بن منصور عام 773هـ/1371م، ولم تذكر المصادر سبب عزله وعيّن بدلاً عنه ابن أخيه هبه بن جماز بن منصور، ويظهر أن سبب تعيينه كما يظهر انتقاله من مذهب الشيعة الإمامية الى المذهب الشافعي وهو مذهب دولة المماليك في مصر[243].

واجهت المدينة موجة من الصراعات والتنافس بين الأمراء في أعقاب وفاة الأمير عطية بن منصور عام 783هـ/1381م[244]، حتى إن السلطان المملوكي أصدر مراسيم بتعيين الأمراء وكانوا غير مؤهلين لإدارة المدينة، الأمر الذي زاد من حدة الاضطرابات وعدم الاستقرار فيها[245].

تولى الأمير نعير بن منصور بن جماز بن شيحه أمر المدينة[246]، الذي دخل في صراع مع جماز بن هبه بن جماز بن منصور وأستطاع الأخير من التغلب على منافسه وقتله، وأصبح أمر الإدارة بيد جماز بن هبه الذي فقد الإمارة مرات عدة وشارك في بعض فتراتها أبناء عمومته وهكذا ظل الأمر غير مستقرٍ لحكم جماز حتى عزله في عام 811هـ/1408[247]، وقام ببعض الأعمال الانتقامية حيث كسر قبة الحجرة النبوية ونهب ما فيها من قناديل الذهب والفضة ثم فرّ من المدينة، وقتل بعدها على يد بعض رجال القبائل عام 811هـ/1408[248].

تناوب كل من الأمير عجلان بن نعير بن منصور وجماز بن هبه وغرير بن هيازع بن ثقبه بن جماز الحسيني وثابت بن نعير، على إدارة المدينة بعد صراع وتنافس داخلي، أقتضى ذلك تدخل السلطان الأشرف برسباي عام 825هـ/الذي أرسل جيشا بقيادة بكتمز السعدي بهدف استقرار الأوضاع في المدينة ووضع حد للصراع والتطاحن بيت الأمراء حتى استقرار الأمر بتولي مانع بن علي بن عطية بن منصور بن جماز إدارة المدينة وظل فيها حتى مقتله عام 839هـ/1435م[249]، وما لبث أن عاد النزاع بين أولاده (العجل وعلي وأميان) وحسم الأمر بتولي أميان الإدارة وتوطدت سلطته بمرسوم مملوكي بتعيينه، ولكن مع ذلك أن حالة عدم الاستقرار التي شهدتها المدينة ظلت قائمة مما أضعفها سياسيا وعسكريا في مواجهة القوى المحلية لا سيما غزوات بعض القبائل من جهة واشراف مكة من جهة ثانية، وهذا الأمر لا شك أنه أتاح الفرصة الواسعة للتدخل المملوكي المباشر في شؤون إدارة الحجاز بشكل عام والمدينة على وجه الخصوص[250].

تولى الأمير زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير الحسيني إدارة المدينة عام 855هـ/1451م[251] حتى عام 865هـ/1456م، وتولى من بعده زهير بن سلمان الذي أصبح أميرا على المدينة عام 887هـ/1482م، وعاد زبيري بن قيس ثانية الى أمرة المدينة حتى توفي عام 888هـ/1483[252].

أضحت إدارة المدينة بعد وفاة زبيري الى ولده البدر حسن[253]، وكان محمود السيرة دامت مدة حكمه قرابة ثلاث عشرة سنة، ولكنه أساء في أواخر عهده حيث سطى على المسجد النبوي وسرق حامل الحرم من نقود وقناديل الذهب والفضة عام 901هـ/1495م[254].

يبدو أن ما حصل في المدينة من أحداث أساءت للأشراف في الحجاز، لذا أرسل شريف مكة جيشا لحفظ الامن بصحبة فارس بن شامان بن زهير بن سليمان، الذي عيّنه أمير مكة نائبا عنه في المدينة، بعد أن أصدر الأمر بعزل أميرها البدر حسن، ثم عيّن شريف مكة بعد ذلك مانع بن زبيري أخا الأمير السابق أميرا على المدينة وفي رجب عام 919هـ/1513م[255]، قام الشريف بركات بن محمد بن بركات أمير مكة بأمر من السلطان المملوكي بتعيين الشريف ثابت بن ضيغم بن خشرم بن نجاد أميرا على المدينة[256]، وهو نائب للشريف بركات في ولاية قانصوة الغوري وبعد تعيينه عاد الشريف بركات الى مكة[257].

استمر ضيغم بن خشرم في موقعه في إدارة المدينة حتى نهاية العصر المملوكي عام 923هـ/1517م[258]، حينها سقطت دولة المماليك بدخول السلطان العثماني سليم الأول مصر وبدأت مرحلة جديدة في تاريخ المدينة المنورة ومدى ارتباط أمرائها بالسلطة العثمانية.

جدير بالإشارة إلى أن المدينة المنورة شهدت حركة ثقافية نشطة في العهد المملوكي لا سيما في القرنين الأخيرين فقد وفد إليها عدد كبير من العلماء من مختلف بلدان العالم الإسلامي ودرسوا في المسجد النبوي وفي بعض مدارسها، واستوطن بعضهم فيها وكثرت فئة المجاورين وساهمت في تنشيط الحركة الثقافية[259]، وأبرز العلماء الذين ولدوا فيها وفدوا إليها أو أقاموا فيها ابن فرحون والحافظ العراقي والسخاوي والسمهوري وألّفت الكثير من الكتب عن المدينة وأعلامها منها، التعريف بما أسست الهجرة في معالم دار الهجرة للمطيري، وتحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة للمراغي، ونصيحة المشاور وتعزية المجاور لابن فرحون والمغانم المطابة في معالم طابه للفيروز أبادي والتحف اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة للسخاوي.[260]

هوامش الفصل الرابع ومصادره

(1) صباح مهدي رميض، إمارة عسير، ص28.

(2) ينظر منتدى السادة الاشراف على الرابط الآتي: http://www.alashraf.ws

(3) إسماعيل حقي أوزون جاوشيلي، أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، شعبة العلوم الاجتماعية سلسلة (75)، ص9.

(4) منتدى السادة الأشراف، المصدر السابق.

(5) فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، مكتبة مصر الحديثة، ط2، الرياض، 1968، ص18.

(6) ينظر خارطة موقع الحجاز الجغرافي على الملحق رقم (2)

(7) محمود طه أبو العلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، ج1، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1972، ص27.

(8) فؤاد حمزة، المصدر السابق،ص18.

(9) عزيز محمد حبيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1975، ص19-24.

(10) المصدر نفسه، ص35.

(11) فؤاد حمزة، المصدر السابق، ص80.

(12) المصدر نفسه، ص81.

(13) المصدر نفسه، ص82.

(14) صباح مهدي رميض، إمارة عسير، ص28.

(15) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص25.

(16) المصدر نفسه، ص25.

(17) وردت أسماء عديدة لمدينة مكة، وقد جاءت بتفسيرات مختلفة، فقد ذكر أنها سميت بذلك لقلة مائها، أو لكثرة الازدحام فيها، أو لموقعها ما بين جبلين، وقد ورد اسمها في القرآن الكريم مرة واحدة في سورة الفتح آية 24، ومن أسمائها بكة وأم القرى الذي يعد هو الأشهر وعرفت بهذا الاسم لموقعها المتوسط بين القرى وهي من أعظمها شأنا وقد وردت هذه التسمية في موقعين في القرآن هما في سورة الأنعام الآية 92 وسورة الشورى الآية 7، ومن أسماء مكة الأخرى هي البلد، البلد الأمين، الحرام، أما الأسماء الأخرى غير الشائعة فهي النساسة، وأم رحم، معاد،

الحاطمة، الرأس، الحرم، صلاح، العرش، القارس، المقدسة والناسه والباسه، كوثى والمذهب ويطلق عليها أيضا أسماء، البيت والكعبة والبيت العتيق أو بيت الله أو البيت الحرام، لمزيد من التفاصيل ينظر، جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، ج2، مؤسسة الأعلمي بيروت، 1985، ص13؛ عارف عبد الغني، تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1992، ص ص14- 18.

(18) عارف عبد الغني، المصدر نفسه، ص18.

(19) المصدر نفسه، ص19.

(20) المصدر نفسه، ص20.

(21) الأشراف، أطلق هذا اللقب في الجاهلية على بعض الشيوخ والزعماء والكبار في القبائل العربية فيقال لهم سادات أو أشراف العرب، لكن هذا اللقب تغيرت مدلولاته في صدر الاسلام حيث أطلق على كل من كان من أهل البيت سواء كان حسنياً أو حسينياً أو علوياً من ذرية محمد بن الحنفية وغيره من أولاد الامام علي بن أبي طالب أو جعفرياً أو عقيلياً أو عباسياً، وفي عهد الدولة الفاطمية صدرت مدلولات هذا اللقب بذرية الحسن والحسين، الا أنه فيما بعد حدد لقب الشريف بذرية الإمام الحسن فقط، ينظرمنتدى السادة الاشراف على موقع الحجاز على الرابط الآتي:.http://.www.alhejaz.net

(22) السادة، وهم من نسل الامام الحسين (رضي الله عنه) يرتدون العمامة السوداء تميزاً لهم عن الشيوخ الذين يرتدون العمامة البيضاء وهم منتشرون في بقاع عديدة من الأرض بسبب الظروف السياسية والمعيشية التي واجهتهم، ينظر الرابط الآتي:.http://ar.wihipdia.org

(23) أبو المسك كافور الخصي الأخشيدي أمير مصر والحرمين ولي مصر بعد وفاة أبي الحسن بن علي بن طغج الأخشيدي حيث كان مستقلاً بالحكم من غير شريك حتى مات في يوم الثلاثاء العاشر من جمادي الاولى عام 357هـ مسموماً من قبل جاريته وقتلت الجارية من بعده وهو في عمر خمسة وستين عاماً وكانت مدة ولايته مئة يوم فقط كان يدعى له على المنابر في مكة والحجاز ينظر، عارف عبد الغني، أمراء مكة، ص399.

(24) فؤاد حمزة، المصدر السابق، ص314.

(25) المصدر نفسه، ص314.

(26) المصدر نفسه، ص314.

(27) الهواشم أو الهاشميون، وهم من سادات وأشراف العرب فخذ من قبيلة قريش من كنانه من خندف بن مضر من العرب العدنانية، يرجع نسبهم الى نبي الله إسماعيل عليه السلام ومن هذه القبيلة ينتسب الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، تتفرّع قبيلة الهواشم الى أربعة أقسام هي آل الامام الحسن بن علي بن أبي طالب وآل الحسين بن علي بن أبي طالب وآل محمد بن علي بن أبي طالب وآل العباس بن علي بن أبي طالب والفرع الثاني آل عقيل بن أبي طالب والثالث آل جعفر بن أبي طالب والفرع الرابع آل العباس بن عبد المطلب ينظر، الموسوعة الحرة الويكيبديا، على الرابط الآتي: http://ar.wihipdia.org.

(28) جمال الدين أحمد بن علي الحسني بن عنبه (ت 748هـ/828م) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، تحقيق السيد مهدي الرجالي، ط1، طهران، 2004، ص226.

(29) ريشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ط1، الرياض، 1985، ص24.

(30) المصدر نفسه، ص24.

(31) ابن عنبه، عمدة الطالب، ص226.

(32) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص 25-27.

(33) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص26.

(34) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص28.

(35) المصدر نفسه، ص28.

(36) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص27.

(37) عارف عبد الغني، تاريخ امراء مكة المكرمة، ص443.

(38) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص30.

(39) ابن الاثير، الكامل في التاريخ، ج11، ص279.

(40) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص444.

(41) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص30.

(42) زامبارو، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1980، ص31.

(43) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص30.

(44) أبو شامة، ذيل الروضتين، دار الجيل، بيروت، 1974.

(45) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص456.

(46) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص30.

(47) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص31.

(48) المصدر نفسه، ص32.

(49) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص33.

(50) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص32.

(51) المصدر نفسه، ص32.

(52) ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت 774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ج12، مطبعة السعادة، القاهرة، 1351.

(53) صبحي عبد المنعم محمد، العلاقات بين مصر والحجاز زمن الفاطميين والأيوبيين، القاهرة، د.ت.، ص161.

(54) ريشارد مورتيل، المصدر السابق،ص33.

(55) المصدر نفسه، ص33.

(56) هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب(كرم الله وجهه)، ينظر ابن عنبه، المصدر السابق، ص141.

(57) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص464.

(58) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص35.

(59) صبحي عبد المنعم محمد، المصدر السابق، ص162.

(60) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص34.

(61) صبحي عبد المنعم محمد، المصدر السابق، ص164.

(62) المصدر نفسه، ص164.

(63) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص37.

(64) ابن الريحاني هو سليمان بن عبد الله بن الحسن علي، يكنى أبا الربيع بن أبي محمد ويعرف بالريحاني، ولد بمكة عام 574هـ/1178م، وقد سمع بمكة من عمه أبي الحسن علي بن الحسن الرعيني وقد أسر في الحرب التي وقعت بين قتادة وصاحب المدينة ومن ثم أطلق سراحه، توفي في القاهرة عام 642هـ/1244م ودفن بسفح المقطم، ينظر، صبحي عبد المنعم، هامش (5) ص165.

(65) المصدر نفسه، ص ص 165،166.

(66) القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص272.

(67) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12، ص205؛ عارف عبد الغني المصدر السابق، ص465.

(68) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص38.

(69) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص167.

(70) **المصدر** نفسه، ص167.

(71) **المصدر نفسه**، ص168.

(72) **المقريزي، تقي الدين** أحمد بن علي (ت845هـ/1442م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، ج1، قسم(1)، **تحقيق** محمد مصطفى زيادة، القاهرة، 1956.

(73) المصدر نفسه، ص185.

(74) أبو شامة، ذيل الروضتين، ص92.

(75) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص41.

(76) الفرسخ وحدة قياس المسافات تعادل 6 كيلو متر.

(77) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج12، ص ص 402،401.

(78) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص50.

(79) المصدر نفسه، ص51.

(80) المصدر نفسه، ص51.

(81) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص43.

(82) المصدر نفسه، ص44.

(83) المصدر نفسه، ص44.

(84) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص178.

(85) يعد مؤسس الدولة الرسولية في اليمن، ينظر الفصل الثاني من الكتاب.

(86) المقريزي، السلوك، ج1، ص213.

(87) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص45.

(88) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص205.

(89) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج2، ص40.

(90) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص208.

(91) المصدر نفسه، ص209.

(92) سيتم اعتماد تسمية ابن عيدان لاتفاق مصادر عديدة على هذا الاسم، الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص49.

(93) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص47.

(94) المصدر نفسه، ص47.

(95) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص54.

(96) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص 47، 48.

(97) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص212.

(98) المقريزي، السلوك، ج1، القسم(1)، ص253.

(99) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص61.

(100) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص214.

(101) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص 49، 50.

(102) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص77.

(103) صبحي عبد المنعم، المصدر السابق، ص217.

(104) Burckhardt, J.L., Travels in Arabia, Vol.2, Cambridge, London, 1819,p.277.

(105) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص106.

(106) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص363.

(107) المصدر نفسه، ص363.

(108) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص 52.

(109) المقريزي، السلوك، ج1، ص412.

(110) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص365.

(111) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص134.

(112) محمد عبد العال أحمد، بنو رسول وبنو طاهر، ص367.

(113) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص169.

(114) المقريزي، السلوك، ج1، ص504.

(115) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص 55.

(116) المصدر نفسه، ص56.

(117) المصدر نفسه، ص57؛ عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص524.

(118) ينظر النص في عارف عبد الغني، المصدر نفسه، ص525.

(119) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص60.

(120) المقريزي، السلوك، ج1، ص756.

(121) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص63.

(122) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص335.

(123) ابن كثير، البداية والنهاية، ج41، ص21.

(124) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج1، ص336.

(125) ورد في كتاب ابن عنبه أنهم ثلاثون ذكرا، عمدة الطالب، ص143.

(126) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص528.

(127) أحمد بن عمر الزيلعي، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة، ج1، متاح على موقع منتدى أل البيت على الرابط الآتي:www.alalbayt.com

(128) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص68.

(129) المصدر نفسه، ص69.

(130) المصدر نفسه، ص71.

(131) زامبارو، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص32.

(132) المقريزي، السلوك، ج2، ص145.

(133) منتدى آل البيت، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة.

(134) منتديات نبع الوفاء، الأشراف وحكم الحجاز متاح على الرابط الآتي:www.soso.com .

(135) المقريزي، السلوك، ج2، ص384.

(136) منتدى آل البيت، نظام المشاركة في الحكم لدى أشراف مكة.

(137) ينتسب القواد العمه الى شخص يسمى عمر بن مسعود وقد كان أبو مسعود مولى للشريف أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة والد ابي نمي وكان الأشراف على مصاهرة معهم، ينظر: ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص186 هامش(186).

(138) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، نفوذ القواد العمرة والحمضيات لدى أشراف مكة على منتدى آل البيت، على الرابط الآتي:www.alabayt.com

(139) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص89.

(140) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في الحكم، المصدر السابق.

(141) المصدر نفسه.

(142) المصدر نفسه.

(143) زامبارو، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة، ص23؛ عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص563.

(144) ميناء السرين، يقع جنوب منطقة الليث بمسافة 40 كم.

(145) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم، المصدر السابق.

(146) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص95.

(147) منتديات نبع الوفاء، الاشراف وحكم الحجاز.

(148) المقريزي، السلوك، ج2، ص888.

(149) محمد بن علي الشوكاني(ت 1250هـ) البدر الطالع لمحاسن ما بعد القرن السابع، ج1، ط1، القاهرة، 1348هـ، ص181؛ عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص559.

(150) هو ركن الدين عمر شاه التركي صاحب الحجاب، توفى عام 771هـ، ينظر، عارف عبد الغني، المصدر السابق، (هامش5) ص559.

(151) المصدر نفسه، ص559.

(152) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم على موقع منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(153) المقريزي، السلوك، ج3، ص48.

(154) أحمد بن عمر الزيلعي، نظام الحكم، منتدى آل البيت.

(155) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، نفوذ القواد العمرة، منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(156) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص105.

(157) المصدر نفسه، ص106.

(158) المصدر نفسه، ص106.

(159) المصدر نفسه، ص106.

(160) أحمد بن عمر الزيلعي، نظام الحكم، منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(161) المقريزي، السلوك، ج3، ص549.

(162) أحمد بن عمر الزيلعي، نظام الحكم، منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(163) المصدر نفسه.

(164) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص591.

(165) الخزرجي، العقود اللؤلوية، ج2،ص228.

(166) اعتقل الشريف علي بن عجلان كثيراً من الأعيان والأشراف والقواد العمرة والحمضيات وطالبهم بما وهبهم من الخيل والدروع ثم أطلق سراح اكثرهم بعد ان استجابوا لذلك وأبقى بعضهم لا سيما الأشراف ومنهم محمد بن يوسف بن أبي نمي، وقد تمكن أحد قادة العمرة ويدعى كبيش بن سنان بن عبد الله العمري من التوسط لإطلاق سراح محمد بن يوسف من معه، و يدل هذا الأمر على مدى نفوذ القواد العمرة في الحياة السياسية خلال تلك المدة، ينظر، عبد الرحمن مديرس المديرس، موقع آل البيت، المصدر السابق.

(167) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص118.

(168) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص598؛ زامبارو، معجم الأنساب، ص32.

(169) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم، موقع منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(170) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص125.

(171) المقريزي، السلوك، ج4، ص76.

(172) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم، موقع منتدى آل البيت، المصدر السابق.

(173) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، نفوذ الغوار العمرة على موقع منتدى آل البيت.

(174) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص135؛ منتديات نبع الوفاء الأشراف وحكم الحجاز.

(175) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص115.

(176) فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، ص317.

(177) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم على موقع منتديات آل البيت.

(178) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص644.

(179) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص152.

(180) المصدر نفسه، ص152.

(181) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص644.

(182) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص154، 155.

(183) المصدر نفسه، ص155.

(184) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم على منتديات موقع آل البيت.

(185) المصدر نفسه.

(186) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص157، 158.

(187) المصدر نفسه، ص159.

(188) المصدر نفسه، ص160.

(189) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص658.

(190) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم على موقع منتديات آل البيت.

(191) منتديات نبع الوفاء، الاشراف وحكم الحجاز على الرابط الآتي:www.soso.com

(192) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص ص162،170.

(193) عارف عبد الغني، المصدر السابق، ص682.

(194) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص 170.

(195) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم على موقع منتديات آل البيت.

(196) فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، ص317.

(197) ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص172.

(198) السلطان سليم الأول هو تاسع سلاطين الدولة العثمانية وخليفة المسلمين الرابع والسبعين وهو أول من حمل لقب أمير المؤمنين من آل عثمان ولد في عام 872هـ/ الموافق 10 تشرين الاول عام 1470 في مدينة أماسيا على ساحل البحر الأسود في الاناضول، عرف عنه أنه رجل عسكري شرس شجاع محبوب من قبل جنده لا سيما القوات الإنكشارية، قاد سلسلة من الفتوحات التي شهدتها الدولة العثمانية في عهده، وبذلك يُعد من أبرز السلاطين ضمن مدة عصر القوة والسيطرة والتفوق، توفى في 9 شوال عام 926هـ الموافق 22 أيلول 1520م، ينظر، الموسوعة الحرة الويكيبدياء على الرابط الآتي:http://ar.wihipdia.org.

(199) هو القاضي صلاح الدين بن أبي السعود بن ظهيرة الشافعي المكي، توفي عام 927هـ/1520م، ينظر ريشارد مورتيل، المصدر السابق، ص172 هامش رقم (187).

(200) ريشارد مورتيل، المصدر نفسه، ص172؛ زامباور، معجم الأنساب والأسر الحاكمة، ص33.

(201) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم، على موقع منتديات آل البيت.

(202) يحيى بن الحسين، غاية الأماني، ج2، ص655.

(203) أحمد بن عمر الزيلعي، المشاركة في نظام الحكم، على موقع منتديات آل البيت.

(204) ينظر منتدى عسقلان الثقافي على الرابط الآتي: http://www.aljoora.com

(205) الشريف أحمد بن محمد صالح الحسيني البرادعي، المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي، مطابع دار الكتب، ط1، بيروت، 1972، ص111.

(206) عبد الرحمن مديرس المديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي 648-923هـ/1250-1517م، ط1، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، 2001، ص23.

(207) منتدى عسقلان الثقافي، المصدر السابق.

(208) راجع الفصل الأول من الكتاب.

(209) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص68.

(210) المصدر نفسه، ص78.

(211) المصدر نفسه، ص78.

(212) المقريزي، السلوك، ج1، ق2، ص57.

(213) أشارت بعض المصادر إلى أن جماز بن الأمير قاسم هو الذي خلف والده في أمرة المدينة، إلا أنها لا تعطي المعلومات عن ولايته ومدتها، ولم يكن موجودا خلال النزاع الذي حصل مع امير مكة قتادة بن إدريس بن مطاعن ثم آلت الإمارة إلى أخيه سالم بن قاسم الحسيني، ينظر: عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص ص 28،29.

(214) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص80.

(215) المصدر نفسه، ص80 ؛ الشريف احمد الحسيني البرادعي، المصدر السابق، ص114.

(216) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص29.

(217) أوردت بعض المصادر على أن قاسم بن جماز قد أغتيل على يد أحد أبناء قبيلة بني لام في عام 624هـ/1226م، ينظر: عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص29.

(218) الشريف أحمد الحسيني البرادعي، المصدر السابق، ص114.

(219) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص81.

(220) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص30.

(221) جميل حرب محمود، المصدر السابق، ص82.

(222) منتديات احباب طيبة على الرابط الآتي: http://www.ahbab-taiba.com

(223) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص31.

(224) عارف أحمد عبد الغني، تاريخ امراء المدينة المنورة 1هـ-1417هـ، دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، سلسلة كتب تواريخ المدن، رقم(3) الرياض، د.ت، ص264.

(225) تاريخ المدينة المنورة على منتدى عسقلان الثقافي، ينظر الرابط الآتي: http://www.aljoora.com

(226) ينظر مدونة طلال بن صالح العلوي، المدينة المنورة في عهد المماليك على الرابط الآتي: http://talalsaleh.blogspot.com

(227) منتدى عسقلان الثقافي، تاريخ المدينة المنورة.

(228) المصدر نفسه.

(229) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، المصدر السابق.

(230) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص268.

(231) منتدى عسقلان الثقافي على الرابط الآتي: http://www.aljoora.com

(232) المصدر نفسه.

(233) المقريزي، السلوك، ج2، ق2، ص288.

(234) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص271.

(235) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص34.

(236) المصدر نفسه، ص35.

(237) المصدر نفسه، ص37.

(238) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص277.

(239) القلقشندي، صبح الاعشى، ج4، ص426.

(240) عبد الرحمن بن مديرس المديرس ، المدينة المنورة، ص39.

(241) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص285.

(242) مدونة طلال بن صالح العلوي، المدينة في عهد المماليك.

(243) عبد الرحمن بن مديرس المديرس ، المدينة المنورة، ص40.

(244) ابن التغري بردي، النجوم الزواهر، ج11، ص218.

(245) منتدى عسقلان الثقافي، تاريخ المدينة المنورة.

(246) الشريف أحمد بن محمد صالح الحسيني البرادعي، المصدر السابق، ص123.

(247) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص ص 40، 41.

(248) المصدر نفسه، ص ص 41، 42.

(249) المصدر نفسه، ص43.

(250) المصدر نفسه، ص ص43، 44.

(251) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص309.

(252) عبد السلام هاشم حافظ، المدينة المنورة في التاريخ، دراسة شاملة، منشورات نادي المدينة الأدبي، ط1، الرياض، 1982، ص ص 143، 145؛ عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص ص 45، 46.

(253) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص316.

(254) المصدر نفسه.

(255) عبد الرحمن بن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص 46.

(256) عارف عبد الغني، تاريخ أمراء المدينة، ص320.

(257) المصدر نفسه، ص320.

(258) عبد الرحمن مديرس المديرس، المدينة المنورة، ص 46.

(259) رايات العز، السنة الرابعة، العدد 64، ديسمبر، 2005، على الرابط الآتي:
http://www.rayat-alizz.com

(260) المصدر نفسه.

الفصل الخامس

أوضاع نجد في العصر الوسيط وشرق الجزيرة العربية وقيام الدويلات العصفورية والجبرية ومملكة هرمز

أولا: نجد وشرق الجزيرة العربية وظروف عدم الاستقرار السياسي في العصر الوسيط.

ثانيا: الدولة العصفورية.

ثالثا: الدولة الجبرية.

رابعاً: مملكة هرمز.

أولاً: نجد وشرق الجزيرة العربية وظروف عدم الاستقرار السياسي في العصر الوسيط

قبل الخوض في طبيعة الوضع السياسي في نجد وشرق الجزيرة العربية لا بد من استهلال جغرافي يعرف بهضبة نجد وإمكاناتها ومواردها الطبيعية، تقع هضبة نجد في وسط شبه الجزيرة العربية، وتعَد أكبر إقليم جغرافي في جزيرة العرب وتعرف أيضاً بإسم إقليم (العارض)[1]، وهي على ارتفاع يتراوح ما بين 726-1524م فوق مستوى سطح البحر[2]، تحد إقليم نجد من الغرب الحجاز وعسير ومن الشرق الأحساء وصحراء الدهناء أو النفود الصغرى والكبرى ومن الجنوب الربع الخالي[3]، وقد أطلق الجغرافيون المسلمون على مواقع عدة في الجزيرة العربية إسم نجد[4]، مثل نجد اليمن وهي الهضبة الواقعة شرق سراة اليمن جنوب صحراء الربع الخالي، وقد سمي بهذا الاسم لارتفاعه عن تهامة اليمن، وهو السهل الساحلي المحاذي للبحر الأحمر ونجد الحجاز وقد عرف بهذا الاسم لارتفاعه عن تهامة الحجاز وتفصلها عن سلسلة جبال السرواة أو جبال الحجاز ما بين نجد وتهامة.[5]

وهناك من الجغرافيين والبلدانيين من يطلق على الاجزاء الشرقية المنخفضة إسم بلاد (السافلة) وعلى المناطق العالية إسم (عالية نجد)[6]. تنخفض هضبة نجد تدريجياً من جهة الغرب باتجاه الشرق، وتتسم معظم مناطق نجد بوعورة الأرض واحتوائها على العديد من الأودية التي تحتفظ بالماء بعد سقوط الأمطار، ومن أشهر تلك الأودية وادي حنيفة الذي يخترق مدينة الرياض من الشمال إلى الجنوب ووادي الرمه في القصيم الذي يغوص في رمال الدهناء ووادي سدير في شرق نجد ووادي الخرج ووادي سبيع، الذي ينحدر من مرتفعات الحجاز مروراً بمدينة الخرمه، ثم وادي برك الذي تقع عليه حوطة بني تميم[7].

تنتشر في غرب هضبة نجد وشمالها الكثير من الجبال الكرانيتيه وبالزلتية السوداء الصلبة مثل جبل العرض، كما تنتشر فيها النفود الرملية في المنطقة الواقعة بين الزلفي والقصيم وتعرف باسم نفود الثويرات، ونفود السر في وسط نجد الى الغرب[8]، وتتخلل منطقة نجد الكثير من عيون الماء، لا سيما في منطقة الأفلاج والخرج[9].

أما المناخ في نجد فعلى العموم مناخ قاري يتسم بالحر في الصيف مع طقس يميل الى البرودة في الشتاء، ولذا يحصل تفاوت واضح في معدل درجات الحرارة ما بين الليل والنهار في معظم أيام السنة، أما موسم الأمطار فيكون عادة في المدة والواقعة ما بين شهر تشرين الثاني وشهر آذار من كل عام، إلا أن هذا المستوى من الأمطار يكون متذبذباً ما بين عام وآخر[10].

تقام السدود على مجرى مياه الأودية لغرض الإرواء والقيام بالنشاط الزراعي، وفي بعض الأحيان في أثناء فصل الشتاء وخلال أيام البرد القارس تشهد المناطق الشمالية من هضبة نجد تساقط الثلوج بكميات محدودة[11].

عرفت الأقسام الغربية والشمالية بأنها مناطق صالحة للرعي، ولذلك كانت مثار للصراع والتنافس بين القبائل القاطنة فيها لاسيما البدوية، لذلك شهدت هجرات قبلية عديدة، ومنها ما حصل بالنسبة الى قبيلة عنزه، التي تعد واحدة من أكبر القبائل في نجد وأعرقها، حينما رحل أحد رؤسائها مانع بن المسيب الملقب (بالمريِّدي) من منطقة الدروع في القطيف واستقر فيها، وقد أرتبط بعد ذلك بعلاقة مصاهرة مع ابن درع رئيس قبيلة (حجر اليمامة) وذلك في عام 850هـ/1446م[12].

استقر الشيخ مانع في منطقة الملبيد ونصيبه هو وأسرته فأنشأ فيها وبمساندة رجال قبيلته قرية أسماها (الدرعية)[13]، التي انتقلت منها الدعوة الوهابية[14].

شهدت نجد سلسلة من الصراعات القبلية لا سيما تلك التي حصلت ما بين قبائل بني حنيفة وبني تميم ومع غيرهم في نجد، وكانوا على صراع بسبب التوسع والحصول على مناطق النفوذ، وهذا الأمر لا شك أنه أسس لقيام علاقات قبلية وتحالفات بينهما، البعض أستمر والآخر أنقطع، وكانت صفة عدم الاستقرار قد تكون هي الصفة الغالبة لمجريات الوضع السياسي في نجد وعموم شبه الجزيرة العربية منذ سقوط دولة المماليك حتى قيام الدولة العثمانية، وتكريس نفوذها في المنطقة، لذلك عاشت نجد ظروف البؤس الاقتصادي والنكوس الاجتماعي حيث ساد الجهل والظلام حتى جاء وصف المؤرخ ابن بشر دقيقاً بقوله، «إنها كقطع الليل المظلم وقتال بين أهل كل بلد عدواناً وحمية وجاهلية وتحالف وتنازع وعصبية وفي كل بلد بها رئيس أو أكثر يقع بينهم الشر تارة يتقاتلون وتارة يتسالمون فلا يسافر ذو الحاجة فرسخاً أو ميلاً الا كاد أن يرجع مسلوباً أو مقتولا»[15].

بهذه الصورة كانت نجد مفكّكة ضعيفة تكابد حالات الانحراف الديني والفقر الحضاري والتدهور السياسي فضلاً عن حالة الاقتصاد المتدني[16]، لذلك انعكست هذه الأوضاع على مستوى التدوين التاريخي، الذي جاء شحيحاً وفيه الكثير من التناقضات.

واستناداً إلى ما تم عرضه من معلومات حول أوضاع نجد العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أشير للنزاعات التي دخلتها قبيلة عنزة مع القبائل الأخرى مثل ظفير ومطير وأل كثير والفضول وغيرها، ففي عام 771هـ/1367م أغارت بعض من قبائل عنزه على قبائل آل كثير وقبائل سبيع في أسفل منطقة سدير وأخذت منهم أبلاً كثيرة وماشية[17]، وفي عام 861هـ/1457م، أشترك آل

كثير في مواجهة قبائل عنزه ومعهم فريح بن طامي بن فريح رئيس بوادي آل كثير وتناخوا هم وقبائل الظفير ومن معهم من قبائل حرب وبني حسين وذلك في أرض السر وأقاموا في أراضيهم نحو عشرين يوماً ودارت الدائرة على قبائل الظفير وأتباعهم واغتنموا من قبيلة عنزه وآل الكثير من الإبل والأغنام والبيوت والأمتعة، وفي عام 871هـ/1467م، جددت قبائل عنزه هجومها على قبائل آل سبيع وآل كثير في منطقة الوشم، لذلك هاجرت بعض القبائل من نجد إلى مناطق متفرقة في المنطقة منهم من توّجه إلى جهة العراق ومنهم الخوالد والظفير الذين استقروا في البصرة والنجف[18].

وفي عام 881هـ/1477م دخلت قبائل عنزه في صراعات جديدة مع قبائل الفضول وبصورة متفرقة على مدار سنوات 885هـ/1481م، 888هـ/1484م، 889هـ/1485م، 894هـ/1490م، 901هـ/1497م، 911هـ/1507م، ثم تجدّد نزاع قبيلة عنزة مع قبيلة الدواسر عام 911هـ/1507م، فضلاً عن المشكلات القائمة ما بين عنزه وآل نبهان من آل كثير من بني لام عام 919هـ/1515م، وعلى هذه الوتيرة استمرت تلك الخلافات القبلية طوال القرن العاشر الهجري الثالث عشر الميلادي وما بعده[19].

أما قبائل بني عقيل وبني كعب وبني نمير وبني كلاب وبني هلال وبني سليم فكانوا في عالية نجد وأقاليم اليمامة، كما هيمنت فروع قبيلة طي على شمال الجزيرة العربية، في حين فضّلت قبائل بني عامر سيطرتها على براري جنوب نجد والبحرين[20]، واستطاعت من تكوين إمارة قبلية سيطرت على شرق الجزيرة العربية واليمامة وهذا ما سيتم عرضه في سياق المبحث التالي:

ثانياً: الدولة العصفورية

أولاً: التسمية والخصائص الطبيعية والاجتماعية

سميت بالدولة العصفورية نسبة الى اسم مؤسسها الشيخ عصفور بن راشد بن عميرة بن سنان بن غفيلة بن شبانة بن عامر، وينتسب بنو عامر الى عامر بن عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بنو صعصعة، ومن ثم إلى هوزان من قيس عيلان العدنانية[21].

شغلت الدولة العصفورية مساحة جغرافية واسعة امتدت من سواحل عمان جنوباً حتى الكويت، وضمت جزر البحرين وأمتد نفوذها الى شرق نجد[22]، امتازت بخصائص طبيعية مهمة منها سعة رقعتها الزراعية؛ حيث توافرت فيها المياه الغزيرة والعيون وقرب مياهها الداخلية القريبة من سطح الأرض وقد ساهمت في تعزيز النشاط الزراعي[23]، وقد ارتبط بدوره في إقامة علاقات إنتاجية وتركيب اجتماعي في المنطقة، يختلف في كثير من الاحيان في خصائصه عما حوله من البوادي، ففي مثل هذه البيئة سعى السكان الى إقامة سلطة تعمل على توفير الأمن والنظام والحماية من خطر سكان البوادي المجاورين لهم، ثم إيجاد نظام متوازن في توزيع المياه وحماية مصادرها، فضلاً عن ايجاد نظام يحدد العلاقة ما بين المستثمرين والمنتجين في مختلف النشاطات الاقتصادية[24].

لا شك أن البيئة الزراعية قد هيّأت ظروف الاستقرار الاقتصادي والسياسي للسكان ونظمت العلاقة ما بينهم وبين الطبقات الحاكمة، كخاصية رئيسة هي أن بلاد البحرين موطن الدولة العصفورية تميزت ببيئة بحرية بسبب طول سواحلها الممتدة على الخليج العربي وكثرة تعاريجها، هذا الأمر أثّر في أوجه نشاط السكان بسبب استقبالهم للتأثيرات الخارجية عن طريق سواحلها وجزرها المتعددة، فضلاً عن فرص استغلال ثرواتها الطبيعية الممثلة بصيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، وكانت حركة السكان مستمرة على طول السواحل مستخدمين سفنهم ومراكبهم، وخصوصية التفضيل تلك حقّقت لهم أمتداداً جغرافياً وبشرياً وحضارياً، أثّر في مسيرة هذه الدولة في مجريات أحداث تاريخها اللاحق، وهذه البيئة البحرية لا شك أنها أوجدت طبقة من السكان، كان لها ثقلها في الحياة الاقتصادية والسياسية، وقد أفرزت زعامات اعتمدت في مركزها على قوتها الاقتصادية الناتجة من سيطرتهم على قطاعات واسعة ومهمة من النشاط الاقتصادي، وهؤلاء هم تجار اللؤلؤ وأصحاب السفن ويساندهم عدد كبير من الأتباع الذين يدينون لهم بالولاء نتيجة لتبعيتهم الاقتصادية لهذه الزعامات، وهؤلاء صيادو الأسماك واللؤلؤ والعاملون على السفن التجارية[25].

أما الخاصية الثالثة فهي الصفة القبلية وقد لا تختلف عن بقية مناطق الجزيرة العربية وقد طبعتها بطابع اجتماعي واقتصادي ظل قائما حتى العصر الحديث وقد تحكمت بهذه الخاصية طبيعة الظروف الاقتصادية والطبيعية، فعندما تتعرض البيئة الصحراوية الى الفقر والعجز عن سد احتياجات سكانها بسبب يتزايد عددهم، يحصل نقص كبير في عدد المراعي للقبائل القاطنة بها، لذا تصبح البيئة طاردة تجعل أبناءها يتوجهون إلى المناطق الأكثر غنى، وهما البيئتان الزراعية والبحرية، ومن ثم تصبح حالة النزاع والصراع قائمة[26].

أدت النخبة القبلية الممثلة بزعماء القبائل دوراً كبيراً في تحديد خصائص الاستقرار، بعد حصولهم على الدعم من قبل السلطات القائمة في المدن، ولا بد من الإشارة إلى أن العلاقة ما بين سكان البادية والسكان المستقرين في المدن تأتي من خلال طبيعة المصالح المشتركة بينهما لاسيما تلك المتعلقة بالتجارة والسيطرة على الطرق التجارية القادمة من وإلى الموانئ الواقعة على الخليج العربي، لذلك حاولوا فرض سيطرتهم عليها، لذا حصلت التوافقات بينهم من أجل خلق حالة التعايش بين من يفرض سيطرته على الطرق البرية وعلى الطرق البحرية، وبذلك تظهر أهمية القبيلة ودورها الخطير في حياة هذه الدولة، وهذه هي الخاصية الأبرز لتنظيم العلاقات بين القبيلة ومنظومة الدولة في شرق الجزيرة العربية[27].

ثانياً: بدايات تأسيس الدولة العصفورية في بلاد البحرين

بعد أن فقدت الدولة العيونية[28] مقومات بقائها، إذ عجز أمراؤها عن الدفاع عن أرضهم ومدنهم واستلام حاشية السوء وتقربهم للزعامات البدوية من بني عامر بن عقيل، حتى أصبح لهؤلاء الكلمة العليا في بلاد البحرين وأصبحوا يسيطرون على معظم أملاك البلاد بلا منازع، مما سهّل مهمتهم في التخلص من بقايا البيت العيوني الآيل للسقوط[29]، ومن ثم سقوط مدن البحرين الواحدة تلو الأخرى من غير إرهاق أو معاناة[30].

أثار سقوط الدولة العيونية قلقاً واسعاً بين أعيان البحرين على مصالحهم التجارية الذين راحوا يتسابقون من أجل كسب رضا بني عامر بوصفهم مسؤولين عن حماية القوافل التجارية وحراستها، لا سيما تلك التي تربط الخليج العربي والجزيرة بالبلاد المجاورة الأخرى، وفي الوقت ذاته اتفق معظم أعيان الأحساء ووجوهها على تسليم السلطة في البلاد الى زعيم بني عامر الشيخ عصفور بن راشد الذي استولى على الأحساء عام 620هـ/1223م، ومن ثم مد نفوذه على مناطق البحرين كافة عام 636هـ/1238م[31].

استولى الأمير عصفور بن راشد بن عميرة بن سنان على واحات الأحساء فواجهته صعوبات عديدة منها تهديدات بقايا الإمارة العيونية في كل واحات القطيف وجزيرة أوال، والخطر المنبعث من مملكة جزيرة قيس التي تمتلك أسطولاً بحرياً وتجارياً يتحكم بتجارة الخليج العربي وسيادته، لذلك تطلب الأمر توثيق العلاقات بين بني عامر وأمراء بني قيصر ملوك جزيرة قيس[32]، كي تستطيع الإمارة العصفورية المحافظة على منفذها التجاري على الخليج، وهو ميناء القصير الذي لا يمكن لها الاستغناء عنه في تجارتها ما بين داخل الجزيرة العربية والعالم الخارجي[33].

وبهدف استقرار إمارته شن الشيخ عصفور بن راشد العديد من الهجمات على القوات الأتابكية السلغرية في القطيف، محاولاً استعادة المدينة من سيطرتهم، لذلك استنجدت الإدارة الأتابكية في القطيف بمركز حكومتها في فارس وبيّنت أن قوات بني عقيل أصبحت مصدر قلق بالغ، كما أنها هدّدت المصالح السلغرية في القطيف وعرقلت الإدارة السلغرية عن أداء مهامها المكلفة بها في تلك المنطقة[34].

استجابت الحكومة الأتابكية لطلب حاميتها السلغرية في القطيف وقد عزّزتها بقوات إضافية مع أجراء بعض التكتيكات العسكرية ومنها تغيير الحامية وقادتها بين مدة وأخرى؛ وذلك بهدف الصمود أمام هجمات الشيخ عصفور بن راشد[35].

لا شك أن تكرار الهجمات العصفورية على القوات السلغرية قد استنزفت قواتها العسكرية والمالية، الأمر الذي دعا الأتابك أبو بكر بن سعد بن زنكي إلى عقد هدنة مع العصفوريين واسترضائهم ووقف هجماتهم مقابل دفع أتاوة سنوية الى الشيخ راشد قدرت باثني عشر ألف دينار مصري تدفع كل عام عند موسم جني محصول التمور في واحات القطيف[36]، مقابل ذلك التزام العصفوريين بعدم التفوق للإدارة السلغرية.

وفي أحيان عديدة يلجأ بنو عصفور الى التهديد باستخدام القوة كلما شعروا بوجود تلكؤ من قبل السلغرين في دفع هذه الأتاوة بل أن شيوخ بني عصفور لم يكتفوا بمبلغ الأتاوة السنوية المقرّرة لهم، بل أن بعض الشيوخ أرسلوا أحد أتباعهم الى موظفي الأتابك في ميناء القطيف يطالبه بدفع مبلغ من المال وبعض السلع، وعندما يظهر بعض الموظفين تلكؤهم في دفع المطلوب منهم، يتم أرغامهم على الدفع عن طريق التهديد باستخدام القوة ضدهم[37].

واجهت الإدارة السلغرية في البحرين صعوبات جمة وتهديدات خارجية محتملة، فضلاً عن التزاماتها المالية السنوية العالية، لذا قرر الأمير أبو بكر سعد السلغري تسليم السلطة في بلاد البحرين للعصفوريين مقابل دفعهم مبالغ معينة من الأموال السنوية إلى الخزينة الأتابكية في فارس وقد حصل الاتفاق على ذلك[38].

وبموجب هذا الاتفاق تكون إمارة العصفوريين قد فرضت سيطرتها على مناطق القطيف والبحرين وعمان (صحار) والحسا وجزيرة أوال وأجزاء من نجد (اليمامة) في عام 654هـ/1256م[39]، ويشير المؤرخ المعاصر الحميدان إلى أن المتاعب العسكرية والنفقات المالية لم تكن هي السبب فقط في انسحاب القوات السلغرية من القطيف وبعض مناطق البحرين، وإنما هناك عوامل أخرى منها الزحف المغولي المدمر الذي اجتاح الأراضي الفارسية بقيادة هولاكو، والأمر الثاني ظهور زعيم طموح في الخليج العربي، هو محمود بن أحمد الكوسي (الكوشي) القلهاتي الذي استولى على السلطة في مملكة هرمز التي كانت تشمل على جزء من الساحل الايراني والعماني وأخذ يتطلع الى توسيع نفوذه وأستطاع أن يتحكم بمدخل الخليج العربي ولا بد أن يكون هذا الزعيم قد أثار مخاوف الأتابك أبي بكر من احتمال قيام تعاون بينه وبين العصفوريين، يكون الهدف منه مواجهة خصمهم المشترك أبي بكر السلغري إذا ما علمنا أن للعصفوريين أسطولاً تجارياً قوياً يمكن أن يستخدم في تعزيز العمليات العسكرية ضدهم[40].

فرض العصفوريون سيطرتهم على منطقة نجد بعد أن تنازل السلغرين عن إدارتهم لبلاد البحرين، فعمل شيوخ بني عامر على إقامة علاقات وطيدة مع أمراء نجد ودخلوا في تحالفات معهم، وإن القبائل النجدية أدانت بالولاء لهم وشاركوهم في مواجهة أمراء منطقة عسير في مدينة البيشة[42].

لم يستطع أمراء بني العصفور من فرض سيطرتهم على مناطق جنوب نجد، حيث دخلوا في مواجهة مع القوات التابعة إلى أمير عسير بقيادة محمد بن سعد الشريف الذي أجبرهم على الانسحاب من البيشة ومدينة أوضاح الواقعة على طريق الحج، ومن ثم فإنه أفقد العصفوريين سيطرتهم على طريق التجارة وقوافل الحجيج[43].

دخل العصفوريون في نزاعات مع بعض القوى القبلية المحلية، ومنهم آل يزيد أحفاد مالك بن سنان في نجد حيث دارت مواجهات مع الأمير يوسف بن صالح بن مالك بن سنان في منطقة القرين[44]، قتل فيها الأمير يوسف بمعركة الصمان عام 622هـ/1225م، وبعد أن علم ولده الأمير عبد المحسن بما حصل أرسل ولده الأمير طاهر الذي تولى قيادة المواجهة مع العصفوريين في اليمامة عند منطقتي السلمية والخضرمة للثأر لمقتل جده يوسف بن صلاح والاستيلاء على نجد انتقاماً من العصفوريين[45].

ودارت معارك شديدة بين الطرفين حاول العصفوريون قطع الصلات ما بين الأب وابنه، وقد نجحت الخطة العصفورية في ذلك وتم طرد الأمير عبد المحسن من منطقة القرين والتجأ الى اليمامة، ومن ثم الذهاب إلى ابنه الأمير طاهر في نجد[46].

وعلى أثر هذا الانتصار الذي حفّز القوات العصفورية التي واصلت المواجهة مع قوات الأمير عبدالمحسن وابنه طاهر في اليمامة وحسم الأمر الى الأمير عبدالمحسن وابنه بعد أن تلقوا الدعم والمساعدة من آل عامر الجميليين وحقّقوا الأنتصار عام 696هـ/1296م[47]، وظل العصفوريون يواجهون التحديات الداخلية في إقليم نجد وبلاد البحرين ولكن لم يمنعهم من إقامة علاقات متشعبة مع بعض القوى ومنها المماليك في مصر.

- العصفوريون والمماليك في مصر

اتخذت العلاقة ما بين العصفوريين والمماليك في مصر طابعين الأول اقتصادي والثاني عسكري، فيما يتعلق بالجانب الاقتصادي هو أن كبار التجار في الأسرة العصفورية وجلبوا الخيول واللؤلؤ وبعض الأطعمة العراقية والهندية الى مصر، وقد حقّقت لهم هذه السلع أرباحاً خيالية، وفي الوقت ذاته حملوا معهم من مصر أنواع الحبوب والماشية والقماش المصنوع من القطن المصري والسكر، وغير ذلك من البضائع الرائجة في مصر[48].

استمرت تلك الفعالية التجارية بين العصفوريين وكبار تجار الدولة المملوكية لأكثر من رحلة في السنة، حتى أن الأمير العصفوري محمد بن أحمد العقدي ذهب بنفسه إلى مصر لتدعيم أواصر الصداقة مع السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، وهكذا انعكست تلك العلاقات التجارية على بنية العلاقات السياسية، لا سيما بعد ظهور مراكز قوى جديدة في الشرق الإسلامي تمثلت بالدولة المغولية[49].

استمرت العلاقات التجارية العصفورية-المملوكية في عهد السلطان ناصر محمد بن قلاون، وقد أزدادت الرحلات التجارية وتنوعت البضائع المتاجر فيها بين الطرفين[50].

انعكست العلاقات التجارية على مسار العلاقات العسكرية والسياسية، بعد أن أدرك السلطان الناصر محمد بن قلاون أن تلك العلاقة تعود عليه وعلى الدولة بالفائدة المرجوة، وعلى أثر ذلك قدِم العديد من أمراء وشيوخ آل عامر الى مصر ومنهم أولاده، مانع بن منصور وبعض الأسماء الأخرى منهم هلال بن أبي الحسين العامري العقيلي الذي وصف بأنه من كبار قومه، وكلبي بن ماجد العقيلي[51].

حدّدت الإدارة المملوكية في مصر دائرة لمتابعة شؤون القبائل عرفت بإسم «المهمندارية» والموظف المسؤول عنها يسمى المهمندار، وكانت مهمتها تنسيق العمل مع رؤساء القبائل ومنهم شيوخ قبائل العصفوريين الذين تم تصنيفهم على ثلاث مراتب (فئات)، الأولى يخاطبون في الرسائل بالمجلس السامي الأميري، والثانية يخاطبون في الرسائل بألقاب مجردة، والمرتبة الثالثة فيخاطبون بلقب مجلس الأمير[52].

لقد وظّف المماليك قدرات بني عصفور وإمكاناتهم لصالحهم في مواجهة بعض القوى المحلية الخارجة على سلطتهم أمثال آل مهنا وآل فضل الذين أعلنوا عصيانهم ضد الدولة المملوكية[53]، وبذلك تحقّق التفوق لصالح العصفوريين، الأمر الذي زاد من تعلق السلطان الناصر محمد بن قلاون بهم وشجّعهم في الوقت ذاته على إقامة تحالفات مع آل جروان وأصحاب الأحساء[54]، وبذلك يمكن القول إن المماليك نجحوا في كسب ود القبائل العصفورية.

- علاقة العصفوريين بملوك الطيبين في بلاد فارس

بمساندة الأيلخان كيخاتو أستطاع الأمير جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبي أن يحكم سيطرته على إقليم فارس وبعض سواحله بعد أن قدم أموالاً طائلة الى الخزينة الأيلخانية، واتخذ لقب «ملك الإسلام» وخطب الخطبة باسمه الملك المعظم فخر الدين أحمد بن إبراهيم الطيبي وأصبحت المنطقة التي تضم كل من العراق العربي والبصرة وواسط وشينكاره (في إقليم فارس) وشيراز الى ملكه بعد موافقة السلطان المغولي[56]، وبذلك يكون الطيبي قد سيطر على حلقة مهمة من حلقات النشاط التجاري في الشرق الإسلامي من بغداد وشيراز وكيش والبحرين حتى حدود الهند[57]، وكان حكمه فيها شبه مستقل.

أما الأمراء العصفوريون فقد خضعوا لسلطة ملك الإسلام خضوعاً سياسياً واقتصادياً، حيث دانت بلاد البحرين جميعاً بما فيها الأحساء والقطيف وأستغل ملك الأسلام ضعف العصفوريين فأدخل البحرين تحت سيطرته[58].

بعد وفاة جمال الدين إبراهيم الطيبي عام 706هـ/1307م، أعقبه ابنه الملك عزالدين عبدالعزيز وبقية أولاده يحكمون في مناطق مختلفة من الخليج لا سيما في جزيرة قيس وأستمر نفوذهم قائماً في البصرة وبلاد البحرين وأظهر العصفوريين تعاوناً معهم[59]، بسبب طبيعة الظروف التي مرت بها المنطقة لا سيما تلك الطموحات التي أبداها حكام هرمز.

توفي الملك عز الدين عبدالعزيز الطيبي عام 725هـ/1325م، وثار صراع داخلي بين أفراد الأسرة، الأمر الذي أضعفهم كثيراً وزال نفوذهم في إقليم فارس على يد محمود شاه أنجو الذي أسس إمارة جديدة حاكمة، في الوقت الذي سيطر أمير هرمز قطب الدين تهمتن الثاني على قاعدة الطيبين عام 731هـ/1330م في جزيرة قيس وهي القاعدة الرئيسة لنفوذهم السياسي والاقتصادي في الخليج العربي[60]، أما الأسرة العصفورية في أثناء هذه المدة فشهدت حالة من التمزق والانقسام بين أبناء الأسرة بسبب الحكم والسيادة[61].

ارتبطت العلاقة ما بين العصفوريين ومملكة هرمز[62] بدخول العصفوريين ضمن دائرة نفوذ قطب الدين تهمتن الثاني في نهاية العقد الثاني من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، وبذلك تكون الإمارة قد بدأت مرحلة جديدة من تاريخها، إذ أن صلة بلاد البحرين بمملكة هرمز استمرت بعد ذلك قرابة قرناً ونصف[63].

- أمراء الأسرة العصفورية

كان النظام القبلي هو الصفة الغالبة والمؤثرة في إدارة شؤون الإمارة وتخضع لزعيم القبيلة من بني عقيل وكان الشيخ عصفور بن راشد هو الذي كرّس أهمية هذا الدور القيادي الذي فرض سيطرته على الأحساء والقطيف وأوال[64]، وقد أشرك الشيخ عصفور معه في منظومة الحكم عدداً من رؤساء عشائر بني عقيل كنوع من المساندة من جهة وتدعيم صلات القربى ومن ثم كسب ودهم وولائهم من جهة ثانية.

بعد وفاة الشيخ عصفور بن راشد تولى بعده ابنه الشيخ مانع بن عصفور الحكم في الإمارة العصفورية وبسط نفوذه وسلطانه على بلاد البحرين وإقليم نجد[65]، إلا أن وفاته أثّرت على تماسك الأسرة العصفورية وحصلت خلافات عديدة بين أبناء الشيخ مانع، وظهرت زعامات محلية داخل الإمارة وكانت تلك هي خطوة لتفتيت الإمارة وتجزءتها، يقول القلقشندي بهذا الخصوص ((إن الكلمة قد صارت بينهم شتى والجماعة متفرقة))[66].

وزعت أدوار أمراء الأسرة العصفورية على وفق تسلسل أدوارهم على ثلاث فئات، الأولى: أولاد الشيخ مانع بن عصفور بن راشد وهما الشيخ محمد بن مانع بن منصور والشيخ حسين بن مانع بن عصفور، والمرتبة الثانية أولاد الشيخ مانع أيضاً وهم بدران بن مانع بن راشد والشيخ راشد بن مانع بن راشد، أما المرتبة الثالثة، أحفاد الشيخ مانع بن عصفور بن راشد وهم زيد بن مانع بن منصور والشيخ عظيم بن حسين بن مانع بن عصفور والشيخ معمر بن مانع بن عصفور والشيخ هلال بن يحيى بن معمر بن مانع بن منصور[67].

- نهاية الدولة العصفورية

بعد أن فرض سعد بن مغامس سيطرته على الأحساء عام 700هـ/1300م، دخل في مواجهة مع جروان بن مالك بن عامر عام 705هـ/1305م، ثم مع ابنه الناصر وحفيده إبراهيم بن ناصر بين جروان، ثم استغل سعيد بن مغامس حالة تفوق أمراء الدولة العصفورية واستطاع إخراجهم من بلاد البحرين ونجد بعد أن تحالف مع أعداء العصفوريين من آل يزيد وهم أولاد وأحفاد مالك بن سنان، مثل الأمير عبد المحسن وابنه الأمير طاهر حيث بدأ الأمير عبدالمحسن الهجوم على العصفوريين من جهة الغرب بينما قاد الشريف مغامس الهجوم عليهم من الشمال في معركة عرفت باسم (الرقيقه) وأنتصر فيها الشريف مغامس وأخذ بلاد البحرين من العصفوريين، وعيّن الأمير طاهر بن المحسن والياً على القطيف وتابع الى الشريف سعد بن مغامس إلى أن طرد منها على يد الأمير موسى بن ناصر بن بطال قائد جيوش جروان عام 706هـ/1306م[69].

حصل تحالف ما بين قبائل جروان والعصفوريين عرف بإسم تحالف الأحساء الذي استطاع الإيقاع بالأمير سعيد بن مغامس عام 706هـ/1306م، وأقام دولة بني جروان[70]، في بلاد البحرين بمشاركة العصفوريين معهم في الحكم[71].

وإجمالاً يمكن بيان أهم الأسباب التي ساهمت في سقوط الدولة العصفورية التي حكمت بلاد البحرين قرابة قرن ونصف القرن من الزمن هي:

أولاً: انفجار النزاعات حول السلطة خلال مدة حكم أبناء الشيخ مانع بن عصفور في النصف الأول من القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي[72].

ثانياً: ظهور القوى البحرية والتجارية في مياه الخليج العربي كالطيبين في فارس وجزيرة قيس ومملكة هرمز[73].

ثالثاً: خشية الحكام بعضهم بعضاً والتنافس حول السلطة ربما دفعهم الى التسابق في طلب الدعم الخارجي من تلك القوى التي رحّبت بذلك لبسط نفوذها على بلاد البحرين.

رابعاً: كانت بعض القوى التي تعامل معها العصفوريين، مصدر تهديد لوجودها ولازدهارها الاقتصادي، على الرغم من أن أمراء الدولة العصفورية لم يقيموا أية علاقات سياسية معهم[74]، ونتيجة لذلك حصلت انتكاسة كبيرة لإمارة العصفوريين عندما اقتطع جروان المالكي جزءاً من دولتهم

واستقل بها عن طريق استخدام القوة العسكرية، في الوقت ذاته أقتسم فيروز شاه الجزء الأعظم منها واستمر سلطانه فيها وفي الأحساء والقطيف وهرمز حتى عام 819هـ/1417م، ثم أعقبه ابنه سيف الدين مهار، الذي استمر حكمه الى عام 840هـ/1436م[75].

على الرغم من أن بني عصفور وبني عامر قد فقدوا سلطتهم السياسية، إلا أنهم ظلوا محتفظين بنفوذهم الاقتصادي الواسع ويتمتعون بمكانة طيبة اجتماعية واقتصادية مرموقة في جزيرة العرب حتى اليوم، ومع ذلك كانوا يتحينون الفرص المناسبة لاسترجاع سيطرتهم ومجدهم ومكانتهم السياسية، وحصل لهم ذلك أخيراً على يد أحد أفخاذ قبيلتهم من بني جبر الذين تمكنوا من استرجاع السلطة من بني عامر على بلاد البحرين في حدود منتصف القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي واستمرت قرابة نصف قرن[76].

أما ذرية الأمير الشيخ عصفور فقد نزحوا الى جزيرة أوال (البحرين)، ثم استوطنوا قرية (الدراز) بوصفه مركزاً لنشاطهم الاقتصادي وظلوا محتفظين بمكانتهم الاجتماعية والقبلية حتى اليوم.

ثالثاً: الدولة الجبرية

ينتسب بنو جبر أو الجبور الى السلطان زامل بن حسين بن ناصر بن جبر، ويرجع نسبهم إلى بني عقيل بن عامر ربيعة بن نزار، استوطنت هذه القبيلة في بلاد البحرين (شرق الجزيرة العربية)، وكان أغلب سكانها يعملون في الزراعة[78]، شغلت مساحات جغرافية شاسعة امتدت من الكويت شمالاً حتى إقليم ظفار جنوباً، فضلاً عن احتوائها على أجزاء عديدة من جزيرة العرب[79].

أما ظروف قيامها فتعود بدايتها إلى انهيار الدولة الجروانية[80]، إذ استطاع بنو جبر فرض سيطرتهم على بواديقليم إقليم بلاد البحرين لا سيما الأحساء والبوادي التابعة لها عام 820هـ/1417م[81]، أو لربما قبل هذا التاريخ[82].

تزايد نفوذ بني جبر في بلاد البحرين ودخل نفوذهم بادية القطيف والمناطق المجاورة لها وسعى إبراهيم بن ناصر بن جروان آخر ولاة بني جروان من القبض على السلطان سيف بن زامل الجبري الذي كلف من قبل أبيه بالسيطرة على القطيف، إلا أن السلطان سيف استطاع مباغتة إبراهيم الجرواني وقتله والفتك بمن معه، وبذلك دخل سيف بن زامل القطيف دخول الفاتحين[83]، في عهد والده السلطان زامل بن حسين الجبري[84].

استطاع الشيخ زامل بن حسين الجبري فرض سلطانه على كل منطقة الأحساء والقطيف، وقد رافقه في ذلك أيضاً بسط نفوذه على أجزاء واسعة من نجد، وقد يكون لانتشار قبائل بني عامر وتزايد نفوذها فيها له علاقة وثيقة في تحقيق هدفه بالسيطرة على تلك المناطق[85]، فضلاً عن جهوده الكبيرة في تعزيز الصلات والروابط ما بين البدو والحضر في كل من نجد وبلاد البحرين، وهذا الأمر لا شك أنه هيّأ له الفرصة لتكوين قوة خاصة الى جانب قوته القبلية التي يمكن الركون إليها وأن تدين بالتبعية المباشرة، وتمثلت تلك القوة بأعداد من العاملين في السفن وفي مغاصات اللؤلؤ ومصائد الأسماك، فضلاً عن الرقيق الأبيض والأسود، المتوافر في أسواق الخليج العربي، كل هؤلاء عناصر يمكن الاستفادة منها في تكوين مثل هذه القوة الخاصة البعيدة عن المؤثرات والولاءات القبلية[86].

ساهمت حالة الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي في المناطق المجاورة للإمارة الجبرية[87] إلى حد ما في إنعاش حركتها التجارية ونشاطها الاقتصادي، وأصبحت التجارة تتجه نحو موانيء البحر الأحمر، لا سيما ميناء جدة بدلاً عن موانئ الخليج العربي[88].

إن تحول طرق التجارة عبر موانيء البحر الأحمر ساعد على تعزيز قدرات الإمارة الجبرية وأصبحت مسؤولة عن حماية وخفارة القوافل التجارية البرية بين البحرين والحجاز فزاد من قدرتها وإمكاناتها الاقتصادية، كما مكنها من تعميق صلات أمرائها بالقبائل المتواجدة على الطريق التجاري لا سيما في اليمامة ونجد مما سهل من عمليات توسعها في الداخل(89).

بدأ توسع نفوذ الجبريين في إقليم نجد بعد أن قاد السلطان زامل بن حسين بن جبر حملتين على قبائل الدواسر وآل عايذ في واحة الخرج وذلك في عام 851ه-852هـ/1447م-1448م، إذ تمكن من هزيمتهم وسحق جموعهم وتفريقهم(90)، ثم عاود هجومه على قبائل الفضول عام 855هـ/1451م وهزمهم، ثم عزّز سيطرته على نجد عام 866هـ/1461م، وقام بعملية رابعة على نجد أخضعها بصورة كاملة، ويظهر أن أسباب تلك الحملات هدفها تأمين طرق القوافل التجارية والمحافظة على سلامتها في نجد من جهة والاستفادة من البدو في إسنادهم وزجهم في المعارك التي كانوا يخوضونها ضد خصومهم من القبائل الأخرى(91).

خلف السلطان زامل ثلاثة أبناء هم كل من هلال وسيف وأجود والأخير أدى دوراً بارزاً في عهد والده مما حمل بعض الباحثين المحدثين الذين يعدونه هو مؤسس الإمارة الجبرية، خلف سيف والده في إدارة الدولة (92)، ولكن عهده لم يدم طويلاً ويبدو أنه كان الساعد الأيمن لوالده، وإن معظم انجازاته وحروبه قد خاضها في عهد حكم والده، وبعد وفاة السلطان سيف، تقلد أخوه أجود شؤون الإمارة، وشهدت في عهده الازدهار والتوسع(93)، مستفيداً من خبرته في الحروب التي أشترك فيها في زمن والده وأخيه فيما بعد، ومارس السلطة فبرزت مواهبه العسكرية والسياسية وأكتسب شهرة واسعة، مما أهلته لتولي إمارة الجبور بدون منازع، ولا شك أن طبيعة الظروف التي كانت تمر بها منطقة الخليج العربي أنذاك من صراعات مع القوى الإقليمية قد أهلته بأن يؤدي مثل هذا الدور القيادي(94).

وعلى الصعيد الداخلي قاد السلطان أجود بن زامل الجبري عدداً من الحملات على قبائل البوادي وزعب والعوازم واللهابه عام 879هـ/1474م وفي عام 887هـ/1482م قاد حملة عسكرية لتأديب قبائل الفضول في واحة الخرج بإقليم نجد وتكلّلت الحملة بالنجاح، وقد أعقبها بحملات متعاقبة عامي 890هـ/1485م، 893هـ/1488م(95).

ثارت قبائل الدواسر في عام 900هـ/1494م مرة أخرى على السلطان أجود بن زامل، الذي هيّأ قوة كبيرة في الحضر والبادية لمهاجمتها في عقر دارها وأغتنم منهم الكثير وقتل عدداً كبير من رجالهم، ووضع حداً لما كانت تقوم به من أعمال تعرض للقوافل التجارية القادمة من الأحساء[96]، وكذلك تعرضهم لقوافل الحجاج المتوجهة الى مكة، وهكذا استمرت الحملات العسكرية التي قادها السلطان أجود بن زامل على القبائل ومنها الدواسر حتى وفاته عام 902هـ/1496م[97].

خلف السلطان أجود أربعة من الأبناء، هم سيف ومحمد وعلي وزامل[99]، أذ تولى محمد بن أجود شؤون الإمارة ولقب في عام 912هـ/1507م بلقب سلطان البحرين والحسا والقطيف، وكان على جانب كبير من القوة والإبداع، حيث قاد حملة كبيرة قدرت بخمسين ألف رجل وسار بها باتجاه مكة، وكان أجراؤه ذلك بسبب طلب الشريف بركات أمير مكة نجدته ومساعدته في حفظ الأمن والنظام فيها أو منع التجاوزات التي تقوم بها بعض القبائل البدوية، وهذا الأمر لا شك أنه أظهر القوة الضاربة والنفوذ الواسع للإمارة الجبرية في أجزاء متعددة من الجزيرة العربية[100].

تزامنت مدة حكم السلطان محمد بن أجود مع دخول البرتغاليين منطقة الخليج العربي وانتشارهم في البحار العربية وما نتج عنه من اضطراب في النشاط التجاري في هذه المياه، فقد استطاع البرتغاليون في نهاية القرن الخامس عشر الوصول إلى مناطق غرب الهند، وكانت دوافع سلوك هذه المغامرة كبيرة هي تطويق العالم الإسلامي من جهتي الغرب والشرق ومن ثم توجيه ضربة مميتة له عن طريق انتزاع احتكاره لتجارة المحيط الهندي وحرمانه مما تدر عليه هذه التجارة من أرباح طائلة[101].

تأججت في نفوسهم روحاً صليبية حاقدة على المسلمين ورثوها من تاريخهم المشحون بالتآمر والخداع، وكان النجاح في تحقيق استراتيجيتهم هي بداية أفول السيادة الإسلامية وانتقالها إلى أوروبا[102].

أستخدم البرتغاليون وسائل شتى وأعمال عنف بشعة في مواجهة السكان المحليين، فضلاً عن أعمالهم التخريبية وردم الآبار المائية ومحاولة تعطيل عمل الموانيء في الحجاز واليمن، ونهب بعض مدن الساحل العماني مثل قلهات والقريات ومسقط وخورفكان[103]، كما استولوا على هرمز لمدة قصيرة.

تصدى سلاطين الدولة الجبرية للبرتغاليين وقد واجهوهم بحملة أمام صحار عام 912هـ/1507م قوامها 700 رجل فضلاً عن مواجهتهم عند ميناء مسقط الذي حاصره الأسطول البرتغالي في تلك الأثناء[104].

على الرغم من مواقف سلاطين الجبور أزاء الهجوم البرتغالي إلا أن أهل صحار لم يظهروا ارتياحهم لهم ورفضوا مساعدتهم وعدّوا ذلك منافياً لتبعيتهم الى ملك هرمز الذي رفض نجدتهم[105]، لذلك كان ميلهم للدخول في طاعة ملك البرتغال في المقابل فإن القائد البرتغالي البوكيرك عمل على إقامة علاقة حسنة مع بني جبر بهدف كسبهم وقدّم لهم الهدايا والهبات من آنية فضية وسلاسل ذهبية، وكانت تلك هي المحاولة الدبلوماسية الأولى التي حاول بها البرتغاليون إقامتها مع سلاطين بني جبر، بعد أن استولى البرتغاليون على حصن صحار وخضعت المدينة لملكهم عام 913هـ/1507م[106].

لجأ البرتغاليون الى أساليب الضغط على سلاطين الجبور عن طريق ضرب تجارة بلاد البحرين فقاموا عام 915هـ/1509م بنهب سفينة في مياه الخليج العربي كانت قادمة من جزيرة البحرين وعلى ظهرها حمولة ثمينة من اللؤلؤ، وفي الوقت ذاته واجه سلاطين الدولة الجبرية ضغوط مملكة هرمز، ووّجهوا حملة عسكرية استهدفت سيطرتهم على البحرين عام 917هـ/1511م، إلا أن القوات الجبرية استطاعت مواجهتها بعد مدة احتلال قصيرة[107].

في عام 919هـ/1513م أصدر ملك البرتغال مانؤيل الأول أوامره لغزو البحرين ويظهر أن هناك أسباب ودوافع عديدة يمكن سياقها في هذا الاتجاه على النحو الآتي:

أولاً: توقف سلاطين البحرين عن دفع عائدات بعض المزارع والبساتين التابعة الى ملك هرمز وفقاً لشروط الاتفاقية المعقودة بين ملك هرمز وسلاطين الجبور في أثناء مدة حكم السلطان مقرن الجبوري، حيث تذرّع توران شاه أمير هرمز بأن السلطان مقرن لا يدفع المستحقات التي بذمته وبذلك فإنه لا يستطيع أن يدفع الضرائب للبرتغاليين.

ثانياً: طبيعة سياسة البرتغاليين ضد القوى العربية في الخليج العربي بعد احتلالهم هرمز التي كانت تقوم بالأساس على تجريد المنطقة من كل سلاح كي لا يستخدم ضدهم، لذلك فإن ما قام به السلطان مقرن في بناء قوته الضاربة وتطويرها ودعمها وأسنادها بالأسلحة النارية الحديثة بالتعاون مع العثمانيين زاد من قلقهم.

ثالثاً: الأسباب والدوافع الاقتصادية التي تحددت بتجارة الخيول العربية الأصيلة التي كانت تدر أرباحاً وفيرة على إمارة الجبور وكانت تلك الخيول تصدّر عن طريق موانئ (ظفار بعمان الساحل) وهذا ما حرّك أطماع البرتغاليين، فضلاً عن تجارة اللؤلؤ البحريني النادر والسيطرة على مغاصاته حول الجزر البحرينية وما تدره هذه التجارة من أرباح كبيرة لذلك فليس من مصلحة البرتغاليين أن تبقى تلك التجارة بيد أبناء البحرين[108].

رابعاً: خشية البرتغاليين من خطر العثمانيين على أملاكهم في المنطقة الخليجية.

أرسل القائد البرتغالي أربع سفن كانت مهمتها استطلاعية إلى جزر البحرين تمهيداً الى مهاجمتها، ولكن يظهر أنه كان متوجساً من قوة السلطان الجبري وحصناته الدفاعية، لذلك فإن حملته المرتقبة لا تخلو من الصعوبات، وقد حاول تنفيذ ما خطّط له إلا أنه تراجع حتى توفي القائد البرتغالي البوكيرك في كانون الثاني عام 921هـ/1515م ولم يحقق هدفه في السيطرة على البحرين، لذلك فشلت المحاولات البرتغالية كما فشلت كل المحاولات التي قام بها ملك هرمز في السيطرة على البحرين بسبب حسن إدارة سلاطين الإمارة الجبرية وقوتها في فرض سيطرتها على المناطق الواقعة تحت سيطرتها في البحرين وعمان وقسم من بلاد الحجاز[109]، لذلك لم يبقى أمام هذه القوى المعادية للإمارة الجبرية إلا أن تعقد تحالفاً بينهما، وهذا ما حصل فعلاً في الاتفاق الذي جرى بين البرتغاليين وملك هرمز على القيام بغزو البحرين، فحشّدت القوات الهرمزية في جزيرة هرمز وبعض القبائل والفرس والمرتزقة إلى جانب القوات البرتغالية المعزّزة بقوة الأسطول البحري التابع لهم، منتهزين فرصة غياب السلطان مقرن بن زامل الجبري عن بلاده وذهابه لأداء فريضة الحج عام 926هـ/أيلول 1520م[110].

قام الشيخ حميد ابن أخت السلطان مقرن حاكم البحرين والقطيف بعد الهجوم البرتغالي الهرمزي المشترك، وأبدى الجبور مقاومة عنيفة ساعدتهم في ذلك الرياح الشديدة المعاكسة لحركة السفن البرتغالية، ومن ثم أدى الى أحباط تلك الحملة، الأمر الذي تطلب من السلطان مقرن العودة السريعة إلى بلاده والتهيؤ لمواجهة الهجوم المرتقب[111].

عمل السلطان مقرن التحضيرات والاستعدادات لمواجهة البرتغاليين والهرامزة فبنى أسطولاً مكوناً من سفن عدة واستعان من أجل ذلك بعمال مهرة من الأتراك والفرس والعرب، كما جنّد المقاتلين الذين يجيدون الرمي بالسهام والبنادق، فضلاً عما قام به من تحصين الأسوار في البحرين والقطيف وزودها بالمدافع، ووزع قواته على مواضع مختلفة وحدد لها القادة المدربين وذوي الخبرة الميدانية، وبذلك يكون أجمالي عدد القوات الجبرية 11 ألف مقاتل مزودين بمختلف الأسلحة فضلاً عن 300 فارس و400 رامي سهم من الفرس و(20) جنديلً من الأتراك من حملة البنادق[112].

حصل الهجوم المرتقب في 10 شعبان عام 927 هـ/1521م من قبل القوات البرتغالية والهرمزية على القوات الجبرية في البحرين والقطيف[113]، وجرت المعركة على مرحلتين الأولى تقدم القوات الهرمزية والثانية مساندة القوات البرتغالية، فكان تصدي الجبور ومقاومتهم عظيمة بقيادة السلطان

مقرن الذي أستبسل في قيادة المعركة على الرغم من شدة حرارة الجو من جهة وغطرسة خصمه واستمرار زخم قواته في المعركة من جهة ثانية، حتى أصيب بجرح بليغ في ساقه على أثر طلق ناري، نقل على أثره إلى أحد المساجد لتلقي العلاج إلا أنه توفى هناك متأثراً بجراحه، ولكن المعركة لم تتوقف بين الطرفين وقاد القوات الجبرية الشيخ حميد ابن أخت السلطان مقرن إلا أن طبيعة المواجهة الجبرية تراجعت على أثر سماع خبر وفاة السلطان مقرن وكثرة عدد القتلى الذين فقدوهم فضلاً عن تداعيات ومؤثرات الظروف الطبيعية الحارة التي واجهت المقاتلين(114)، أمر الشيخ حميد قواته بالانسحاب الى القطيف ونقل جثمان السلطان مقرن لدفنه في الأحساء، الا أن قائد القوات الهرمزية ريس شرف الدين أمر قواته بضرورة الحصول على جثة السلطان مقرن وقد حصل عليها فعمل على تمزيقها وحمل رأسه معه الى ملك هرمز(115).

إلا أن المؤرخ ابن أياس ذكر أن السلطان مقرن قد وقع حياً في يدي البرتغاليين عندما كان عائداً من الأراضي الحجازية وإنه أي السلطان قد عرض عليهم ألف دينار كفدية له ليطلقوا سراحه، إلا أن البرتغاليين أو كما يدعوهم ابن أياس (الفرنج) قد رفضوا ذلك وقتلوه، وتلك الواقعة كانت من أشد الحوادث في الإسلام وأعظمها(116).

ولكن يظهر أن هذه الرواية ضعيفة السند وغير مؤكده لتناقضها مع تسلسل الأحداث التاريخية أولاً، لبعد الراوي ابن أياس عن ميدان المعركة التي دارت في الجزيرة العربية، وقد يكون أن ابن أياس قد تلقى أخباراً عنها بوساطة الحجاج المصريين القادمين من الحجاز بعد أن أدوا فريضة الحج عام 929هـ/1522م(117).

على أثر انسحاب القوات الجبرية دخلت القوات البرتغالية والهرمزية الى البحرين وعاثوا الفساد والنهب في مدينة المنامة، ثم بعد ذلك ضمت الجزر بكاملها الى سلطة ملك هرمز وأحرقوا المراكب الجبرية الحربية منها والتجارية جميعها واحتلوا القصر السلطاني أيضاً(118)، وحققت القوات البرتغالية نصراً ليس سهلاً بالمقاييس العسكرية والتعبوية، لذلك منح ملك البرتغال يوحنا الثالث وسام النصر للقائد العسكري الميداني البرتغالي (أنطونيو كوريا) وسمح له أن يتقلده على ذراعه ويضاف اسم البحرين إلى اسمه، تكريماً له، كما نقشت صورة رأس السلطان مقرن الجبري على درع هذا القائد البرتغالي، ثم صممت مسلة تذكارية تخلّد هذه المعركة فيما يخص البرتغاليون(119).

وهنا لا بد من تقديم عرض تحليلي لبيان الأسباب التي أدت الى خسارة القوات الجبرية في هذه المعركة وهي على النحو الآتي:

أولاً: فاعلية سلاح المدفعية البرتغالية التي استطاعت من تدمير أهداف حيوية للقوات الجبرية لا سيما أنها عملت فتحات في أسوار القلعة، ومن ثم فإن هذا الأمر زعزع الدفاعات الجبرية[120].

ثانياً: صعوبة المناورة فيما يخص القوات الجبرية لكونها أتخذت مواقع دفاعية في منطقة محصورة بسلسلة من التضاريس الأرضية التي لا تساعد على المناورة.

ثالثاً: تفوق البحرية البرتغالية بعدد السفن فضلاً عن أمدادهم بالسفن التعزيزية من ملك هرمز، ثم الدور الكبير الذي قام به المرشدون والأدلاء الهرامزة الذين يمتلكون خبرة كبيرة في شؤون البحر، لذلك من الطبيعي أن تكون لهم معرفة مسبقة بممالك البحرين وممراتها الحيوية[121].

رابعاً: استغلال فرصة غياب السلطان مقرن الجبري وذهابه الى الحج عام 929هـ/1521م الذي أفرز خللاً وإرباكاً في تنفيذ الخطط الدفاعية للقوات الجبرية[122].

خامساً: قلة خبرة الجنود وقادة الجيش على الرغم من ما يمتلكونه من شجاعة وعزيمة عاليتين، لذلك فإن هذه المعركة شكلت تحولاً سوقياً في المفهوم العسكري من الخطط الإستراتيجية العسكرية القديمة إلى خطط عسكرية حديثة.

سادساً: عدم توافر العمق البشري لقوة الدفاع الجبرية في البحرين كي تلجأ إليه وقت الحاجة لإضافة قوات ساندة بهدف مواصلة المواجهة كما حصل في المعارك السابقة في الأحساء ونجد الداخلية[123].

سابعاً: إصابة السلطان مقرن وخروجه من المعركة مبكراً كان له وقع مؤثر في معنويات الجنود والقادة إذ تراجعت قدراتهم على المواجهة بسبب ارتباطهم القبلي بزعيمهم روحياً وفكرياً وعاطفياً مما جعلهم يخسرون المعركة، والانسحاب الذي أمر به الشيخ حميد إلى القطيف[124].

ثامناً: طبيعة التكتيك الذي أستخدمه رماة السهام الهرامزة الذين ركّزوا على القادة الميدانيين وتم قتل العديد منهم، وهذا الأمر ساعد على تفكيك حلقة القيادة الجبرية وأتاح فرصة التفوق للبرتغاليين والهرامزة[125].

أستثمر الوزير شرف الدين وزير مملكة هرمز ظروف انتصاره مع البرتغاليين في المعركة الفاصلة السابقة وقرّر التقدم لمساندة البرتغاليين للسيطرة على القطيف عام 927هـ/1521م فدخلها وأقام فيها أياماً عدة وحصّنها وترك فيها حامية تابعة الى ملك هرمز، وأستغل الوزير شرف الدين ظروف توافقه مع القائد البرتغالي (أنطونيو كوريا) وطلب منه إعادة ضم البحرين لنفوذ ملك هرمز ثانية، مؤكدا له عندما يحصل على ذلك سيضمن للبرتغاليين إيرادات مالية عالية من موارد البحرين، لذلك وافق القائد البرتغالي على ذلك، وتم ترك حامية من (100) رجل معظمهم من الفرس وهذه القوات تابعة إلى ملك هرمز بشكل مباشر وتتقاضى رواتبها من الخزينة الهرمزية[126].

استطاع البرتغاليون أن يخترقوا القوة العربية في منطقة الخليج العربي ويتحالفوا مع تلك التي تحقق مصالحهم، لذلك تشتّت شمل أسرة أمراء الجبور وأنفصل كل واحد منهم في منطقة محددة، وهذا الأمر لا شك هو الذي أسرع في انهيار حكم هذه الأسرة.

- نهاية سلطة الدولة الجبرية

إن استشهاد السلطان مقرن الجبري قد ترك فراغاً كبيراً في إدارة الدولة إذ عجز السلاطين الذين أعقبوه أن يشغلوه، وقد ظهر محوران متنافسان حول الزعامة، الأول بيد أولاد أجود بن زامل الجبري وأحفاده في الأحساء، والمحور الثاني أولاد هلال بن زامل بن حسين الجبري وأحفاده[127].

جاءت نهاية الجبور السياسية في منطقة نجد على يد قبيلة بني لام أحدى أقوى القبائل العربية في نجد وقد انتهزت هذه القبيلة فرصة تخبط أمراء الجبور ونزاعهم الداخلي فيما بينهم، وحاولت إزالة سلطتهم في المنطقة بعد أن عقدت تحالفاً مع بعض بطونها الأخرى، وتحقّق لهم ذلك وأزاحوا الجبور من إقليم نجد عام 935هـ/1529م[128].

تشتّت قوة البيت الجبري على أثر النزاع الأسري المتواصل حتى آلت إلى السلطان علي بن أجود الذي كرس نفوذه على الأحساء وتوابعها وعلى إقليم نجد، إلا أن حكمه لم يستمر إلا شهراً واحداً فقط[129]، وأعقبه السلطان ناصر بن محمد وبقي لمدة ثلاث سنوات 928هـ/1522م-931هـ/1525م إلا أن تلك المدة من حكمه تميزت بالضعف والفوضى والإفلاس الاقتصادي[130]، الأمر الذي سبّب كره السكان له وعملوا على رحيله، لذلك أضطر السلطان ناصر بن محمد التنازل الى السلطان قطن بن علي بن هلال بن زامل مقابل مبلغ من المال[131]، وبتولي السلطان قطن بن هلال إمارة الجبور عام 932هـ/1526م تكون السلطة قد انتقلت من بيت السلطان أجود بن زامل إلى بيت أخيه هلال بن زامل، وهم الذين تركّز نفوذهم في عمان الشمالي ولم يستمر في الحكم سوى سبعة أشهر فقط، اضطر للتنازل الى عمه غضيب[132] بن زامل بن هلال الجبري عام 933هـ/1527م[133].

ومن نافلة القول إن حالة الاضطراب والتداعي التي عصفت للبيت الجبري (بيت أجود بن زامل) جعلهم يبحثون عن زعيم قوي ينتشل بلادهم من حالة الفوضى والارتباك تلك، فاتجهت أنظارهم إلى الشمال باتجاه البصرة حيث كان الشيخ راشد بن مغامس[134] بن صقر من آل فضل زعيم عشائر المنتفك ذات النفوذ الواسع في شمال الخليج العربي[135] الذي نجح في انتزاع البصرة من سيطرة المشعشعين[136]، في حدود العقد الثاني من القرن السادس عشر، ومن ثم كون له إمارة قبلية قوية هناك، وكان يراقب عن كثب تطورات الأوضاع في البحرين وما تواجهه الأسرة الجبرية من تحديات مصيرية، إلى جانب ذلك فإن مصالح أمارته الاقتصادية وأمن قوافل الحجاج الكبيرة كانت

تنطلق من مدينة البصرة مارة بأطراف بادية البحرين، ولا بد أن الشيخ راشد بن مغامس قد وجد أن الظروف مؤاتية له جداً لتحقيق طموحه في توسيع أمارته وضم البحرين إليها وهو مطمئن إلى حد ما،إلا أنه لن يلق مقاومة تذكر في تحقيق هدفه[137].

إن طلب البيت الجبري مساعدة الشيخ راشد بن مغامس كانت فرصة مناسبة له كي يمد نفوذه الى البحرين والسيطرة عليها عام 931هـ/1525م، ثم فرض سيطرته على منطقتي الأحساء والقطيف وأعمالهما[138]، قرابة عشرين عاماً وأتخذ لقب سلطان البصرة والأحساء والقطيف[139]، وباستيلاء الشيخ راشد بن مغامس على هذه المناطق لم يبق لدولة الجبور أي سلطان سياسي في بلاد البحرين[140].

أما أسرة هلال بن زامل في عمان الداخل فقد دخلت في صراعات وتحالفات مع القبائل العمانية المتباينة المتقلبة بين حين وآخر بين قبائل الغفارية والهناوية والإمامة الأباضية[141]، وكان هذا الأمر عاملاً **مضافاً إلى** العوامل التي سارعت في انهيار الدولة الجبرية، تزامنت تلك عوامل ضعف الدولة **الجبرية تلك وظروف** تزايد النفوذ العثماني في المنطقة، إذ سلّم الشيخ راشد بن مغامس منطقة الأحساء **اليهم وذلك في حدود** عام 957هـ/1551م، ثم ولى الأتراك محمد باشا الملقب (فروخ)، ثم علي بن أحمد **البريكي**، وبذلك بدأت سيطرة العثمانيين المباشرة ودخلوا في صراع مع البرتغاليين في شبه الجزيرة العربية والخليج العربي[142].

وهناك رأي آخر بخصوص استيلاء العثمانيين على الأحساء مفاده أن العثمانيين لم يتسلموا الأحساء من آل مغامس بل استلموها من آل جبر، ونشير هنا الى ما أورده المؤرخ المحامي عباس العزاوي،الذي قال: «آخر حكام آل جبر في الأحساء هو منيع بن سالم حيث قال عن آل منيع هؤلاء عبيد ورومي أبناء مهنا بن علي بن يوسف بن محمد بن جبر بن منصور ومنيع هذا كان حاكم الأحساء والقطيف ونجد وهو آخر أمرائهم هو الذي انحدر إلى العراق وسكن الشامية عند عشائر الأجود»(143)، وحاول سلاطين الجبور المتبقين إعادة سيطرتهم على الأحساء والبحرين مرة أخرى حتى دخول العثمانيين عام 963هـ/1555م[144].

هكذا انهارت الدولة الجبرية بوصفها قوة سياسية في المنطقة فشأنهم شأن بقية القبائل العمانية العديدة التي ليس لها تأثير في الحياة السياسية في الجزيرة العربية[145]، وبذلك انطوت صفحة من تاريخ قبائل الجبور بني عامر الذين كانوا خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر أكبر قوة سياسية على امتداد شبه الجزيرة العربية.

رابعاً: مملكة هرمز[146]

جزيرة هرمز أو جزيرة (جيرون)، تقع في وسط مضيق باب السلام (هرمز)، تبعد بمسافة 18كم عن مدينة جمبرون (بندر عباس)، أمتدت بأطراف مترامية من شواطىء الخليج العربي وجزره، فشملت عمان حتى القطيف شمالاً ودخلت جزر البحرين في تبعيتها وضمت قسماً كبيراً من الساحل الشرقي فضلاً عن عمقها الكبير داخل الجزيرة العربية حتى مشارف عدن[147]، وبذلك بسطت نفوذها على الساحل العربي من القطيف شمالاً حتى رأس الحد جنوباً، ومن ممتلكاتها قلهات وقريات وصور وخور فكان وصحار ومسقط ورأس الحد والأحساء[148].

وجدير بالإشارة التمييز بين مملكة هرمز القديمة[149]، التي كانت قائمة في البر الإيراني منذ القرن العاشر الميلادي حتى أوائل القرن الرابع عشر الميلادي وبين مملكة هرمز التي نشأت في جزيرة جبرون عند مدخل الخليج العربي (موضوع الدراسة الحالية)، فقد تحدث عنها ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري/القرن الثاني عشر الميلادي قائلاً: «هرمز فرضة فارس وكرمان وملتقى تجارها وميناؤها الرئيس، إليها ترفأ المراكب ومنها تنقل أمتعة الهند إلى كرمان وسجستان وخراسان»[150].

وفي أعقاب الفتح الإسلامي لبلاد فارس أخذت مدينة هرمز تصطبغ بصبغة عربية خالصة، وذلك على أثر هجرة أعداد كبيرة من القبائل العربية من عمان ونجد واليمن إليها لقربها من سواحل الخليج العربي واتخاذها قاعدة تجارية يوجهون منها سفنهم إلى سواحل الهند والبحر الأحمر وشرق أفريقيا وبلاد الصين[151].

ازدادت أهمية هرمز بعد التدهور الذي أصاب ميناء (سيراف) من جهة وزيادة نسبة الاستقرار والاستيطان العربي في هرمز من جهة أخرى، فبدأ يحكم هذه الجزيرة سلسلة من الأمراء العرب وفي مقدمتهم الملك محمد الذي استطاع السيطرة على الأراضي الواقعة على الساحل الشرقي، وقال إنها أراض تابعة الى أجداده وقد ضاعفت بسبب إهمال بعضهم وهجرة السكان منها فأصبحت أرض قاحلة غير مثمرة، لذلك قرّر الذهاب إليها بعد أن أسس ميناء قلهات،ثم وصل مدينة رأس جسك ثم ضرب العملة باسمه لذلك أطلق عليه اسم محمد درهم[152].

لم تعمر هرمز الساحلية طويلاً بسبب الغزوات المدمّرة التي شنها المغول على المدينة في القرن الثامن الهجري/الثالث عشر الميلادي، لذلك قرّر حكام هرمز العرب وضع حد لهذه المتاعب وذلك بنقل نشاطهم الى جزيرة جبرون التي تبعد خمسة عشر ميلاً عن السواحل المواجهة للموقع القديم،

حيث أنشأوا لهم مركزاً جديداً أطلقوا عليه اسم مدينتهم الأولى (هرمز) الجديدة ومنه أخذت التجارة تتدفق بصورة منتظمة وسريعة[153].

لا شك أن الموقع الاستراتيجي الذي تميزت به هرمز جعلها تتحكم في المضايق المؤدية الى المياه الداخلية مما أتاح فرصة تنشيط حركة التجارة الشرقية مع العراق وبلاد فارس والجزيرة العربية، أذ لم تكن مركزاً رئيساً للسلع الشرقية وتوزيعها فحسب، بل هي نقطة رئيسة للتجارة المحلية في الخليج العربي[154].

حضيت هرمز باهتمام الرحالة الأجانب فقد زارها الرحالة الايطالي لودفيكو فارتما (Verthema) قبل مجيء البرتغاليين بمدة قصيرة وقدّم لها وصفاً دقيقاً بقوله: "إنها مدينة لا ثانية لها في الموقع الممتاز وكثرة اللآلئ...فيها ما يقرب من ثلثمائة سفينة تأتيها من بلاد عدة وفيها حوالي أربعمائة تاجر ووكيل يمكثون على نحو مستمر لنقل البضائع التي تأتي من المناطق الأخرى، مثل الحرير واللؤلؤ والتوابل»[155].

وطبقاً إلى ما جاء في وصف الرحالة المذكور فإن هرمز تكمن أهميتها من حيث موقعها الجغرافي الذي جعلها تتحكم ببوابة الخليج العربي ومدخله الجنوبي، ومن ثم فهي مفتاح التجارة بين الشرق والغرب، لذلك قيل: «إذا كان العالم خاتماً فأن هرمز جوهرته»[156]، كما يضرب بها المثل في الثراء حتى أطلق عليها لؤلؤة الشرق[157].

شكلت مملكة هرمز مجموعة من المراكز التجارية البرية التي استطاعت بوساطتها السيطرة على مياه الخليج قبيل وصول البرتغاليين، إذ كان الساحل العماني زاخراً بالموانئ بحكم موقع عُمان الجغرافي، فهي تطل على الخليج العربي من جهة والبحر العربي من جهة ثانية مما أكسبها أهمية تجارية كبيرة، ومن موانيء الساحل العُماني المهمة صحار فهي مزدهرة وغنية بنشاطها التجاري وكانت مخزن السلع الواردة من الصين وبعض أنواع السلع القادمة من الشرق، وقلهات ذات الأهمية الكبيرة على ساحل خليج عُمان، وقد أزدهرت بشكل ملفت للنظر في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي، ومسقط في المركز الرئيس لتجارة مملكة هرمز[158]، كما كانت خورفكان تابعة إلى هرمز أيضاً وهي ميناء بحري مهم يقع على ساحل خليج عمان وقد وصفها البوكيرك (القائد البرتغالي) بالقول «إنها من أجمل المدن...يكثر فيها التجار، وميناؤها من الموانئ الممتازة ومنها يتم تصدير الخيل إلى الهند»[159]، وشكّلت صور وقريات والبحرين مراكز تجارية لا تقل أهمية عن سابقاتها وعزّزت من المكانة الإستراتيجية الهامة الى مملكة هرمز.

بعد استعراض أهمية موقع مملكة هرمز وإمكاناتها التجارية لا بد من استعراض أوضاعها الداخلية وأسرتها الحاكمة قبيل الاجتياح البرتغالي خلال القرن التاسع الهجري/الخامس عشر الميلادي، فقد أعتلى سلطنة هرمز أربعة سلاطين هم كل من قطب الدين تهمتن الثالث (فيروز شاه) 802-820هـ/1399-1417م، وسيف الدين مهار 820-840هـ/1417-1436م، وفخر الدين توران شاه الثاني 840-875هـ/1436-1470م، وسلغر شاه الأول 880هـ-911هـ/1475-1505م[160].

شهدت هرمز اتساعاً كبيراً في نفوذها خلال مدة حكم السلطان قطب الدين تهتمن الذي فرض سيطرته على جزيرة كيش المنافسة القديمة لها مما مكّنها من فرض سيادتها البحرية على بعض نواحي ساحل عُمان ومدنه، لا سيما مدينة قلهات التي كانت تابعة إلى هرمز القديمة من قبل، واتخذ السلطان منها حصناً يحتمي به، إذا ما تعرض إلى ثورة داخلية أو تمت مهاجمته من الخارج لذلك يذكر ابن بطوطة عن ذلك بقوله: «عندما أشتد الصراع بين السلطان قطب الدين ملك هرمز وأخيه نظام الدين انسحب قطب الدين إلى قلهات وهي من جملة توابع بلاده وأقام فيها شهوراً عدة حتى استعاد الجزيرة ثانية»[161].

على الرغم من اتساع نفوذ مملكة هرمز الجديدة التي دانت بالتبعية لكرمان شأنها شأن هرمز القديمة، فبعد انتهاء حكم أسرة براق الحاجب لكرمان عام 703هـ/1303م، خضعت كرمان الى آل مظفر، وخضعت لهم مملكة هرمز، ولعل من أشهر حكام آل مظفر الذين دانت لهم مملكة هرمز بالتبعية مبارز الدين بن المظفر 723-760هـ/1323-1358م، والشاه شجاع 760-786هـ/1358-1384م، وشاه منصور790-794هـ/1388-1391م، ودخل الأخير في صراع مرير مع تيمورلنك[162]، وانتهى بمقتله عام 749هـ/1391م، ثم تولى شأن مملكة هرمز شاه رخ 807-850هـ/1404-1446م، وقد أرتبط بعلاقات جيدة مع السلاطين المماليك الشراكسة في مصر خلال مدة حكمه[163].

شهدت هرمز خلال مدة حكم سيف الدين مهار حالة من الارتباك والفوضى، فضلاً عن طبيعة حكمه الاستبدادي معتمداً على قوات من المرتزقة من بلاد فارس وبعض العناصر التركية في الجيش، الأمر الذي أغضب سكان البلاد ولا سيما الاقطاعيين منهم وأكثر من الضرائب بهدف تأمين موارد لسد نفقات الجيش بما فيهم أولئك المرتزقة[164]، لذلك أصبح الوضع مناسباً أمام أخيه فخر الدين توران شاه الثاني من قيادة ثورة ضد أخيه سيف الدين مهار، ونجح في الإطاحة به(165)، وتولى الحكم عام 840-875هـ/1436-1470م، وشهدت مملكة هرمز حالة من الاستقرار السياسي، وبعد وفاته تولى ولده مقصود بن فخر الدين توران شاه الحكم عام 875هـ/1470م، ولم يبق في الحكم سوى مدة قصيرة،

وجاء بعده أخوه الأصغر شهاب الدين الذي حكم ما بين عامي 875-880هـ/1470-1475م، ثم حكم مير شاه أويس خمسة أشهر فقط 880هـ/1475م، وبعد ذلك شهدت مملكة هرمز صراعاً أسرياً طاحناً حتى آلت الأمور إلى أبي الفتح مظفر الدين سلغر شاه الأول 880-911هـ/1475-1505م[166].

أثّرت سنوات الاضطراب التي مرت بها مملكة هرمز خلال مدة الصراع الأسري ما بين الأبناء في الحكم، فضلاً عن انعكاسات الصراعات الإقليمية التي شهدتها بلاد فارس بسبب الحروب التركمانية، وقد خطّط ابن الملك سلغر شاه الأول توران شاه الثالث لإسقاط والده عام 911هـ/1505م وكان ملهوفاً ومهووساً وفي الوصول الى الحكم، فضلاً عن قيام حركات معارضة التي شهدتها هرمز تلك الأوضاع لاشك أنها أثّرت في الأوضاع العامة للمملكة على المستويين الداخلي والخارجي، وقد وصل الصراع ذروته في مطلع القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي حتى أتيحت الفرصة إلى وصول أحد المماليك لتولي مقاليد الوزارة وهو خواجه عطاء (khojattah) ليحكم البلاد حكماً مطلقاً[167].

ومن نافلة القول ان هرمز كانت خلال المدة من عام 767/1330/913هـ/1507م تحت حكم ملوك كانوا في أغلب الأحيان لا يحكمون، وتجسّدت السلطة في أيدي الوزراء الذين يمثلون أوليجاركيه التجار الموسورين[168].

في عام 911هـ/1505م أغتيل سلغر شاه الأول على يد نجله توران شاه الثالث الذي أغتيل هو الآخر على يد عبد من عبيد سلغر شاه الأول رئيس الحرس السلطاني بعد عشرين يوم فقط، ونصّب على العرش الهرمزي أحد أنجال سلغر شاه الأول وكان معتوهاً أستغله ملك اللار وحال السيطرة على جزيرة جيرون، ولكن خواجا عطاء أستطاع أن يفشل خططهم ويفرض سيطرته على البلاد ومن ثم عين السلطان سيف الدين أبا نصر شاه نجل الشاه أويس وهو صغير السن لم يتجاوز عمره اثني عشرة سنة[169].

أصبح خواجا عطاء الحاكم المطلق وبيده السلطة الفعلية في هرمز وقد تنوعت الألقاب التي أطلقت عليه منها الوزير والحاكم والوصي، وكان حازماً بعيد النظر حصر بيده جميع الصلاحيات، أما السلطان الطفل سيف الدين أبا نصر شاه فهو سلطان أسمي فقط[170].

- مملكة هرمز في مواجهة البرتغاليين

بدأ المشروع البرتغالي في السيطرة على البحار العربية والتحكم بالنشاطات التجارية دفعة واحدة عن طريق احتلال ثلاث مناطق رئيسة هي عدن وهرمز وملقا[171]، وعهد الى أحد قادة البحر «الفونسو البوكيرك» المشاركة في الأسطول البرتغالي المتجه نحو الشرق عام 912هـ/1506م، وهو يتطلع بأن يكون فاتح هرمز والمسيطر عليها بوصفها مفتاح الخليج العربي ولإدراكه أن الاستيلاء عليها سوف يضيف سجلاً وأنتصاراً كبيراً للبرتغال[172].

شكّلت هرمز هدفاً كبيراً للقائد البرتغالي البوكيرك ويقول إنها تحقّق أهداف السياسية البرتغالية وتفوقاً لديهم على منطقة البحر الأحمر، ويرى أنه يجب أن يستخدم التكتيك المناسب في مواجهتها وذلك عن طريق أشغالها من جهة وإعاقة اتصالاتها بالمدن المجاورة من جهة ثانية، لذلك قصد مسقط وهي المخزن الرئيس الى هرمز وسوقاً رائجة للجياد والتمر والقمح والشعير[173].

حاول حاكم مسقط مهادنة القائد البرتغالي والتفاهم معه بعدم الدخول الى المدينة، الا أنه فشل في ذلك ودخلها عنوة بعد أن دمّرها وأحرق أكثر من أربع وثلاثين سفينة صغيرة وكبيرة وعدد من قوارب الصيد ومعداتها كما أحرق المساجد فيها[174]، ويظهر أن القائد البرتغالي البوكيرك أراد أن يوصل رسالة الى بقية المدن المعنية بالهدف البرتغالي بعدم جدوى مقاومتها ومنها هرمز.

تحرك بعد ذلك باتجاه صحار التي قال عنها البوكيرك: «مدينة جميلة كثيرة السكان وتحتوي على بيوت جميلة»، حاولت المدينة في البداية الدفاع عن نفسها بعد أن وصلتها قوات إسناد التي يمتد نفوذها الى عدن[175]، إلا أن تلك المقاومة فشلت واضطرت الى الخضوع وتسليم القلعة ودفع الجزية في عام 913هـ/1507م، ثم توجه إلى منطقة خورفكان وهي المحطة الأخيرة له على الساحل، ولاحظ على أهلها مظاهر الاستعداد للمقاومة والمواجهة، وأوفد إليهم رسولاً يعرض عليهم تسليم المدينة، فإذا رفضوا فسيدخلها بالقوة، فلم يستجب سكانها لهذا التهديد، بل باشروا استعداداتهم لخوض المنازلة، لذلك أصدر البوكيرك الأوامر لقطعاته الموجودة في المراكب كافة باكمال الاستعداد للنزول في صباح اليوم الثاني ومقاتلة حشود العرب على الشاطئ وفتح المدينة قسراً، فقد مهّد قبل الدخول إليها بقصف كثيف عليها، لذلك تكبدت المدينة خسائر فادحة، فضلاً عن نهب كل ما فيها، ثم بعد ذلك سيطرت القوات البرتغالية على رأس مسندم[176].

هكذا مهّدت العمليات البرتغالية المسبقة دخول هرمز وفرض السيطرة عليها، وبالمقابل فأن مسؤولية حكام هرمز كانت جسيمة في مواجهة هذا الزحف بعد أن وصلتهم أخبار المدن التي استباحتها القوات البرتغالية، لذلك عمل الخواجا عطاء ما بوسعه من تحضيرات لمواجهتهم فأعد العدة من السفن والخيل والرجال ولما وصل البوكيرك وجد فيها ثلاثين ألف مقاتل منهم أربعة آلاف من الرماة، فضلاً عن أربعمائة مركب بحري منها ستون مركباً كبيراً زودت بالمدافع ذات الأحجام المختلفة[177].

أمام هذه الاستعدادات الضخمة التي أبداها ملك هرمز، حصل تردد لدى القائد البرتغالي في الخوض في غمار هذه المواجهة[178]، لذلك بدأ بمفاوضات مع ملك هرمز سيف الدين ودعاه إلى الاستسلام وإعلان تبعيته الى ملك البرتغال (دوم أمانوئيل) سيد الهند، وقد جاء رد ملك هرمز عن طريق الخواجا إبراهيم وهو احد التجار وأحد أعضاء مجلس الحكم في الجزيرة حيث قال «أن الملك يتساءل ما سبب مجيئكم لهذه الجزيرة» فرد عليه البوكيرك رداً يحمل شيئاً من الترغيب والترهيب حيث قال «قل للملك أن ملك البرتغال وسيد الهند يرغب في صداقته كثيراً وقد أرسلني لهذا الميناء لأخدمه بأسطوله، فإذا كان الملك راغباً في أن يكون تابعاً الى ملك البرتغال ويدفع الجزية والضريبة السنوية له فسوف أعقد معه الصلح وسأكون في خدمته وأقدم له كل الخدمات التي يأمرني بها ضد أعدائه، وإذا كان غير راغب في ذلك فدعه يعلم بأنني سأدمر حتى أسطوله الرابض في الميناء والذي وضع ثقته فيه وسآخذه عنوة بقوة السلاح»[179].

يظهر أن الوزير خواجا عطاء أراد أستثمار الوقت فأرسل رسلاً جدداً الى القائد البرتغالي البوكيرك، وقد رد عليه أنّ لا مجال لضياع الوقت، وفي الوقت ذاته حاول بعض القادة البرتغاليين التأثير على البوكيرك ومحاولة أقناعه بعقد السلام، إلا أنه حذّرهم بالقول « لا خيار أمامكم إلا أمرين أما الحرب والانتصار على هرمز أو الهزيمة وحينها ستقطع رؤوسكم على أيدي المسلمين الذين سيحملونها ضمن غنائمهم»[180].

بدأت الخطة البرتغالية في اجتياح هرمز بتوجيه قصف مدفعي مركّز عليها[181]، ومن ثم تدمير السفن التي اعترضت طريقهم، فضلاً عن قصف تجمعات المقاتلين على سواحل الجزيرة، إذ أوقعت بينهم خسائر جسيمة، بعد ذلك نزلت القوات البرتغالية على الرصيف، وهكذا فإن الهجوم البرتغالي من البر والبحر قد أربك الدفاعات الهرمزية، وتحقّق التقدم لصالح القوات البرتغالية عند المواجهة الأولى[182].

وعزو أسباب التفوق البرتغالي يكمن في أن الجنود الهرامزة على الرغم من كثرتهم لكنهم يفتقدون إلى الانضباط العسكري الصحيح على عكس القوات البرتغالية التي أظهرت أستماتة كبيرة، كما أن المعدات الحربية فيما يخص جيش مملكة هرمز كانت بدائية وسفنهم تجارية وليست حربية مقاتلة وهي قديمة ومستهلكة بعكس السفن البرتغالية ذات المعدات والأشرعة الحديثة التي تميزت بسرعة مناورتها، وحملها مدافع ثقيلة ذات كثافة نارية عالية[183].

أضطر ملك هرمز القبول بعقد اتفاقية مع القائد البرتغالي البوكيرك في أيلول 913هـ/1507م وتضمنت البنود الآتية:

1- يبقى الملك سيف الدين حاكماً على هرمز لكن تحت السيادة البرتغالية.

2- دفع جزية سنوية مقدارها خمسة عشر ألف دينار أشرفي ذهب سنوياً.

3- السماح للبرتغاليين بإقامة المنشات العسكرية في هرمز.

4- يتوجب على كل سفينة محلية الامتناع عن الإبحار دون ترخيص من الأسطول البرتغالي.

5- أعفاء البضائع البرتغالية من كل ضريبة[184].

6- لايدفع البرتغاليون (كأفراد) كمارك أكثر مما يدفعه المواطنون في هرمز على البضائع التي يشترونها من هرمز والموانئ التابعة لها.

7- يسمح ملك هرمز للقوات البرتغالية بإقامة قلعة في أطراف الجزيرة وبموقع مناسب تقام فيها حامية باسم جيش النصر.

8- يوافق ملك البرتغال على أن يكون سيف الدين أبا نصر ملكاً لهرمز وخواجه عطاء نائباً له، ورئيس نور الدين الشخص الثالث في الأهمية مستشاراً شخصياً الى الملك.

9- تقوم الحكومة البرتغالية بالدفاع عن هرمز ضد أعدائها وأعداء ملكها (المقصود الخلافات الأسرية).

10- حرية الملاحة للسفن الخارجية التابعة لملكة هرمز جميعها ابتداءً من منطقة رأس الحد في ساحل عُمان[185].

كتبت هذه الاتفاقية بنسختين بالعربية والفارسية وذيلت بتوقيع الملك سيف الدين والقائد

البرتغالي البوكيرك، ثم ختمت بختم ملك هرمز، وأرسلت نسخة منها الى ملك البرتغال عمانوئيل الأول[186].

وبموجب نصوص هذه الاتفاقية أصبحت هرمز تابعة لملك البرتغال وأحدى ممتلكاته، وأن أي ضرر يلحق بها من اقتصاص أو حصار أو قصف يضر مصالح التاج البرتغالي[187].

وبسقوط هرمز أحكمت السيطرة البرتغالية عليها وأتيحت الحرية الكاملة لهم في احتكار الخليج العربي وصارت سفنهم تتجول من ثغر الى ثغر فارضين سيطرتهم على حكام هرمز وتوابعها، وهؤلاء الحكام كانوا هم أشبه بالدمى في أيديهم بعيدين من كل حضور إداري وسياسي يذكر[188].

ظلت أجواء الترقب والحذر قائمة في هرمز بين الجانب البرتغالي وحكام هرمز بعد توقيع معاهدة أيلول عام 913هـ/1507م، لذا فإن البوكيرك لم يطمئن الى هرمز بسبب ما حصل من تحرك ضد قواته فضلاً عن ذلك بدأت الكثير من حالات التمرد لدى كبار ضباطه وجنوده، لذلك فكّر بالتوجه الى الهند وترك حامية في هرمز لا سيما أن خلافاً قد حصل بينه وبين نائب الملك الميدا حول سياسة البرتغال في الهند الذي حسم لصالحه فعين نائباً الى الملك البرتغالي عام 915هـ/1509م حتى عام 921هـ/1515م[189].

لم يأمن البوكيرك جانب ملوك هرمز وظل القلق يسود تفكيره إزاءها لا سيما أنه شعر بأن هناك تحركات واسعة في هرمز توحي بالمواجهة من جديد مع قواته ففي عام 921هـ/1515م استطاع من إخماد ثورة كبيرة شهدتها هرمز ضد قواته هناك وبعدها أصيب بمرض لم يشف منه وتوفى في العام نفسه[190]، لم تستكن هرمز لسياسة البرتغاليين وظلت في مواجهة معهم على الرغم من الفوارق في الإمكانات التسليحية وخطط التعبئة السوقية العسكرية.

تواصلت الثورات المحلية ضد البرتغاليين فكانت ثورة عام 825هـ/1519م في قلهات واحدة منها حيث أعلنت ثورتها بقيادة الشيخ شهاب الدين، وقد أقلقت هذه الثورة الملك البرتغالي ونائبه الذي وصل إلى المدينة وأبلغ سكانها بأنه سيعالج مطاليبهم ويرفع الظلم عنهم فهدأت الثورة[191]، لم يكن موقف نائب الملك هو الذي هدّأ الثورة، لكن شيوخ العشائر قد شعروا بعدم جدوى مقاومتهم وسيقدمون خسائر مادية وبشرية جسيمة، لذلك وافقوا على المهادنة، وفي حقيقة الأمر كانت تتأجج في نفوسهم ثورة أوسع وأشمل وهذا ما شجّع ملك هرمز على التفكير بتنظيم هجوم بري وبحري كبير ضد الوجود البرتغالي، لذلك أرسل الكتب إلى الأمراء في المراكز التجارية على طول الساحل الغربي للخليج للتنسيق معهم لمهاجمة الحاميات البرتغالية في هرمز وحدّد اليوم المرتقب[192].

حصلت المواجهة بين الطرفين عام 927هـ/1521م وأعلنت ثورة واسعة في هرمز والمناطق المجاورة على البرتغاليين بسبب تدخلهم المباشر في الشؤون الداخلية للمملكة فضلاً عن ذلك إصدار أوامرهم المقيّدة لعمل عمال الكمارك، فقُتل عدد منهم وفر القسم الآخر، لذا اضطرت القيادة لبرتغالية في الهند من إرسال تعزيزات الى هرمز لإخماد تلك الثورة التي أخذت شرارتها تصل إلى المناطق الأخرى المجاورة في البحرين وصحار وقلهات[193].

وصلت القوات البرتغالية القادمة من الهند فأجهضت الثورات العربية التي حصلت في بعض المدن ومنها قلهات وصحار ومسقط وبعض المدن الساحلية الأخرى حتى دخولهم إلى هرمز بقوة كبيرة، عندئذ أدرك ملك هرمز أن الموقف أصبح معقداً في مواجهتم فأنتقل على الفور إلى جزيرة قشم بعد أن أمر السكان بحرق المدينة بهدف عدم استفادة العدو منها[194].

دخل البرتغاليون الى هرمز مرة ثانية فعملوا على تدمير المدينة وحرق أسواقها وأرتكبوا سلسلة من الأعمال الوحشية فيها، وقد انعكست نتائج هذه الثورة على سلوك البرتغاليين وتعاملهم مع سكان هرمز الذين اضطروا إلى تركها واللجوء الى مناطق الخليج العربي الأخرى[195].

في ضوء تطورات تلك الأحداث وقع الاتفاق مع البرتغاليين من قبل ملك هرمز في 2 رمضان 929هـ/23 تموز 1523م باسم اتفاقية ميناب التي وقّعها عن الجانب البرتغالي دوران ميز (D.Meize) نائب الملك في الهند الجديد البالغ من العمر فقط ثلاث عشرة سنة، واستندت هذه الاتفاقية على مضمون الأتفاقية السابقة عام 921هـ/1515م الموقعة بين ملك هرمز والقائد البرتغالي البوكيرك[196].

تضمنت الاتفاقية الجديدة شروطاً يتعهد بموجبها الأمير محمد بتسليم هرمز للبرتغاليين متى أراد ملك البرتغال ذلك، وإذا كان البرتغاليون قد أعترفوا لأمير هرمز بالحكم، إلا أنه كان فاقداً لسلطاته تماماً بخضوعه الى الإدارة البرتغالية[197]، كما اشترط عليه دفع غرامة مقدارها (60،000) ألف دينار أشرفي ذهب، وتبعية تجار هرمز للإدارة البرتغالية، فضلاً عن وضع القواعد والقيود المنظّمة لتجارة الأسلحة[198].

على الرغم من كل الإجراءات التي قامت بها القوات البرتغالية، إلا أنها لم تستطع أن تصادر الروح الوطنية والمقاومة لنفوذهم، لذا سرعان ما تجددت الثورات العربية الجديدة في مناطق عُمان الساحلية عام 332هـ/1526م بسبب سوء معاملة البرتغاليين لهم وظلمهم وجورهم في استيفاء الضرائب وابتزاز الأموال التي كان يقوم بها قائد الحامية البرتغالية (ديجودي ميلوه) (Diegode Mello) ولم تهدأ هذه

الثورة حتى عام 333هـ/1527م، بعد أن غيّرت القيادة البرتغالية أساليب تعاملها مع السكان وأصبحت تستمع الى شكواهم ومصالحهم ضد بعض قادة الحاميات البرتغالية لذلك تم إقالة البعض منهم[199].

لم تكد تهدأ المنطقة من تبعات هذه الثورة فسرعان ما أشتعلت في منطقة أخرى فكانت هذه المرة في البحرين عام 335هـ/1529م وذلك على أثر عزل الوزير شرف الدين ونفيه الى لشبونه بحجة أنه يدبّر ثورة في الخليج العربي، ثم مطالبة سكان هرمز بضرائب أعلى[200].

تحركت القوات البرتغالية تجاه البحرين ودخلت في معارك شرسة هناك، إلا أن القوات البرتغالية واجهت خطراً قاتلاً هو أنتشار وباء الحمى الذي فتك بهم فتكاً ذريعاً، لذا طلبت التعزيزات من الهند لإسناد موقفهم التعبوي، لذلك وصفت هذه الحملة بالكارثة على القوات البرتغالية وانعكست على سلطتهم في عموم منطقة الخليج العربي، وفي الوقت ذاته كانت لها تأثيرات إيجابية في مناطق الساحل العُماني، ومن هنا بدأ البرتغاليون يفكرون بتجنب كل ما ينطوي عليه الحكم المباشر لتلك المناطق من نفقات ومشكلات، فعمدوا إلى وضع القسم الأكبر من السلطة بيد الأمراء المحليين، كما عمدوا الى عدم التدخل في تقاليد البلاد وأنظمتها طالما لا تتعارض مع السلطة البرتغالية تعارضاً مباشراً أو تمس مصالحها وأحتكارتها التجارية[201].

يبدو أن البرتغاليين شعروا بضرورة استخدام سياسة التهدئة في منطقة الخليج العربي، لا سيما أن موازين القوى بدأت تتغير بعد دخول قوة جديدة ميدان الصراع والتنافس متمثلة بالدولة العثمانية، وبدأت أولى خطواتها في احتلال بغداد عام 334هـ/1534م، ومن ثم التوجه جنوباً باتجاه البصرة واحتلالها عام 342هـ/1546م[202]، واتخاذها قاعدة للانطلاق نحو الخليج العربي بعد أن أظهر أبناء الخليج تعاونهم مع القوة الجديدة لطرد البرتغاليين[203]، وبذلك بدأت مرحلة جديدة من صراع القوى السياسية في منطقة الخليج العربي أدت بالنتيجة إلى أضعاف القوة البرتغالية بوصفها قوة استعمارية، بعد أن توافرت الظروف الملائمة للقوى المختلفة للإطاحة بالبرتغاليين في الخليج العربي وقد تمثلت بالفرس والإنجليز من ناحية والقوى المحلية والقبلية وعلى رأسهم اليعاربة من ناحية ثانية[204].

هوامش الفصل الخامس ومصادره

(1) عزيز محمد حبيب، المملكة العربية السعودية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975، ص12.

(2) الموسوعة الحرة، الويكيبديا على الرابط الآتي: http://ar Wikipedia.org

(3) سوريا القلعة على الرابط الآتي: http://akal3a4 synia.net

(4) النجد ما ارتفع من الأرض والجمع نِجَاد ونُجُود وأَنْجدٌ وهي من بلاد العرب وهو خلاف الغور فالغور تهامه وكل ما ارتفع عن تهامه إلى أرض العراق فهو نجد وهو مذكر، وأَنجَدَ أي دخل بلاد في نجد، ينظر مادة نجد، مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي، دار الكتاب العربي، د.ت، ص646.

(5) صباح مهدي رميض، إمارة عسير، ص28؛ الموسوعة الحرة الويكيبديا.

(6) سوريا القلعة، الرابط السابق.

(7) الموسوعة الحرة، الويكيبديا، الرابط السابق.

(8) عزيز محمد حبيب، المصدر السابق، ص ص13-14.

(9) المصدر نفسه، ص36.

(10) الموسوعة الحرة، الويكيبديا، الرابط السابق.

(11) المصدر نفسه.

(12) سوريا القلعة، الرابط السابق.

(13) الدرعية، تقع شمال غرب مدينة الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية وتبعد عنها بنحو خمسة عشر كيلومتراً وتاريخ تأسيسها عام 805هـ/1446م على يد جد أسرة آل سعود مانع بن ربيعة المريدي، وقد أدت دوراً محورياً في التاريخ السياسي للمملكة العربية السعودية كونها تمثل عاصمة الدولة السعودية الأولى وأبرز دورها الدعوي والسياسي، ينظر: الموقع الرسمي لمدينة الرياض على الرابط الآتي : http://www.arriyadh.com؛ الموسوعة الحرة الويكيبديا.

(14) الدعوة الوهابية: هي حركة إسلامية سياسية قامت في نجد وسط شبه الجزيرة العربية في أواخر القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي على يد محمد بن عبد الوهاب (1703-1792) الذي تحالف مع محمد بن سعود لنشرها، التي عرفت بالسلفية وقد كانت

بداية انطلاقها في الدرعية إذ أعلن محمد بن عبد الوهاب الجهاد فشنّ بذلك سلسلة من الغزوات، بهدف إجراء الإصلاح والتوحيد وتطهير الإسلام وتنقية عقائد المسلمين والتخلص من العادات والممارسات التعبدية التي انتشرت في بلاد الإسلام وتراها الوهابية مخالفة لجوهر الإسلام، لذلك تدعو إلى الرجوع إلى الإسلام الصافي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واتباع طريقة السلف الصالح كما جاء في القرآن والسنة، وأهم مرتكزاتها، التوحيد، الاجتهاد والتكفير والقتال والأمانة، لمزيد من التفاصيل عن هذه الحركة وأهدافها ينظر، حسين خلف الشيخ خزعل، حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب، بيروت، 1968، أمين الريحاني، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، 1954، إبراهيم خليل أحمد، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، جامعة الموصل ص ص 239، 256، سيار كوكب علي الجميّل، تكوين العرب الحديث، جامعة الموصل، 1991، ص ص 309، 312؛ الموسوعة الحرة، الويكيبيديا.

(15) الشيخ عثمان بن عبد الله بن بشر النجدي الحنبلي، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله، ج2، ط4، الرياض، 1985، ص377.

(16) عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف، مسائل الأعتقاد عند علماء نجد قبيل الدعوة الأسلامية خلال القرون العاشر والحادي عشر والثاني عشر، ص4، متاح على موقع آل عبد اللطيف على الرابط الآتي: http://www.alabdalitif.net

(17) منتديات الأولى السادة أشراف آل ياسر الرسمية على الموقع: http://alyassir.7olm.org

(18) المصدر نفسه.

(19) المصدر نفسه.

(20) محمد بن عبد الله بن يوسف، تاريخ ابن يوسف، دراسة وتحقيق الدكتور عويضه بن متيرك الجهني، الرياض، 1999، ص ص، 13،20.

(21) محمد محمود خليل، تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية المسمى إقليم بلاد البحرين في ضل حكم الدويلات العربية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط1، 2006، ص355.

(22) الموسوعة الحرة الويكيبيديا؛ http://ar.wihipedia.org

(23) J.H. Stevens, Man and Environments in Eastern Saudi Arabia, I, London, 1974, p.137.

(24) عبد اللطيف ناصر الحميدان، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد15 السنة 1979، ص71.

H. Yajima, The Arab trade in the Indian Ocean, Tokyo, 1976. (25)

(26) عبد اللطيف ناصر الحميدان، المصدر السابق، ص73.

J.B. Kelley, Sovereignty and Jurisdiction in Eastern Arabia International Af-(27)
fairs, Vol.34, I, London, 1959, p.16. وكذلك ينظر الحميدان، المصدر نفسه، ص ص 73، 74.

(28) الدولة العيونية، العيونيون هم فرع من قبيلة عبد قيس سكنوا في مشارف مدينة الأحساء وقد تزّعم هذا الفرع عبد الله بن علي العيوني، الذي تحالف مع الدولة العباسية ضد القرامطة، وتمكن في النهاية من القضاء عليهم بمساندة الدولة العباسية وأقام إمارة الأحساء عام 466هـ/1068م وضم إليها القطيف وجزيرة أوال وبذلك تمكن من بسط نفوذه على جميع مناطق البحرين جميعها، وأصبحت هذه الإمارة وراثية في أحفاده وامتدت الى أكثر من قرن ونصف القرن منذ عام 470هـ-630هـ/1072م-1232م، ينظر محمد أرشيد العقيلي، الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت، ص193.

(29) لعل من أهم أسباب سقوط الدولة العيونية، انقسام أمراء هذه الأسرة على أنفسهم بعد مدة التأسيس الأولى وقد تجلى ذلك من خلال المؤتمرات الداخلية وحركات الأغتيال الكثيرة بين الأمراء، فضلاً عن ضعف عدد من الأمراء الذين توالوا على الحكم ومنافسة العديد من الأسر المحلية في البحرين لهم وعلى وجه الخصوص بني عامر، فضلاً عن الأخطار القادمة من شرق الخليج التي كانت تقض مضاجع أمراء هذه الدولة باستمرار، وفي الوقت ذاته أن الدولة العباسية أظهرت عجزها عن مساندة أمراء هذه الدولة وكان ارتباطها بهم أرتباطاً شكلياً فقط، ينظر محمد أرشيد العقيلي، المصدر نفسه، ص 200.

(30) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص 357.

(31) طارق نافع الحمداني وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، مطابع جامعة بغداد، 1991، ص21.

(32) فاروق عمر فوزي، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، دار واسط، ط1، بغداد، 1985، ص214.

(33) عبد اللطيف ناصر الحميدان، إمارة العصفوريين، ص86.

(34) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص ص 361-360.

(35) المصدر نفسه، ص361.

(36) المصدر نفسه، ص361.

(37) عبد اللطيف ناصر الحميدان، إمارة العصفوريين قصة 150 عاماً.

(38) المصدر نفسه، ص92.

(39) المصدر نفسه، ص93.

(40) المصدر نفسه، ص93؛ محمد أرشيد العقيلي، المصدر نفسه، ص201؛ طارق الحمداني وآخرون، المصدر نفسه، ص22.

(41) أبو عباس أحمد بن علي القلقشندي (ت821هـ/1418م)، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، 1980، ص330.

(42) مدينة بيشه، منطقة واسعة تقع شمال شرقي مدينة أبها وتُعد مفتاح منطقة عسير من جهة الشرق وتسكنها قبائل خشعم ومن بطونها شهران وناهس ونخع، دخلت معظم عشائرها في تحالفات قبلية مع بعضها، ينظر: محمد محمود خليل، هامش(1)، ص375.

(43) المصدر نفسه، ص375.

(44) هي إحدى القرى المشهورة بالنخيل وأغلب سكانها من الطائفة الشيعية يعملون في الحقل الزراعي، والقرين هي تصغير لإسم قرن تقع شمال واحة الأحساء، ينظر: محمد محمود خليل، هامش(1)، ص376.

(45) إبراهيم الحفظي، تاريخ عسير، تحقيق محمد بن مسلط بن عيسى البشري، ط5، القاهرة، 1413هـ، ص49.

(46) المصدر نفسه، ص49.

(47) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص378.

(48) القلقشندي، صبح الأعشى، ج7، ص370.

(49) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص380.

(50) المصدر نفسه، ص381.

(51) العصفوريون قصة (150) عاماً غامضة من تاريخ البحرين، على موقع سنوات الجريش على الرابط الآتي: http://www.jasblog.com.

(52) المصدر نفسه.

(53) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص383.

(54) المصدر نفسه، ص385.

(55) الملوك الطيبيون، ينتسب هؤلاء الى تاجر عراقي يدعى جمال الدين إبراهيم بن محمد الطيبي الذي أطلق عليه لقب (أبن السواحلي) وقد عرف عن جمال هذا نشاطه التجاري الذي تجاوز المئة سفينة كما أشتهر بتجارة اللؤلؤ والخيول وهيأ له هذا الثراء إقامة علاقات واسعة مع اليخا كيخاتو 690-694هـ/1291-1295م سلطان المغول وسلطان العراق وإيران، الذي وهبه حكم إقليم فارس وسواحل الخليج العربي بما فيها من جزر ذات أهمية اقتصادية مثل قيس والبحرين وخارج وهرمز، مقابل ذلك قدّم جمال الدين مبالغ سنوية دفعت الى الخزينة الأيلخانية، ينظر محمد محمود خليل، المصدر نفسه، ص ص 390-389.

(56) المصدر نفسه، ص390.

(57) المصدر نفسه، ص392.

(58) المصدر نفسه، ص392.

(59) عبد اللطيف ناصر الحميدان، الإمارة العصفورية، ص106.

(60) المصدر نفسه، ص106.

(61) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص395.

(62) تناول المبحث الثالث من هذا الفصل تفاصيل مملكة هرمز.

(63) العصفوريون، قصة (150) عاماً غامضة، على الرابط الآتي: http://www.jasblog.com.

(64) القلقشندي، نهاية الأرب، ص330.

(65) ينظر على الموقع الرسمي لعائلة العصفور على الرابط الآتي: http://www.alasfour.net.

(66) القلقشندي، نهاية الأرب، ص106.

(67) ينظـر تصنيف فئــات الأسرة العصفـــورية في محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص ص، 398-397؛ آل عصفور في إقليم البحرين على موقع جريش على الرابط الآتي: http://www.jasblog.com.

(68) سعيد بن مغامس، هو الشريف سعيد بن مغامس بن سليمان بن رميثه بن منجد بن أبي نمي الذي يعود نسبه الى الأمام الحسن بن علي(ع) وجده الأكبر أبو نمي أحد أمراء مكة المكرمة، ينظر محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص399.

(69) المصدر نفسه، ص400.

(70) سميت بالإمارة الجروانية نسبة الى مؤسسها جروان المالكي من قبيلة عبد القيس، استمر نفوذها من عام 795-820هـ/بحدود ربع قرن، ثم خضعوا لحكم مملكة هرمز، ينظر فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص215.

(71) إبراهيم بن الحفظي، المصدر السابق، ص49.

(72) المصدر نفسه، ص215.

(73) ينظر عبد اللطيف ناصر الحميدان، الذي قدّم تحليلات قيّمة بخصوص انهيار وسقوط الدولة العصفورية وسقوطها، المصدر السابق، ص ص121-123.

(74) قيام الدولة العصفوريين ونهايتهم، على موقع سماحة الشيخ محسن العصفور على الرابط الآتي: .http://www.al.asfoor.org

(75) المصدر نفسه.

(76) المبحث الثاني من هذا الفصل سيتناول سيرتهم ونشاطهم السياسي.

(77) موقع سماحة الشيخ محسن العصفور، قيام العصفوريين ونهايتهم على الرابط الآتي: http://www.al.asfoor.org .

(78) وردت مدخلات عديدة حول اختلاف في مرجعية نسب الجبور، البعض يرجع أصلهم الى عامر بن صعصعه بن معاوية بن بكر بن هوازن من قيس عيلان من مضر بن نزار وهذا خطأ وقد أكده النسابة المؤرخ الشيخ حمد الجاسر بقوله «الحق الحق بأن يتبع وكنت قد نشرت مقالاً في مجلة العرب قلت فيه إن أكثر فروع قبيلة الجبور تنتسب إلى عامر بن صعصعه توهماً مني، إن

بني عقيل من عامر بن صعصعه القبلية المعروفة لكن أتضح لي فيما بعد أن عقيل هو عامر بن ربيعة بن نزار، للمزيد من التفاصيل عن ذلك ينظر الدولة الجبرية على موسوعة عالم المعرفة على الرابط الآتي: .http://www.marefa.org

(79) ينظر السلطنة الجبرية من قوتها في عهد أجود الى ضعفها وأضمحلالها على الموقع السياسية على الرابط: http://www.al.seyassah.com

(80) خضعت الإمارة الجروانية لنفوذ مملكة هرمز سياسياً وسيطر بنو عامر على أمور التجارة والحياة الاقتصادية فيها، ينظر فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص215.

(81) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص ص437-438.

(82) قدّم الدكتور عبد اللطيف ناصر الحميدان تحليلات قيمة بشأن الصراع القبلي في شرق الجزيرة العربية وبين ظروف وصول السلطة الجبرية إلى الحكم، للمزيد من التفاصيل ينظر بحثه القيّم، التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية 820-931هـ/1417-1525م، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد 16، لسنة 1980، ص ص37-44.

(83) يرى بعض المؤرخين أن سيف بن زامل هو المؤسس الحقيقي لإمارة الجبور ومنهم الشيخ حمد الجاسر ومحمد عبد القادر في حين يرى المؤرخ الحميدان على أن الشيخ زامل بن حسين بن ناصر هو المؤسس الحقيقي لهذه الإمارة، ينظر موسوعة المعرفة مصدر سبق ذكره.

(84) محمد محمود خليل، لمصدر السابق، ص439.

(85) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص45.

(86) المصدر نفسه، ص46.

(87) انتشرت الفوضى والاضطرابات والتخريب والدمار الواسع في كل من العراق وإيران وديار بكر والأناضول وشمال بلاد الشام منذ بداية العقد الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي ولا سيما تلك الحروب التي حصلت ما بين التيموريين ودولة القره قوينلو (الخروف الأسود) وكذلك ما بين الدولتين المذكورتين ودولة الآق قوينلو (الخروف الأبيض)، وما بين الأخيرة والدولة العثمانية ولم تسلم الدولة المملوكية من هذا الصراع، فضلاً عن الصراعات القبلية الداخلية في وسط العراق وجنوبه التي رافقت ظهور حركة المشعشعين التي انتهت بتأسيس أمارتهم، للمزيد من التفاصيل عن هذا الصراع ينظر الحميدان، المصدر السابق،

ص46؛ عماد الجواهري، صراع القوى السياسية في المشرق العربي من الغزو المغولي حتى الحكم العثماني، مطابع جامعة القادسية، العراق، 1990، ص ص34-36.

(88) عبد اللطيف الحميدان، المصدر نفسه، ص46.

(89) فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص216.

(90) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص440.

(91) المصدر نفسه، ص441.

(92) تشير بعض المصادر إلى أنه توفى في عهد والده السلطان زامل وهي روايات ضعيفة لا تستند على مرجعيات دقيقة.

(93) ينظر حكام البحرين على مر العصور على الرابط الآتي: http://www.loolanabian.net;

؛ فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص216.

(94) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص48؛ ينظر منتديات قبيلة الجواريين على الرابط الآتي: http://www.9aljwaren,forumabia.com

(95) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص ص442-443.

(96) المصدر نفسه، ص444.

(97) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص66.

(98) اختلفت المصادر في ذكر عدد الأبناء فمنهم من يجعلهم ثلاثة وآخرون خمسة ولكن الدقة هم أربعة، ينظر محمد أرشيد العقيلي، المصدر السابق، ص202؛ الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص67.

(99) موسوعة المعرفة على الرابط الآتي: http://www.marefa.org

(100) المصدر نفسه.

(101) يؤشر الدكتور بدر الدين عباس الخصوصي الأهداف والدوافع البرتغالية في غزو الخليج العربي في بدايات القرن السادس عشر إلى الأمور الآتية:

1- تفكيك أوصال المناطق العربية بسبب ضعف القوى السياسية المسيطرة عليها وانشغالها بخلافاتها المذهبية والسياسية.

2- رغبة البرتغاليين في أحتكار التجارة الشرقية وإيقاف حركة الملاحة العربية في المياه الهندية.

3- الروح الصليبية التي كانت تسيطر على عقلية ضباط البحرية البرتغالية وقادتها ومنهم الفونسو دا البوكيرك، ينظر: دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج1، منشورات ذات السلاسل، الكويت، ط2، 1984، ص14.

(102) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص71.

(103) ج-ج لوريمر، دليل الخليج العربي، القسم التاريخي، ج1، إعداد قسم الترجمة بديوان مكتب صاحب السمو أمير دولة قطر، د.ت، ص12؛ صباح مهدي رميض، المصدر السابق، ص70.

(104) موسوعة عالم المعرفة على الرابط: http://www.marefa.org

(105) لعل من الأسباب التي أدت لعدم ارتياح سكان صحار للقوات الجبرية بسبب ما كانت تقوم به تلك القوات من أعمال سلب ونهب ومهاجمة المدينة، فضلاً عن طبيعة العداوة السابقة ما بين سلطان الجبور وملك هرمز، ينظر: محمد محمود خليل، المصدر نفسه، ص512.

(106) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص512.

(107) الإمارة الجبرية على موقع المعرفة، المصدر السابق.

(108) محمد حميد سلمان، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج 1057-1525، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000، ص ص 223،225.

(109) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص518.

(110) المصدر نفسه، ص ص 518، 519.

(111) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص79.

(112) المصدر نفسه، ص79؛ موسوعة المعرفة، المصدر السابق.

(113) فالح حنظل، العرب والبرتغال، منشورات المجمع الثقافي، ط1، أبو ظبي، 1997، ص312.

(114) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص206.

(115) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص80.

(116) ابن أياس (ت 930هـ/1523م) أبو بركات محمد بن أحمد بن أياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، تحقيق محمود مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1982، ص431.

(117) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص537.

(118) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص236.

(119) المصدر نفسه، ص240.

(120) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص534.

(121) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص241.

(122) الإمارة الجبرية، موسوعة المعرفة، المصدر السابق.

(123) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص242.

(124) عبد اللطيف ناصر الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص79.

(125) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص533.

(126) المصدر نفسه، ص541.

(127) عبد اللطيف الحميدان، التاريخ السياسي لإمارة الجبور، ص83.

(128) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص547.

(129) علي إبراهيم الدورة، تاريخ الأحتلال البرتغالي للقطيف 1521-1572، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001، ص108.

(130) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص549.

(131) المصدر نفسه، ص ص 549، 550.

(132) ينظر المخطّط الخاص بالأسرة الجبرية في الملحق رقم (10).

(133) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص ص 243، 244؛ الموسوعة الحرة الويكيبيديا، على الرابط: .http://www.ar.wikipedia.org

(134) الشيخ راشد بن مغامس بن صقر الذي شيّد ملكه في مدينة البصرة عام 931هـ/1525م له الفضل في تأسيس إمارة المنتفك، وأمتد نفوذه الى المناطق المجاورة له، ينظر محمد محمود خليل، هامش رقم (2)، ص551.

(135) فاروق عمر فوزي، المصدر السابق،، ص216.

(136) إمارة المشعشعين، تُعد أقدم إمارة عربية أقيمت في إقليم الحويزة (الأحواز عربستان) أسست على يد الشيخ محمد بن فلاح المشعشعي في منتصف القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي 866هـ/1461م وشهدت صراعاً إقليمياً في منطقة الخليج العربي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية استمرت قرابة خمسة قرون، وبدأت بالانحسار عام 914هـ/1508م لمزيد من التفاصيل ينظر، فاروق عمر فوزي، المصدر السابق، ص219؛ الدولة المشعشعية في أهوار الأحواز وجنوب العراق على موقع وكالة أنباء براثا على الرابط الآتي: http://www.burathanews.com_وكذلك محمد هليل الجابري، إمارة المشعشعين، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الحديث كلية الآداب جامعة بغداد، 1980؛ جاسم حسن شبر، تاريخ المشعشعين، النجف، 1965.

(137) عبد اللطيف الحميدان، النفوذ السياسي لإمارة الجبور، ص84.

(138) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص245.

(139) المصدر نفسه، ص245؛ موقع ديوان أسرة السعدون وعشائر المنتفك على الرابط الآتي: http://sadoon.com

(140) محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص552.

(141) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص245؛ طارق الحمداني وأخرون، المصدر السابق، ص24.

(142) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص245؛ محمد أرشيد العقيلي، المصدر السابق، ص203.

(143) عباس العزاوي المحامي، تاريخ العشائر العراقية، ج4، بغداد، 1938، ص78.

(144) اختلفت المصادر في ذكر التاريخ الدقيق لدخول العثمانيين إلى الأحساء فمنهم من يجعله عام 957هـ/1550م وآخر 963هـ/1555م وهو التاريخ الأقرب إلى الدقة والبعض الآخر يجعله عام 999هـ/1590م، ينظر صالح أوزبيران، المصدر السابق، ص32؛ محمد محمود خليل، المصدر السابق، هامش (2)، ص558.

(145) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص245.

(146) وردت أشارات عديدة على أن إسم هرمز يعود بدلالاته إلى السومريين من حضارات العراق القديمة، ويستخدم مثل هذا الاسم لدى طوائف عديدة في العراق مثل الأشوريين والسريان والأرمن والأراميين وليس كما يذكرها البعض بأنها فارسية الأصل، ينظر: جزيرة هرمز مملكة هرمز العظيمة...ساحلنا على الشرق، على موقع الأحواز العربي متاح على الرابط الآتي: http://www.alaha2alarabie.com

(147) المصدر نفسه.

(148) الموسوعة الحرة الويكيبيديا على الرابط الآتي: http://ar.wikipedia.org

(149) لمزيد من التفاصيل عن الأحداث التاريخية التي شهدتها هرمز القديمة وسلالاتها الحاكمة من بدايات القرن السابع الهجري/ الثاني عشر الميلادي حتى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، ينظر، إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري، سلطنة هرمز العربية، سيطرة هرمز العربية على الخليج العربي، المجلد الثاني، سلطنة هرمز العربية المستقلة وركائزها حوزاتها سكانها-اقتصادها هيمنتها، 611-913هـ/1214-1507م، رأس الخيمة، 1999.

(150) ياقوت الحموي، معجم البلدان تحقيق فريد عبد العزيز الجندي، بيروت، 1990، ص459.

(151) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص107.

(152) ينظر، ملخص تاريخ مملكة هرمز العربية، على منتديات شبكة الطواش على الرابط الآتي:

http://alharoon.blogspot.com

؛ منتديات الوراق على الرابط التالي:

http://www.warraq.cc/core

؛ جزيرة هرمز ومملكة هرمز العظيمة على موقع الأحواز العربي متاح على الرابط الآتي:

http://www.alahazalarabie.com

؛مملكة هرمز التي أبتلعها التاريخ على موقع النسابون العرب، على الرابط الآتي:
http://www.alnssabon.com

؛ محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص107.

(153) طارق الحمداني وآخرون، المصدر السابق، ص19.

(154) المصدر نفسه، ص19.

(155) نايف محمد حسن الأحبابي، الموقف العربي والإقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي 1507-1650م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، 1988، ص16.

(156) Laurence Lookhant, Famouse Cities of Lran, Middleesex, 1939, p.103.

(157) طارق الحمداني وآخرون، المصدر السابق، ص20.

(158) D.Hawley, Somo Surpnising Aspects of Omani History Assian Affairs, Vol,8, No,I, 1982, p36.

(159) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص ص19-18.

(160) إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري، المصدر السابق، ص149.

(161) ينظر ليلى عبد الجواد، الحياة في هرمز في العصور الوسطى، متاح على الرابط الآتي:
http://www.alwahamag.com

(162) دياز الهرمزي، هرمز المملكة التي أبتلعها التاريخ، منتدى العرب على الرابط الآتي:
http://www.alnssabon.com

(163) منتدى الواحة، المصدر السابق.

(164) إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري، المصدر السابق، ص152.

(165) المصدر نفسه، ص151.

(166) المصدر نفسه، ص ص 152، 157.

(167) خواجه عطاء من أصول بنغالية أشتراه السلطان فخر الدين توران شاه والد أويس وائتمنه على أسراره ولم يحظ السلطان برضى الناس ومحبتهم لظلمه وجوره بسبب استبداد وزيره خواجه عطاء، وفيما بعد عين وزيراً على قلهات، ينظر، إبراهيم خوري، وأحمد جلال التدمري، المصدر السابق، ص160.

(168) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، بريطانيا وإمارات الساحل العماني، دراسة في العلاقات التعاقدية، مطبعة الأرشاد، بغداد، 1978، ص26.

(169) ابراهيم خوري، واحمد جلال التدميري، المصدر السابق، ص167.

(170) Wilson, A.T. The Persian Gulf, 3rd, London, 1959, p.116.

(171) إبراهيم محمد بشمي، مملكة هرمز الفقاعة الذهبية، ط1، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، المنامة، د.ت، ص32.

(172) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص172.

(173) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص24.

(174) Wilson, op.cit, p.114.

(175) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص42.

(176) المصدر نفسه، ص43.

(177) Wilson, op.cit, p116.

(178) إبراهيم محمد بشمي، المصدر السابق، ص32.

(179) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص176؛ ملخص تاريخ مملكة هرمز العربية متاح على الرابط الآتي: http://www.musandam.net.

(180) جمال زكريا قاسم، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية 1914-1945، القاهرة، 1973، ص66.

(181) لوريمر، دليل الخليج القسم التاريخي، ص13.

(182) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص179.

(183) المصدر السابق، ص179.

(184) أمين سعيد، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، بيروت، د.ت، ص29.

(185) محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص181.

(186) المصدر نفسه، ص182.

(187) إبراهيم خوري وأحمد جلال التدمري، المصدر السابق، ص ص 175، 176.

(188) بيدرو تخسيرا، الخليج والبحر الأحمر، ترجمة عيسى أمين، إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1966، ص16.

(189) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص46.

(190) بدر الدين عباس الخصوصي، المصدر السابق، ص20؛ الأحبابي، المصدر نفسه، ص47.

(191) المصدر نفسه، ص110.

(192) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص32.

(193) المصدر نفسه، ص 33-32؛ بدر الدين عباس الخصوصي، المصدر السابق، ص27.

(194) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص79.

(195) الموسوعة الحرة الويكيبديا http://ar.wihipwdia.org ؛ الأحبابي، المصدر السابق، ص116.

(196) بدر الدين عباس الخصوصي، المصدر السابق، ص27؛ لوريمر، المصدر السابق، ص15.

(197) جمال زكريا قاسم، المصدر السابق، ص80.

(198) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص117؛ محمد حميد سلمان، المصدر السابق، ص307.

(199) محمد حميد سلمان، المصدر نفسه، ص309.

(200) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص120.

(201) طارق نافع الحمداني، دور عرب عُمان في إقصاء البرتغاليين من الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، بغداد، العدد13، 1984، ص270.

(202) عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، المصدر السابق، ص34.

(203) نايف الأحبابي، المصدر السابق، ص ص120-121.

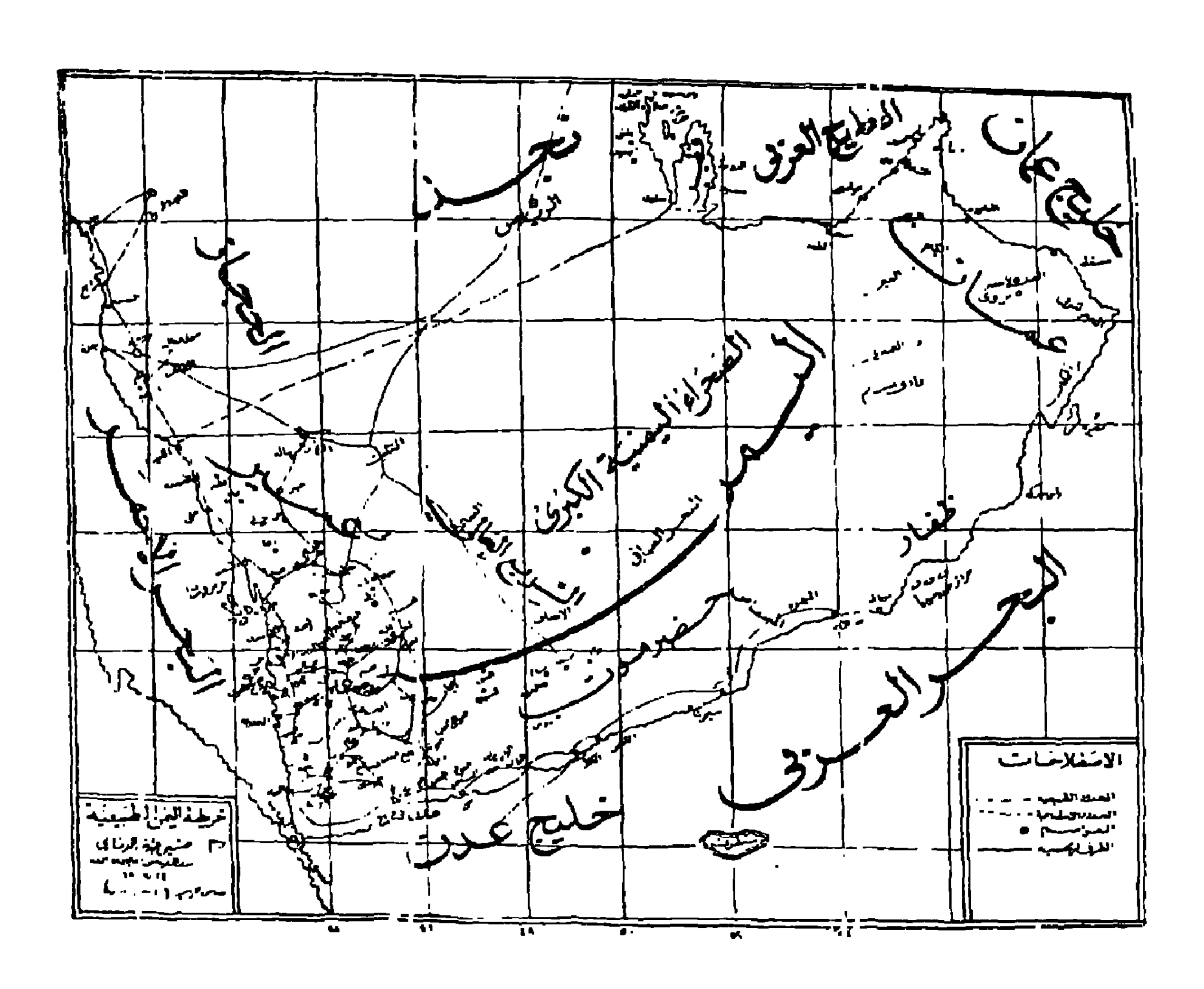
(204) أشار الدكتور بدر الدين الخصوصي إلى عوامل ضعف النفوذ البرتغالي في الخليج العربي نهاية القرن السادس عشر بالعوامل والأسباب الآتية:

- خضوع البرتغال الى العرش الأسباني عام 1580م على يد فليب الثاني لمدة زادت على ستين عاماً، استقلت بعدها البرتغال عام 1640م تحت حكم أحد أمراء أسرة براجانزا.
- سياسة البرتغاليين في المناطق المفتوحة القائمة على التعصب والجشع والقسوة، لذلك أثارت المواطنين ضدهم وإعلان ثوراتهم المتكررة عليهم.
- قلة العنصر البشري البرتغالي في المناطق المستعمرة، لذلك اعتمدوا على المرتزقة من الهنود للعمل في الحاميات.
- احتكار الحكومة البرتغالية للسلع المربحة ولم تترك الفرص أمام التجار البرتغاليين لتأسيس شركات احتكارية مماثلة لتلك التي أقامها الأنجليز والهولنديون.
- فقدان النظام في البحرية البرتغالية لتكرار حوادث التمرد والعصيان والخلاف المستمر مع كبار القادة.
- ظهور القوى البحرية المنافسة في منطقة الخليج العربي، منذ أوائل القرن السابع عشر، الهولنديين والأنجليز.
- ينظر دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر،ج1، ص ص28-29.

الملاحق

ملحق (1)

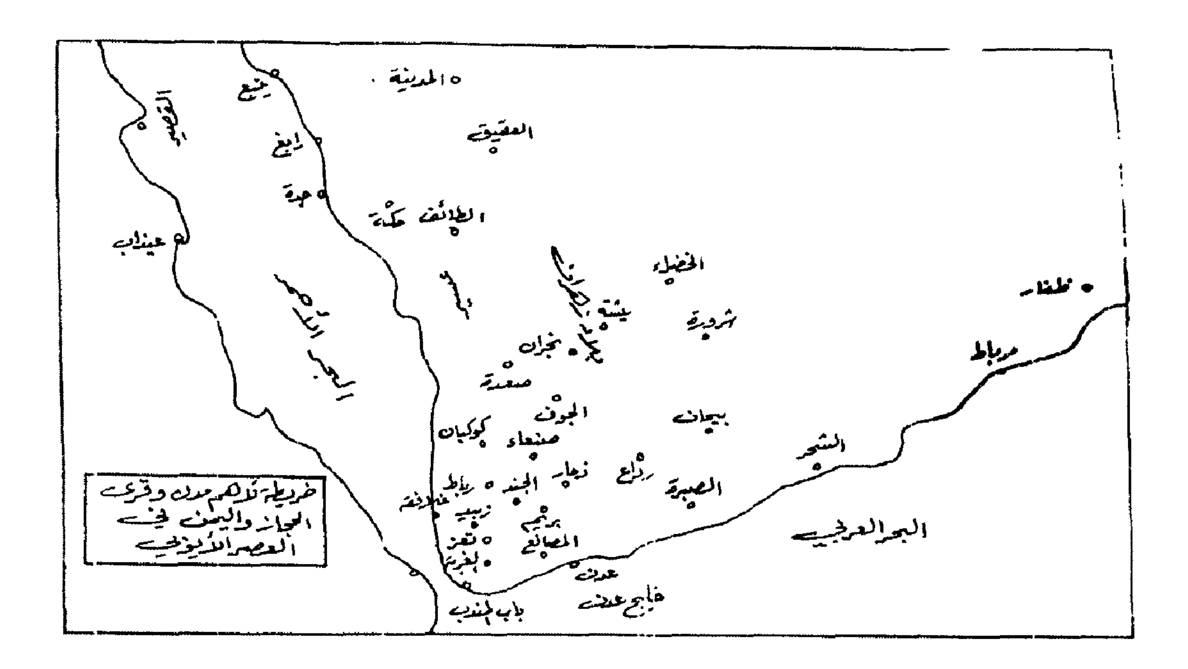
خارطة اليمن الطبيعية الموقع الجغرافي



المصدر محمد عبد الكريم ابراهيم الشمري المصدر السابق ص397

ملحق (2)

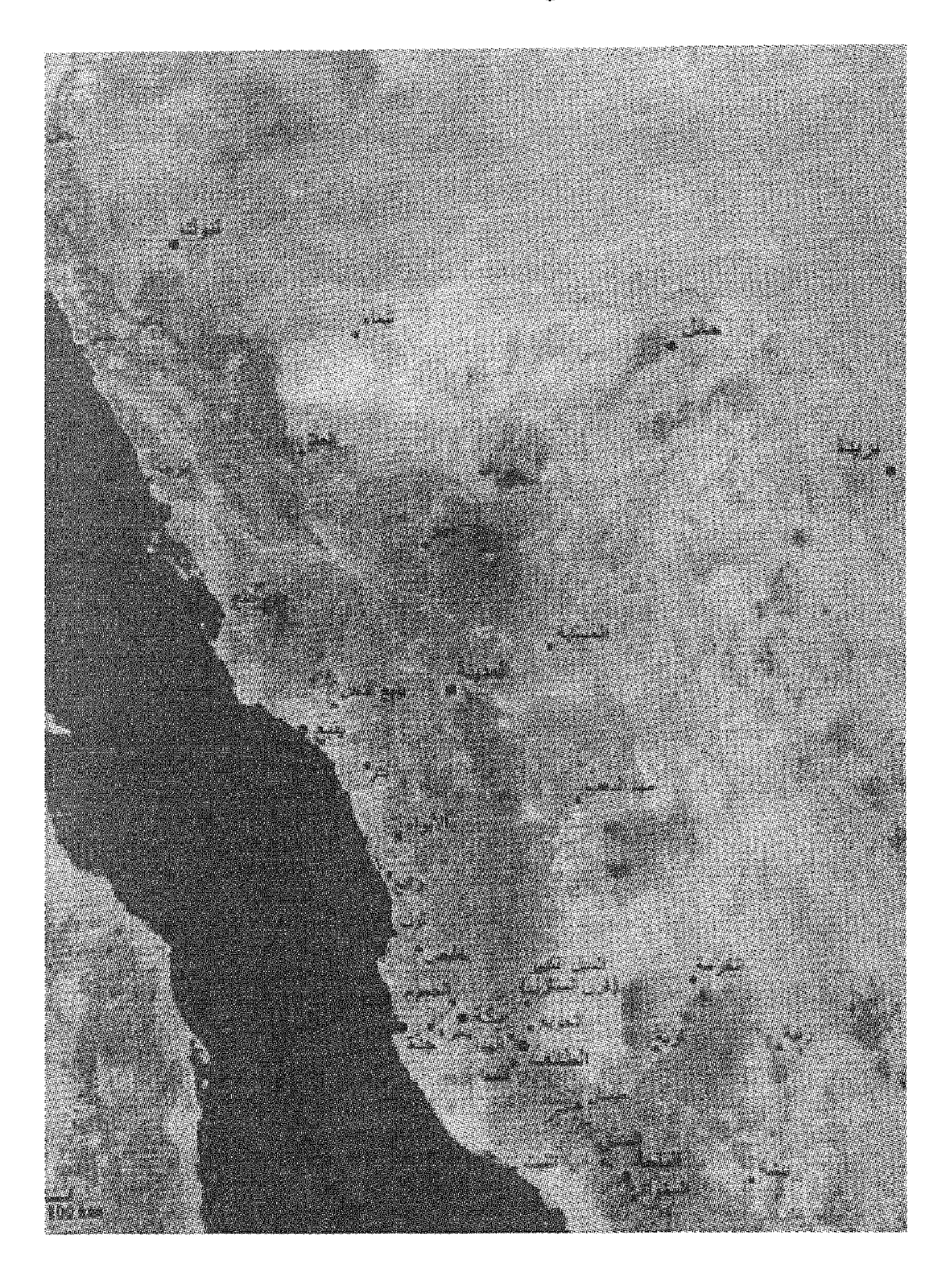
خارطة لاهم مدن وقرى الحجاز واليمن في العهد الأيوبي (1)



(1) المصدر: جميل حرب محمود حسين، المصدر السابق، ص276.

ملحق (3)

خارطة توزيع مدن وقرى الحجاز

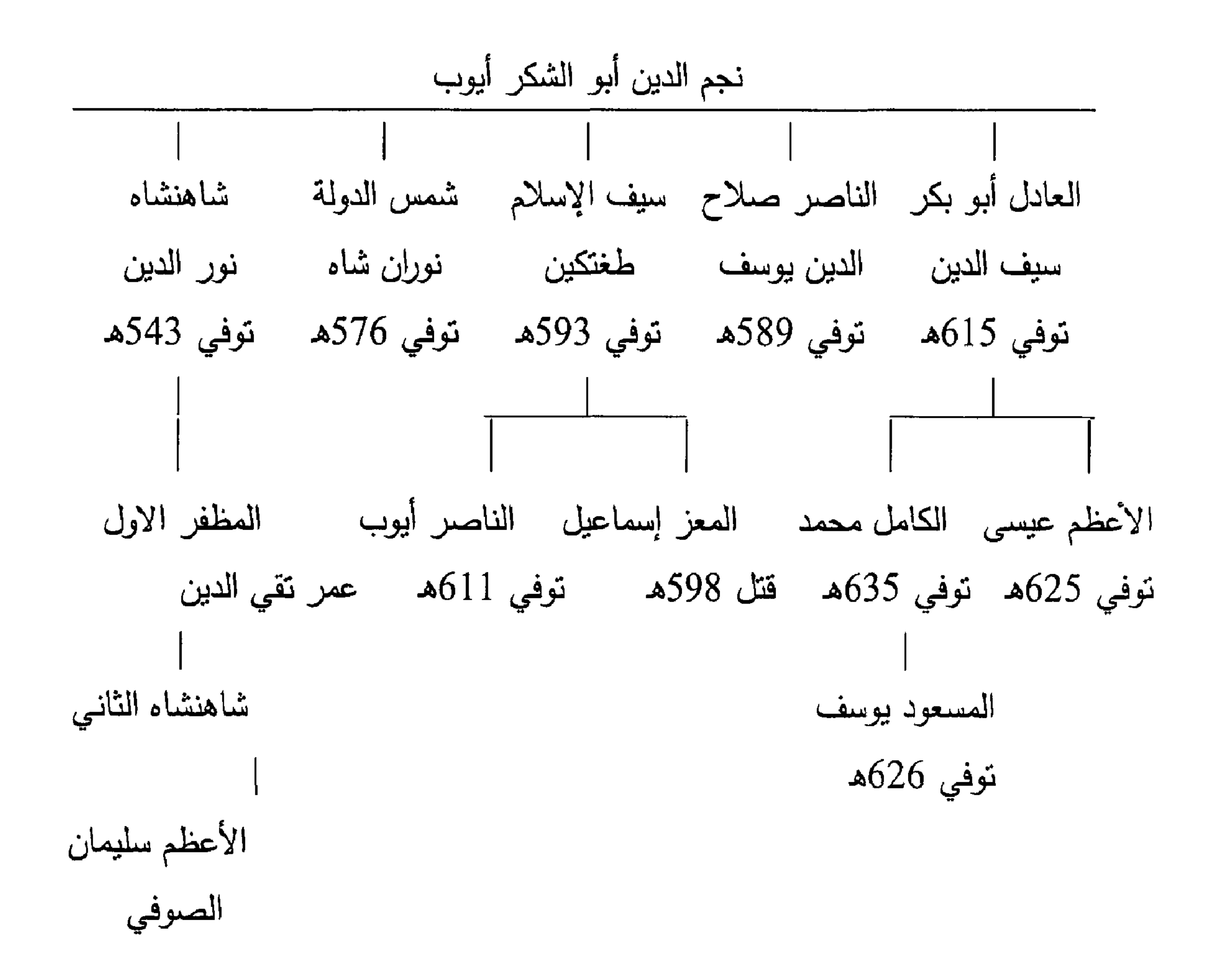


المصدر: الموسوعة الحرة الويكبيديا على الرابط الآتي: http://ar.wikipedia.org.

ملحق (4)

سلاطين دولة بني الأيوب في اليمن

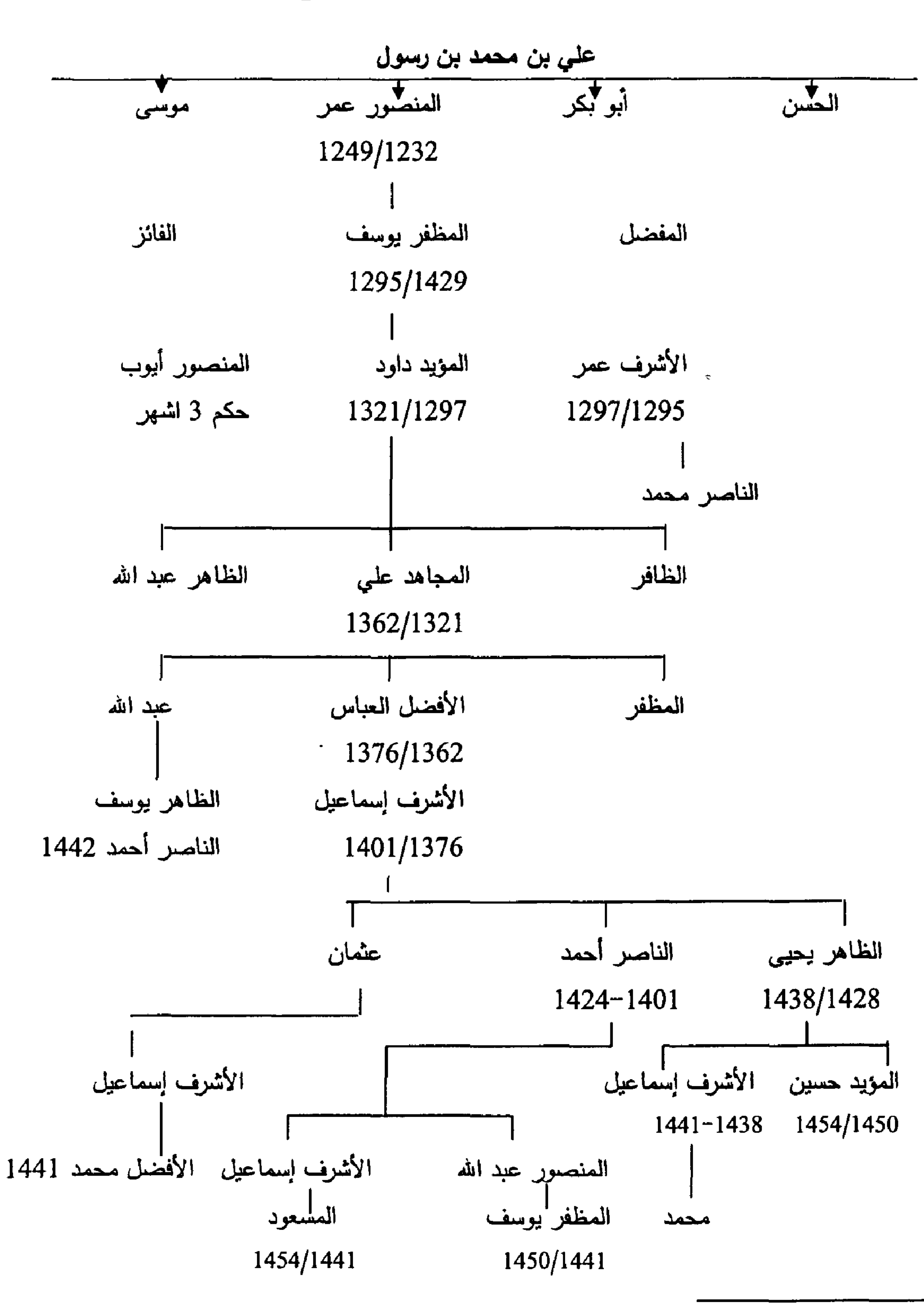
569-626هـ/1173-1228م



المصدر: محمد عبد الكريم الشمري، المصدر السابق، ص395.

ملحق (5)

سلاطين الدولة الرسولية في اليمن [1]



(1) المصدر: حمزة علي إبراهيم لقمان، المصدر السابق، ص109.

ملحق (6)

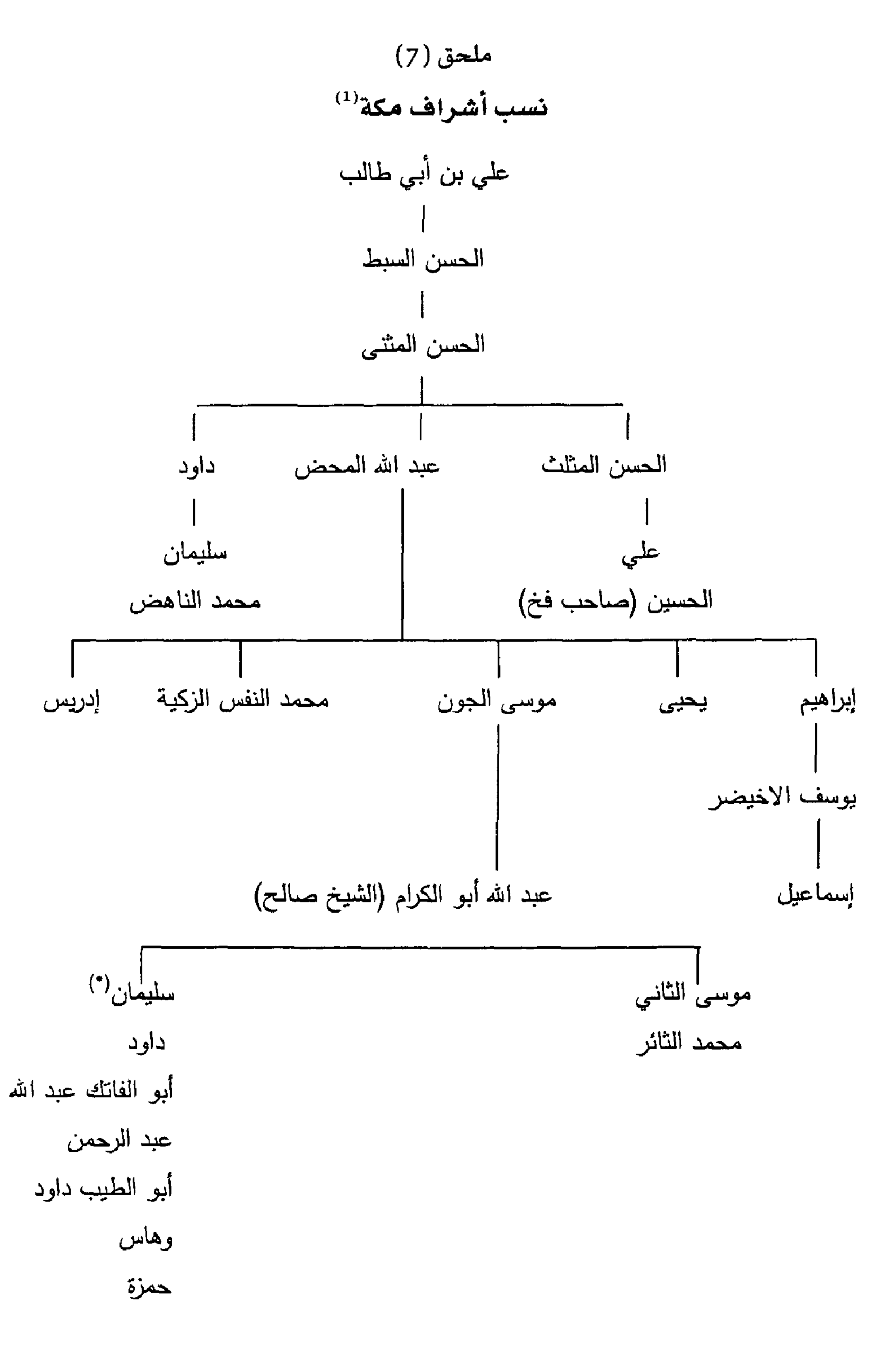
سلاطين الدولة الطاهرية في اليمن[1]

اسم السلطان	مدة الحكم من – إلى
الظافر علي بن طاهر	1454-1466م
المجاهد عامر بن طاهر	1466-1479م
المنصور عبد الوهاب بن طاهر	1479-1489م
الظافر عامر عبد الوهاب	1489-1517م
عامر بن داود	1517-1526م

(1) المصدر: صباح مهدي رميض، تاريخ جنوب الجزيرة العربية الحديث، ص275.

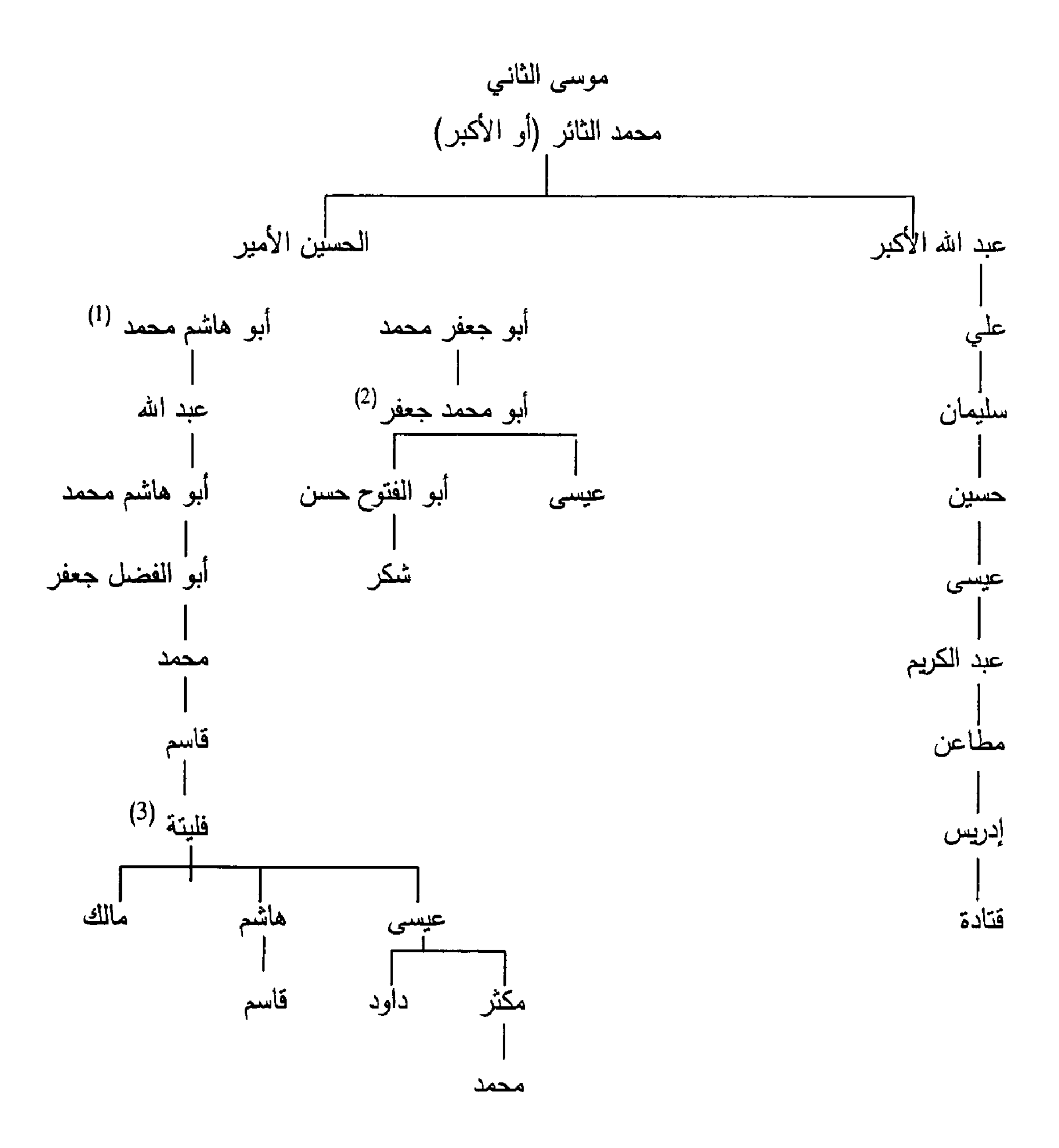
ملحق (7)

نسب أشراف مكة[1]



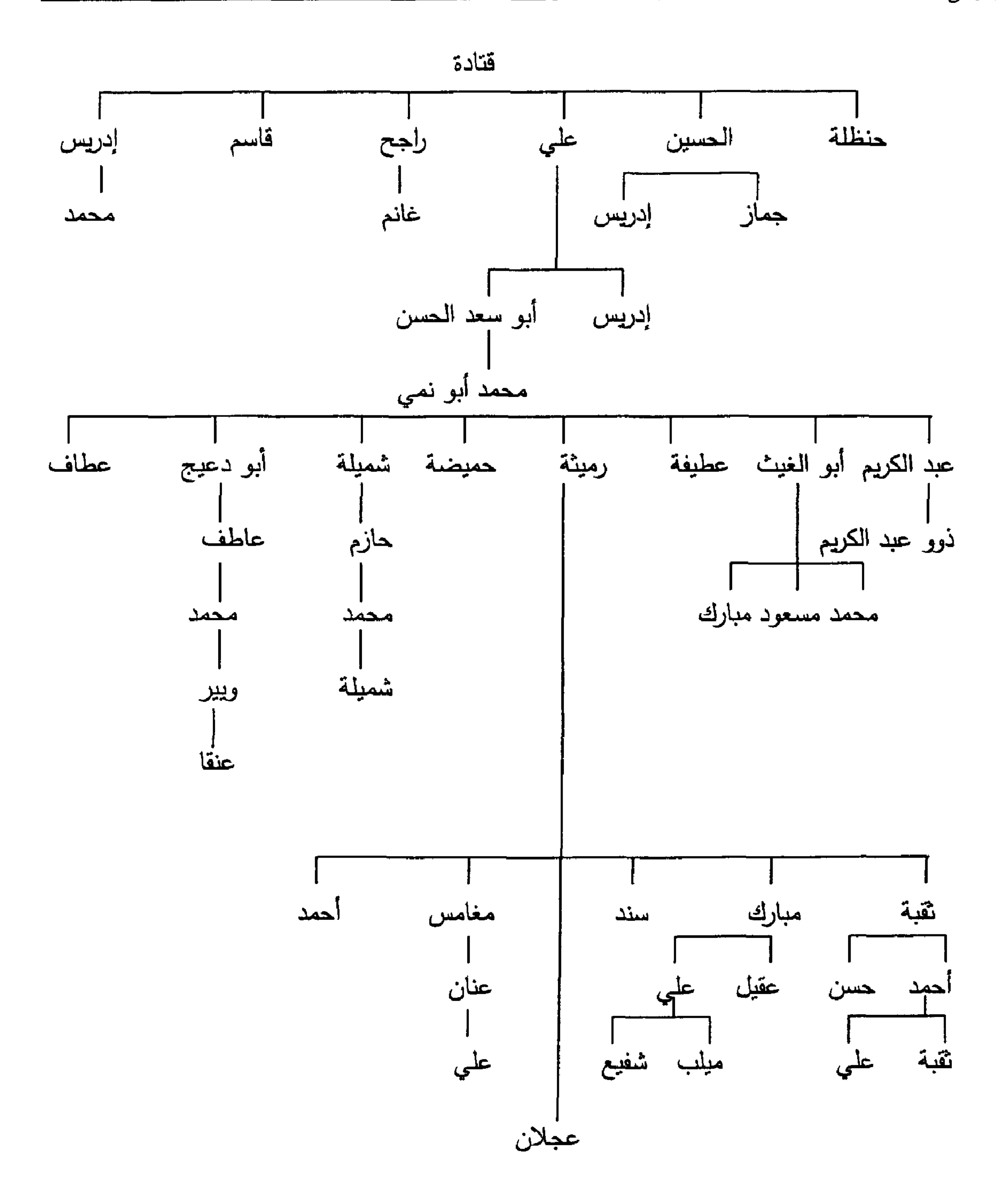
← يتبع

(*) يعرف ولده بالسليمانيين نسبة إليه.

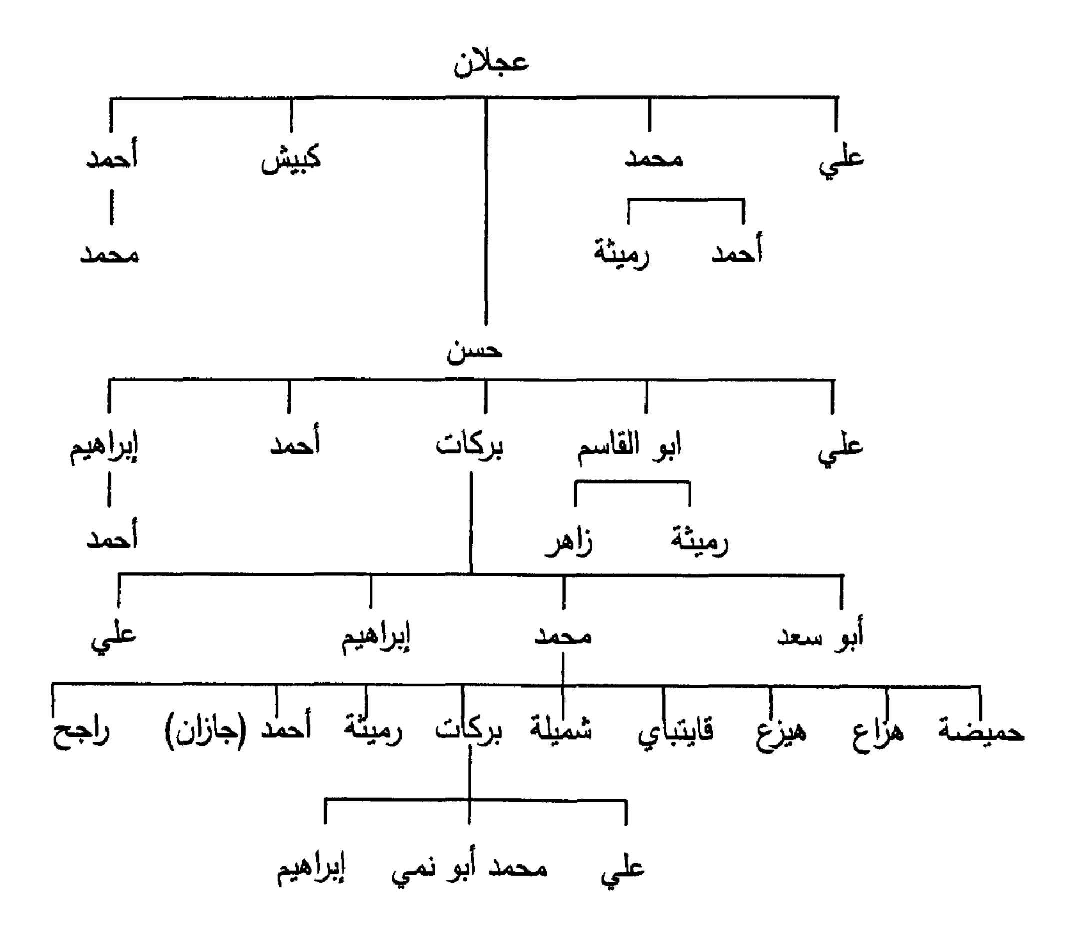


← يتبع

(1) يعرف أولاده بالحمافرة وهم أول من حكموا مكة من بني الحسن.
(2) يعرف ولده بالهواشم.
(3) يعرف أولاده ببني فليتة.


قتادة
حنظلة
الحسين
علي
راجح
قاسم
إدريس
جماز
إدريس
غانم
محمد
إدريس
أبو سعد الحسن
محمد أبو نمي
عبد الكريم
أبو الغيث
عطيفة
رميثة
حميضة
شميلة
أبو دعيج
عطاف
ذوو عبد الكريم
محمد مسعود مبارك
حازم
محمد
شميلة
عاطف
محمد
وبير
عنقا
ثقبة
مبارك
سند
مغامس
أحمد
أحمد
حسن
عقيل
علي
عنان
علي
ثقبة
علي
ميلب
شفيع
عجلان

← يتبع



(1) المصدر: ريتشارد مورتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص-239 242.

ملحق (8)

أمراء المدينة المنورة 647-919هـ[1]

- عيسى بن شيحة 647-656هـ
- منيف بن شيحة 656-657هـ
- جماز بن شيحة 657-666هـ
- مالك بن منيف من أمراء المدينة 666هـ
- الملك الظاهر ركن الدين بيبرس 667هـ
- منصور بن جماز 700-726هـ
- كبيش بن منصور 709-725هـ
- ماجد بن مقبل 717هـ
- مقبل بن جماز 709هـ
- طفيل بن منصور 728هـ
- ودي بن جماز 727-736هـ
- القاسم بن منصور 728هـ
- جخيدب بن منيف 736-743هـ
- ثابت بن جماز 742هـ
- عجمي بن طفيل 736هـ
- هيهان بنت مبارك أميرة المدينة 750هـ
- محمد بن مقبل 750هـ
- الفضل بن قاسم 752-753هـ
- مانع بن علي 753-759هـ
- جماز بن منصور 759هـ
- زيان بن منصور 759هـ
- عطية بن منصور 759-773هـ
- هبة بن جماز 773-782هـ
- نعير بن منصور 783هـ
- جماز بن هبة 783هـ
- ثابت بن نعير 789هـ
- محمد بن عطية بن منصور 785هـ
- علي بن عطية 789هـ

- حسن بن عجلان 811هـ أمير الحجاز/ مكة والمدينة
- عجلان بن نعير 811هـ نائب لحسن بن عجلان
- سليمان بن هبة 815هـ
- غرير بن هيازع 815هـ
- رميثة بن محمد 818هـ نائب بالسلطنة في الحجاز
- بركات بن حسن 829هـ نائب السلطنة بالأقطار الحجازية
- ثابت بن نعير 829هـ
- خشرم بن دوغان 829-830هـ
- مانع بن علي 830هـ
- اهنيان بن مانع 830هـ
- سليمان بن غرير بن هيازع 842هـ
- حيدرة بن دوغان 842هـ
- مونس بن كبيش 846هـ
- ضيغم بن خشرم 847هـ
- زبيري بن قيس 854هـ
- محمد بن بركات، أمير الحرمين والحجاز 859هـ
- زهير بن سلمان 865هـ
- الأمير الصغير 874هـ
- شامان بن زهير 878-883هـ
- الجمالي بن بركات (محمد بن بركات) 883هـ
- مجمول بن صخر، نائب لصاحب الحجاز 883هـ
- قسيطل بن زهير 883هـ
- الحسن بن زبيري 888هـ
- سرداح الحميضي 901هـ
- دارج بن معزي الحسيني 901هـ
- فارس بن شامان 901-916هـ
- ثابت بن ضيغم 919هـ [1]

(1) تم تثبيت أمراء المدينة المنورة بناءً على ما ورد من تعريفات قدّمها عارف أحمد عبد الغني في كتابه تاريخ أمراء المدينة المنورة، دار كنان للطباعة والنشر، وتم تحديدهم ما بين عامي 647-919هـ، وهي المدة المحددة زمنيا لموضوع كتابنا هذا، إلا أن المؤلف عبد الغني قد استعرض أدوارهم ما بين سنة 1-1417هـ، مع الإشارة إلى أننا أوردنا أسماء الأمراء فقط ولم نتعرض إلى أسماء الشيوخ الذين كلفوا بمهام امرة المدينة المنورة لذا اقتضى التنويه إلى ذلك.

ملحق (9)

امراء الدولة العصفورية [1]

عامر

شبانه

قديمة

شبانة

جحاف — المقداد عقيلة — غفيلة — السبيع — داود أبو ضبه

عمران — سنان

المقداد — عميرة — العقيدي

الحسين — راشد — أحمد

موس — محمد

هلال

محمد — عصفور — ماجد

سرحان — مانع — علي

ابو عاصم — مانع

معمر — محمد — راشد — حسين — عظيم — زيد — بدران

بحي — أحمد — موس — حسن — مانع — ماجد

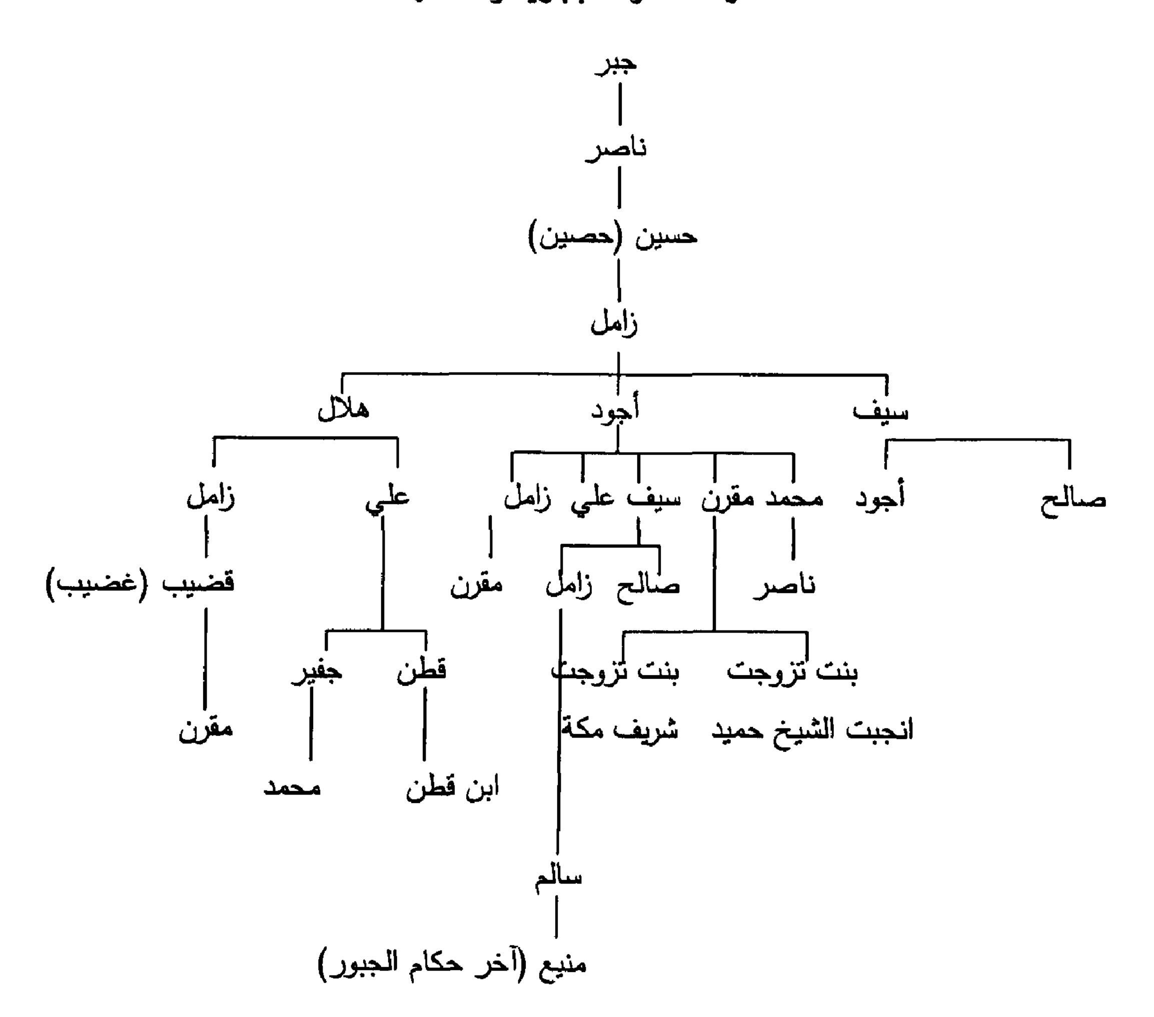
هلال — هلال — كلبي (كليب)

ماجد

(1) المصدر: محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص756.

ملحق (10)

أمراء الأسرة الجبرية وحكامها [1]



(1) المصدر: محمد محمود خليل، المصدر السابق، ص766.

قائمة
المصادر والمراجع

أولاً: المصادر المطبوعة

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي (ت630هـ/1228م)، الكامل في التاريخ، ج11، القاهرة، 1301هـ.
- ابن أياس، أبو بركات محمد بن أحمد (ت930هـ/1523م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج5، تحقيق محمود مصطفى، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، 1982.
- ابن بشر، الشيخ عثمان بن عبد الله، عنوان المجد في تاريخ نجد، تحقيق عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله، ج2، ط4، الرياض، 1985.
- ابن التغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت874هـ/1469م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج8، ج9، القاهرة، 1970.
- ابن جبير، أبو المحسن محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1964.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج5، بولاق، 1284.
- ابن الديبع، عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت944هـ/1537) قرة العيون بأخبار البلد الميمون، تحقيق محمد بن علي الأكوع، ط2، بيروت، دار بساط، 1988.
- ابن عنبة، جمال الدين أحمد بن علي الحسيني (ت748هـ/) عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، تحقيق السيد مهدي الرحابي، ط1، طهران، 2004.
- ابن كثير، عماد الدين إسماعيل (ت774هـ/1372م)، البداية والنهاية، ج12، مطبعة السعادة، القاهرة، 1351م.
- ابن مجاور، جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب (ت626هـ/1229م) صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المعروف بتاريخ المستبصر، عني بتصحيحه أوسكر لوففررين، ط2، بيروت، منشورات المدينة، 1407هـ/1986.
- أبو شامه، شهاب الدين عبد الرحمن إسماعيل المقدسي (ت665هـ)، ذيل الروضتين، بيروت، 1974.

- ـــــــــــــــــــــــ، الروضتين في أخبار الدولتين، تحقيق حلمي محمد أحمد، ج1، القاهرة، 1956.
- أبو مخرمه، أبو محمد عبد الله الطيب (ت947هـ/1540م)، تاريخ ثغر عدن، مطبعة ليدن، 1936.
- الحنبلي، أحمد إبراهيم (ت876هـ) شفاء القلوب في أخبار بني أيوب، تحقيق ناظم رشيد، دار الحرية، وزارة الثقافة والأعلام، بغداد، 1978.
- الحموي، شهاب الدين ياقوت عبد الله (ت626هـ) معجم البلدان، الاجزاء 2، 4، 5، 8، طهران، 1965؛ بيروت، 1990.
- الخزرجي، موفق الدين علي بن الحسين الأنصاري (ت812هـ)، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ج1، ج2، القاهرة، 1911.
- الرازي، محمد بن أبي بكر عبد القادر، مختار الصحاح، دار الكتاب العربي، د.ت.
- الرسولي، الأفضل، نزهة الظرفاء وتحفة الخلفاء، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود، دار الكتاب العربي، بيروت، 1405.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت1205هـ) البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، ج1، ط1، القاهرة، 1348هـ.
- علي، أبو ضياء عبد الرحمن (ت943هـ) قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، ج1، تحقيق محمد بن علي الأكوع الحوالي، المطبعة السلفية، القاهرة، 1971.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد (ت1418) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ج4، ج5، القاهرة، د.ت.
- ـــــــــــــــــــــــ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب، بيروت، 1980.
- محمد، يحيى بن الحسين بن القاسم (ت1693م)، أنباء الزمن في اخبار اليمن، القسم الأول، تحقيق محمد عبد الله ماضي، د.ط، 1926.
- ـــــــــــــــــــــــ، غاية الماني في اخبار القطر اليماني، ج1، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة، القاهرة، دار الكاتب العربي، 1388هـ/1968م.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين (ت346هـ)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، 1417هـ.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت845هـ/1442م)، السلوك لمعرفة دول الملوك، الأجزاء 1، 2، 3، قسم2، تحقيق مصطفى زيادة، ج4، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، 1956، 1973.

- النهروالي، قطب الدين، البرق اليماني في الفتح العثماني، تاريخ اليمن من القرن العاشر الهجري مع توسع في أخبار غزوات الشراكسة والعثمانيين 917هـ - 999هـ، أشرف على طبعة الشيخ حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، ط1، الرياض، 1967.

- الهمذاني، أبو بكر أحمد بن محمد، مختصر كتاب البلدان، مطبعة بريل، ليدن، 1932.

ثانياً: المراجع الحديثة

- أباظة، فاروق عثمان، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر 1839-1918، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1976.
- إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، بريطانيا وإمارات الساحل العُماني، دراسة في العلاقات التعاقدية، مطبعة الأرشاد، بغداد، 1978.
- ابن يوسف، محمد بن عبد الله، تاريخ ابن يوسف، دراسة وتحقيق الدكتور عويضة بن متريك الجهني، الرياض، 1999.
- أبو العلا، محمود طه، جغرافية شبه جزيرة العرب، ج1، مؤسسة سجل العرب، القاهرة، 1972.
- أحمد، إبراهيم خليل، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني 1516-1916، مطابع جامعة الموصل، 1989.
- أحمد، محمد عبد العال، الأيوبيون في اليمن مع مدخل في تاريخ اليمن الإسلامي الى عصرهم، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1980.
- ــــــــــــ، بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما 628-923هـ/1231-1517م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1989.
- الأشعب، خالص حسني، اليمن دراسة في البناء الطبيعي والاجتماعي والاقتصادي، منشورات وزارة الثقافة والأعلام، تسلسله 315، بغداد، 1982.
- البرادعي، أحمد بن محمد صالح، المدينة المنورة عبر التاريخ الإسلامي، مطابع دار الكتب، بيروت، 1972.
- البشمي، إبراهيم محمد، مملكة هرمز الفقاعة الذهبية، ط1، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، المنامة، د.ت.
- تخسيرا، بيدرو، تاريخ الخليج العربي والبحر الأحمر، ترجمة عيسى أمين، إصدارات مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1966.
- الثور، أحمد عبد الله، هذه هي اليمن، دار العودة، بيروت، 1969.

- جاوشيلي، إسماعيل خفي أوزوت، أمراء مكة في العهد العثماني، ترجمة خليل علي مراد، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، شعبة الدراسات والعلوم الاجتماعية سلسلة (75) البصرة، د.ت.

- الجرافي، عبد الله أحمد، المقتطف من تاريخ اليمن، القاهرة، 1951.

- الجميل، سيار كوكب علي، تكوين العرب الحديث 1516-1916، مطابع جامعة الموصل، 1991.

- حافظ، عبد السلام هاشم، المدينة المنورة في التاريخ، دراسة شاملة، منشورات نادي المدينة المنورة الأدبي،ط1، الرياض، 1982.

- حبيب، عزيز محمد، المملكة العربية السعودية، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1975.

- ـــــــــــــــــــ، التاريخ العام لليمن، اليمن الحديث، ج4، منشورات المدينة، بيروت، 1986.

- حداد، محمد يحيى، تاريخ اليمن السياسي، دار الهنا للطباعة، القاهرة، 1976.

- حسين، جميل حرب، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، تهامة المملكة العربية السعودية، مطابع سحر، ط1، 1985.

- حفظي، إبراهيم، تاريخ عسير، تحقيق محمد بن مسلط بن عيسى اليشري، ط5، القاهرة، 1413هـ.

- الحمداني، طارق وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، بغداد، د.ت.

- حمزة، فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، مكتبة مصر الحديثة، ط2، الرياض، 1968.

- حنظل، فالح، العرب والبرتغال، منشورات المجتمع الثقافي، أبو ظبي، ط1، 1997.

- حيدره، عبد الرحمن صالح، تكوين الجنوب العربي وثورة السلطنات ضد حكم الأئمة 1466-1733، ط1، 2008.

- خزعل، حسين خلف الشيخ، حياة الشيخ محمد عبد الوهاب، بيروت، 1968.

- الخصوصي، بدر الدين عباس، دراسات في تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ج1، ط2، جامعة الكويت، 1984.

- خليل، محمد محمود، تاريخ الخليج وشرق الجزيرة العربية المسمى إقليم بلاد البحرين في ضل حكم الدويلات العربية، مكتبة مدبولي، ط1، القاهرة، 2006.

- خوري والتدمري، إبراهيم، أحمد جلال، سلطة هرمز العربية، سيطرة سلطة هرمز العربية على الخليج العربي، مجلد الثاني، 611-913هـ/1214-1507م، رأس الخيمة، 1999.

- الدجيلي، محمد رضا حسن، الحياة الفكرية في اليمن في القرن السادس الهجري، منشورات مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، شعبة الدراسات والعلوم الاجتماعية (78)، البصرة، 1985.

- الدورة، علي إبراهيم، تاريخ الأحتلال البرتغالي للقطيف 1521-1572، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2001.

- رميض، صباح مهدي، أمارة عسير دراسة في أوضاعها الاجتماعية والأقتصادية والسياسية وعلاقاتها العربية والدولية 1876-1932، دار جوامع الكلم، السلسلة الجعبرية(2) دمشق، 2011.

- ______________، تاريخ جنوب الجزيرة العربية الحديث، دار الفكر ناشرون وموزعون، عمان الأردن، 2009.

- الريحاني، أمين، تاريخ نجد الحديث وملحقاته، بيروت، 1954.

- زامبارو، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، أخرجه زكي محمد حسن وحسن أحمد محمود، دار الرائد العربي، بيروت، 1980.

- زبارة، محمد بن محمد، ائمة اليمن، ج1، تغر، 1952.

- سالم، سيد مصطفى، الفتح العثماني الأول لليمن 1538-1653، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1969.

- سعيد، أمين، الخليج العربي تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، بيروت، د.ت.

- سلمان، محمد حميد، الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج 1057-1525، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2000.

- شبر، جاسم حسن، تاريخ المشعشعين، النجف، 1965.
- شرف الدين، أحمد حسين، اليمن عبر التاريخ من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين، ط2، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، 1964.
- الشعبي، عبد الفتاح، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في اليمن عصر الدولة الأيوبية 569-626هـ، د.ت.
- الشماحي، عبد الله بن عبد الوهاب، اليمن الإنسان والحضارة، ط3، بيروت، منشورات المدينة، 1986.
- الشمري، محمد كريم إبراهيم، عدن دراسة في أحوالها السياسية والاقتصادية 476-627هـ/1083-1229م، مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة، 1984.
- شهاب، حسن صالح، أضواء على تاريخ اليمن البحري، ط2، دار العودة، بيروت، 1981.
- ظاهر، علوي عبد الله، عدن التاريخ والازدهار من عهد الزريعيين الى عهد الأشتراكيين، جامعة عدن، د.ت.
- عاشور، سعيد عبد الفتاح، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام والقاهرة، 1970.
- عبد الغني عارف، تاريخ أمراء المدينة المنورة 1هـ- 1417هـ دار كنان للطباعة والنشر والتوزيع، سلسلة تواريخ المدن رقم (3)، الرياض، د.ت.
- ـــــــــــــــــــــــــــ، تاريخ أمراء مكة المكرمة، دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1992.
- العبدلي، أحمد فضل بن علي محسن، هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن، القاهرة، 1351هـ.
- العرشي، حسين أحمد، بلوغ المرام في شرح مسك الختام من تولى اليمن من ملك وأمام، نشره الأنستانس الكرملي، القاهرة، 1931.
- العريني، سعيد الباز، مصر في عهد الأيوبيين، القاهرة، 1960.
- العزاوي، عباس، تاريخ العشائر العراقية، ج4، بغداد، 1938.

- العزاوي، محمد، الجمهورية العربية اليمنية، ط1، دار الثقافة، بيروت، 1975.
- العطار، محمد سعيد، التخلف الاقتصادي والاجتماعي في اليمن، المطبوعات الوطنية الجزائرية، الجزائر، 1965.
- العقيلي، محمد أرشيد، الخليج العربي في العصور الإسلامية منذ فجر الإسلام حتى مطلع العصور الحديثة، دار الفكر العربي، بيروت، د.ت.
- العقيلي، محمد بن أحمد عيسى، المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ، ج1، ج2، الرياض، 1318هـ.
- فخري، أحمد، اليمن ماضيها وحاضرها، مراجعة وتعليق عبد الحليم نور الدين، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط1، بيروت، 1975.
- فوزي، فاروق عمر، تاريخ الخليج العربي في العصور الإسلامية الوسطى، دار واسط، بغداد، 1985.
- الفيفي، عصام الدين عبد الرؤوف، اليمن في ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام دولة بني الرسول، ط1، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982.
- الفيفي، محمد بن يحيى، الدولة الرسولية في اليمن، دراسة في أوضاعها السياسية والحضارية 803-827هـ/1400-1424م، الدار العربية للموسوعات، بيروت، 2005.
- قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي دراسة لتاريخ الأمارات العربية 1914-1945، القاهرة، 1973.
- لقمان، حمزة علي إبراهيم، تاريخ عدن وجنوب الجزيرة العربية، دار مصر للطباعة، القاهرة، 1960.
- لوبون، كوستاف، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، ط4، القاهرة، 1964.
- لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ج1، أعداد قسم الترجمة بديوان مكتب صاحب السمو أمير قطر، د.ت.
- محمد صبحي عبد المنعم، العلاقات بين مصر والحجاز من الفاطميين والأيوبيين، القاهرة، ت.

- المخطوط العربي، تاريخ اليمن في الدولة الرسولية برقم 4609، المكتبة الوطنية في باريس، حققه وضع مقدمته وعلق عليه هيكوايش باجيما، طوكيو، 1976.

- المديرس، عبد الرحمن مديرس، المدينة المنورة في العصر المملوكي-648- الإسلامية، الرياض، 2001.

- مورتيل، ريشرد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، عمادة شؤون المكتبات، جامعة الملك سعود، ط1، الرياض، 1985.

- ناتجو، قادر إسحاق، تاريخ الشراكس، ترجمة محمد أزوفه، دار ورد للتوزيع والنشر، ط1، عمان، 2009.

- الواسعي، عبد الواسع بن يحيى، البدر المزيل للحزن في فضل اليمن ومحاسن صنعاء ذات المنن، ط1، مطبعة التضامن، القاهرة، 1345هـ.

- الويسي، حسين بن علي، اليمن الكبرى، ج1، ط2، مكتبة الآرشاد، صنعاء، 1919.

- اليافعي، صلاح البكري، تاريخ جنوب الجزيرة العربية، مطبوعات وزارة الثقافة والسياحة والإرشاد القومي، دمشق، 1967.

ثالثاً: الرسائل والأطاريح الجامعية غير المنشورة

- الأحبابي، نايف محمد حسن، الموقف العربي والأقليمي من الهيمنة البرتغالية في الخليج العربي 1507-1650، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الأداب، جامعة بغداد، 1988.
- الجابري، محمد هليل، أمارة المشعشعين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الأداب، جامعة بغداد، 1980.
- الخطيب، ياسر حزام هزاع، التعليم في اليمن في عهد الدولة الأيوبية 569-616هـ/1174-1229، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة صنعاء، 2007.
- الشعبي، عبد الفتاح قاسم، الحياة الاجتماعية والأقتصادية في اليمن عصر الدولة الأيوبية 569-626هـ، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة صنعاء، 2009.
- العامري، ليلى سلمان ماضي، مدينة زبيد في اليمن خلال عهدي بني مهدي وبني أيوب 1159-1229، دراسة في احوالها السياسية والأقتصادية، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة بابل، 2006.
- نجاد، عبد الله محمد علي، الاهمية الأستراتيجية للجزر اليمنية في البحر الأحمر وخليج عدن أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ والتراث العلمي في بغداد، 2000.

رابعاً: الأبحاث والدراسات

- التكريتي، محمود ياسين، الأيوبيون في اليمن تاريخهم السياسي 1174-1226، مجلة أداب الرافدين، جامعة الموصل، العدد 12، كانون الأول، 1980.
- الحمداني، طارق، دور عرب عمان في أقصاء البرتغاليين من الخليج العربي خلال النصف الأول من القرن السابع عشر، مجلة معهد البحوث والدراسات العربية، العدد13، بغداد، 1984.
- الحميدان، عبد اللطيف ناصر، أمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الأداب، جامعة البصرة، العدد15، لسنة 1979.
- ــــــ، التاريخ السياسي لأمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية 820-931هـ/1417-1525م، مجلة كلية الآداب، جامعة البصرة، العدد16، لسنة 1980.
- عبد المنعم، شاكر محمود، الملك الأشرف إسماعيل الغساني وجهوده الثقافية، مجلة المؤرخ العربي، العدد 8، بغداد، 1978.

خامساً: كتب الموسوعات

- دائرة المعارف الإسلامية، ج14، القاهرة.
- موسوعة تاريخ الحضارة العربية، ج15، ج16، (د.ط).
- الموسوعة العربية الميسرة، مجلد الثاني، دار النهضة، بيروت، 1987.

سادساً: المراجع الانجليزية

- Burckhardt, J.L, Travels in Arabia, Vol.2, Cambridge, London, 1819.
- D.Hawley, Somo surprising, Aspects of Omani History Asian Affairs, Vol.8, No.I, 1982.
- El-Khazrejiyy, The Pearl-Strings, A history of the Resuliyy Dynasty of Yemen Ed, by E-G, Brown Gibb, memorial series, Vol.3, London, 1906.
- Hill, J.C, Arab Agriculture in the middle age, London, 1975.
- H. Yajima, The Arab Dhow Trade in The Indian Ocean, Tokyo, 1976.
- J.B. Kelley, Sovereignty and Jurisdiction in Eastern Arabia international affairs, Vol.34, I, London, 1959.
- J.H. Stevens, Man and Environment in Eastern Saudi Arabia, I, London, 1974.
- Kay, H.C. Yemen, it's early mediaeval History, London, 1882.
- Laurence Lookhant, Famous cities of Iran, Middlee Sex, 1939.
- Playfair Robet Lambert, A history of Arabia Felix or Yemen selection from the records of Bombay Government, Bombay, 1859.
- Serjeant, R.B., The Portuguese of the south Arabian coast oxford, 1954.
- Wilson, A.T., The Persian Gulf, 3rd, London.

سابعاً: شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)

- http://ar.wikipedia.org.
- http://www.yemen.nic.info.
- http://arab.ency.
- www.marefa.org.
- www.attagammua.net.
- http:// alnwaihi.maktoobblog.com.
- http://www.taz.net.
- http://www.vb.m.yemen.com.
- http://www.startimes.com.
- http://www.tazgov.com.
- http://www.wata.cc.
- http://www.abanboard.net.
- http://www.wfrt.org.
- http://hajeji.blogsot.com.
- http://www.almaharah.net.
- Ahmedaldhurafi.makoobblog.
- www.vb.n4hr.com.
- www.almotaman.net.
- www.madhaj-nais-blogfa.com.
- www.wanees.com.
- www.94emen.com.

- http://www.hdrmut.net.
- www.alalbayt.com.
- http://www.alashraf.ws.
- www.soso.com.
- http://www.aljoora.com.
- http://www.ahbab.taiba.com.
- http://talalsaleh.blogspot.com.
- http://www.rayat-alizz.com.
- http://www.arriyadh.com.

تاريخ الجزيرة العربية

من القرن الثالث عشر حتى العهد العثماني







www.daralfiker.com